نهج الشيعة

تدبرات في رسالة
الإمام الصادق عليه السلام إلى الشيعة

من محاضرات

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى
السيد صادق الحسيني الشيرازي

نهج الشّيعة

تدبّرات في رسالة

الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَام إلى الشيعة

نهج الشّيعة

تدبّرات في رسالة

الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَام إلى الشيعة

محاضرات

المرجع الدّيني آية الله العظمى

السّيد صادق الحسيني الشّيرازي (دَامَ ظِلُّهُ)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا

ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

كلمة المؤسسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على الهادي البشير والسّراج المنير محمد وآله الطاهرين.

وبعد فقد جرت سيرة الشّيعة، منذ عهد المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، على تلقّي العلوم والمعارف الأصيلة من بيت الوحي ومعادن العلم الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً.

وقد استمرّت هذه السّيرة عبر العصور المختلفة إلى عصر الغيبة الشّريفة، حيث انسدّ باب العلم وأحيل الموالون على الفقهاء، وذلك بإمضاء من المولى صاحب العصر والزّمان عَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيف في التّوقيع الشّريف، حيث ورد عنه: وأمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا ، فإنّهم حجّتي عليكم وأنّا حجّة الله[1].

وفي غضون عصر الغيبة أيضاً لم يتراجع الشّيعة عن سيرتهم في تحصيل المعارف وتلقّي العلوم حيث امتثلوا أمر المولى صاحب العصر عَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيف، ولازموا فقهاءهم الذين حفظوا التّراث الضّخم الوارد عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وحرصوا على نشره وإيصاله للأجيال جيلاً بعد آخر.

ومن ضمن عناية علماء الشّيعة بتراث المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هو حرصهم الشّديد

(١) كمال الدين ص٤٨٤.

على دراسة وتدريس ما بلغهم عن المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، لذا تجد أنّ الشّروح على خطب أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ورسائلهم وكلماتهم كثيرة جداً، ومنها الشّروح المتعدّدة لنهج البلاغة والكتب الأربعة، فضلاً عن سائر مصنّفات الحديث والرّواية.

بالرغم من ذلك إلّا أنّ هناك الكثير من كلماتهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لم يتناولها إلاّ القليل من الفقهاء بالبحث، ومنها رسالة الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الشّيعة، وهي بجدّ رسالة شريفة ومهمّة وغنيّة في محتوياتها، وعظيمة في مطالبها، لذا كان الشّيعة يضعونها في مصلاّهم ويتعاهدونها عقيب الصّلوات.

ونظراً لأهمّية الرّسالة، ووفرة محتواياتها، وكثرة ما فيها من معارف وآداب وسنن، فقد تصدّى سماحة المرجع الدّيني، المدقّق المحقّق، آية الله العظمى السّيد صادق الحسيني الشّيرازي دَامَ ظِلُّهُ الشَّرِيف إلى شرحها وبيان بعض مطالبها بأسلوب سهل عميق، وذلك في مباحث الأخلاق الأسبوعيّة التي كان يلقيها على بعض الفضلاء وطلبة العلوم الدّينيّة قبل تصدّيه للمرجعيّة بسنين.

وحيث إنّ الدّروس أُلقيت باللّغة الفارسيّة، ارتأت مؤسّسة الرّسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الثّقافية تعريبها، لتكون الفائدة أعمّ، فعمد الأخ علي ضميري إلى تعريبها، وبعد التّعريب عمد فضيلة حجّة الإسلام الشيخ جاسم الأديب إلى مراجعة التّعريب وإعادة صياغة الكتاب وتبويبه وترتيب ما يلزم ترتيبه فيه.

راجين من الله العليّ القدير أن نكون قد وفّقنا للمساهمة في نشر معارف أهل البيت عليهم السّلام، وإيصال علومهم الثّمينة إلى العالم، وأن يتقبّله الباري عزّ وجلّ منّا بقبوله الحسن.

مؤسسة الرّسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الثّقافية

١٣ جمادى الثانية ١٤٣٤ هـ

رسالة الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الْكُلَيْنِيُّ قَالَ حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ فَضَّالٍ عَنْ حَفْصٍ الْمُؤَذِّنِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ بَزِيعٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَابِرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ كَتَبَ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ إِلَى أَصْحَابِهِ وَأَمَرَهُمْ بِمُدَارَسَتِهَا وَالنَّظَرِ فِيهَا وَتَعَاهُدِهَا وَالْعَمَلِ بِهَا فَكَانُوا يَضَعُونَهَا فِي مَسَاجِدِ بُيُوتِهِمْ فَإِذَا فَرَغُوا مِنَ الصَّلَاةِ نَظَرُوا فِيهَا قَالَ وَحَدَّثَنِي الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَالِكٍ الْكُوفِيِّ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ الرَّبِيعِ الصَّحَّافِ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مَخْلَدٍ السَّرَّاجِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ خَرَجَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ مِنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَصْحَابِهِ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَمَّا بَعْدُ فَاسْأَلُوا رَبَّكُمُ الْعَافِيَةَ، وَعَلَيْكُمْ بِالدَّعَةِ وَالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ، وَعَلَيْكُمْ بِالْحَيَاءِ وَالتَّنَزُّهِ عَمَّا تَنَزَّهَ عَنْهُ الصَّالِحُونَ قَبْلَكُمْ، وَعَلَيْكُمْ بِمُجَامَلَةِ أَهْلِ الْبَاطِلِ، تَحَمَّلُوا الضَّيْمَ مِنْهُمْ وَإِيَّاكُمْ وَمُمَاظَّتَهُمْ. دِينُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ إِذَا أَنْتُمْ جَالَسْتُمُوهُمْ وَخَالَطْتُمُوهُمْ وَنَازَعْتُمُوهُمُ الْكَلَامَ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَكُمْ مِنْ مُجَالَسَتِهِمْ وَمُخَالَطَتِهِمْ وَمُنَازَعَتِهِمُ الْكَلَامَ بِالتَّقِيَّةِ الَّتِي أَمَرَكُمُ اللهُ أَنْ تَأْخُذُوا بِهَا فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ، فَإِذَا ابْتُلِيتُمْ بِذَلِكَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُمْ سَيُؤْذُونَكُمْ وَتَعْرِفُونَ فِي وُجُوهِهِمُ الْمُنْكَرَ

وَلَوْلا أَنَّ اللهَ تَعالَى يَدْفَعُهُمْ عَنْكُمْ لَسَطَوْا بِكُمْ، وَمَا فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْعَداوَةِ وَالْبَغْضاءِ أَكْثَرُ مِمَّا يُبْدُونَ لَكُمْ. مَجالِسُكُمْ وَمَجالِسُهُمْ واحِدَةٌ وَأَرْواحُكُمْ وَأَرْواحُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ لا تَأْتَلِفُ، لا تُحِبُّونَهُمْ أَبَداً وَلا يُحِبُّونَكُمْ، غَيْرَ أَنَّ اللهَ تَعالَى أَكْرَمَكُمْ بِالْحَقِّ وَبَصَّرَكُمُوهُ وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ مِنْ أَهْلِهِ فَتُجامِلُونَهُمْ وَتَصْبِرُونَ عَلَيْهِمْ. وَهُمْ لا مُجامَلَةَ لَهُمْ وَلا صَبْرَ لَهُمْ عَلَى شَيْءٍ وَحِيَلُهُمْ وَسْواسُ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ، فَإِنَّ أَعْداءَ اللهِ إِنِ اسْتَطاعُوا صَدُّوكُمْ عَنِ الْحَقِّ فَيَعْصِمُكُمُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ. فَاتَّقُوا اللهَ وَكُفُّوا أَلْسِنَتَكُمْ إِلا مِنْ خَيْرٍ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُزْلِقُوا أَلْسِنَتَكُمْ بِقَوْلِ الزُّورِ وَالْبُهْتانِ وَالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ فَإِنَّكُمْ إِنْ كَفَفْتُمْ أَلْسِنَتَكُمْ عَمَّا يَكْرَهُهُ اللهُ مِمَّا نَهاكُمْ عَنْهُ كانَ خَيْراً لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ مِنْ أَنْ تُزْلِقُوا أَلْسِنَتَكُمْ بِهِ، فَإِنَّ زَلَقَ اللِّسانِ فِيمَا يَكْرَهُ اللهُ وَمَا يَنْهَى عَنْهُ مَرْدَاةٌ لِلْعَبْدِ عِنْدَ اللهِ وَمَقْتٌ مِنَ اللهِ وَصَمٌّ وَعَمًى وَبَكَمٌ يُورِثُهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَتَصِيرُوا كَما قالَ اللهُ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾، يَعْنِي لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ.

وَإِيَّاكُمْ وَمَا نَهاكُمُ اللهُ عَنْهُ أَنْ تَرْكَبُوهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالصَّمْتِ إِلا فِيمَا يَنْفَعُكُمُ اللهُ بِهِ مِنْ أَمْرِ آخِرَتِكُمْ وَيَأْجُرُكُمْ عَلَيْهِ، وَأَكْثِرُوا مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّقْدِيسِ وَالتَّسْبِيحِ وَالثَّناءِ عَلَى اللهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ وَالرَّغْبَةِ فِيمَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي لا يَقْدِرُ قَدْرَهُ وَلا يَبْلُغُ كُنْهَهُ أَحَدٌ، فَاشْغَلُوا أَلْسِنَتَكُمْ بِذَلِكَ عَمَّا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنْ أَقاوِيلِ الْباطِلِ الَّتِي تُعْقِبُ أَهْلَها خُلُوداً فِي النَّارِ مَنْ ماتَ عَلَيْها وَلَمْ يَتُبْ إِلَى اللهِ وَلَمْ يَنْزِعْ عَنْها.

وَعَلَيْكُمْ بِالدُّعاءِ فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُدْرِكُوا نَجاحَ الْحَوائِجِ عِنْدَ رَبِّهِمْ بِأَفْضَلَ مِنَ الدُّعاءِ وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللهِ وَالْمَسْأَلَةِ لَهُ فَارْغَبُوا فِيمَا رَغَّبَكُمُ اللهُ فِيهِ وَأَجِيبُوا اللهَ إِلَى مَا دَعاكُمْ إِلَيْهِ لِتُفْلِحُوا وَتَنْجُوا مِنْ عَذابِ اللهِ. وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَشْرَهَ أَنْفُسُكُمْ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَإِنَّهُ مَنِ انْتَهَكَ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ هاهُنا فِي الدُّنْيا حالَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِها وَلَذَّتِها وَكَرامَتِها الْقائِمَةِ الدَّائِمَةِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ أَبَدَ الْآبِدِينَ. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ بِئْسَ الْحَظُّ الْخَطَرُ لِمَنْ خاطَرَ اللهَ بِتَرْكِ طاعَةِ اللهِ وَرُكُوبِ مَعْصِيَتِهِ فَاخْتارَ أَنْ يَنْتَهِكَ مَحارِمَ اللهِ فِي لَذَّاتِ

دُنْيَا مُنْقَطِعَةٍ زَائِلَةٍ عَنْ أَهْلِهَا عَلَى خُلُودِ نَعِيمٍ فِي الْجَنَّةِ وَلَذَّاتِهَا وَكَرَامَةِ أَهْلِهَا، وَيْلٌ لِأُولَئِكَ مَا أَخْيَبَ حَظَّهُمْ وَأَخْسَرَ كَرَّتَهُمْ وَأَسْوَأَ حَالَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. اسْتَجِيرُوا اللَّهَ أَنْ يُجِيرَكُمْ فِي مَثَالِهِمْ أَبَداً وَأَنْ يَبْتَلِيَكُمْ بِمَا ابْتَلاهُمْ بِهِ وَلا قُوَّةَ لَنَا وَلَكُمْ إِلا بِهِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ أَيَّتُهَا الْعِصَابَةُ النَّاجِيَةُ إِنْ أَتَمَّ اللَّهُ لَكُمْ مَا أَعْطَاكُمْ بِهِ فَإِنَّهُ لا يَتِمُّ الْأَمْرُ حَتَّى يَدْخُلَ عَلَيْكُمْ مِثْلُ الَّذِي دَخَلَ عَلَى الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ وَحَتَّى تُبْتَلَوْا فِي أَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَحَتَّى تَسْمَعُوا مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ أَذًى كَثِيراً فَتَصْبِرُوا وَتَعْرُكُوا بِجُنُوبِكُمْ وَحَتَّى يَسْتَذِلُّوكُمْ وَيُبْغِضُوكُمْ وَحَتَّى يُحَمِّلُوا عَلَيْكُمُ الضَّيْمَ، فَتَحَمَّلُوا مِنْهُمْ تَلْتَمِسُونَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ وَحَتَّى تَكْظِمُوا الْغَيْظَ الشَّدِيدَ فِي الْأَذَى فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَجْتَرِمُونَهُ إِلَيْكُمْ وَحَتَّى يُكَذِّبُوكُمْ بِالْحَقِّ وَيُعَادُوكُمْ فِيهِ وَيُبْغِضُوكُمْ عَلَيْهِ فَتَصْبِرُوا عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ جَبْرَئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ سَمِعْتُمْ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ فَقَدْ كُذِّبَ نَبِيُّ اللَّهِ وَالرُّسُلُ مِنْ قَبْلِهِ وَأُوذُوا مَعَ التَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ فَإِنْ سَرَّكُمْ أَمْرُ اللَّهِ فِيهِمُ الَّذِي خَلَقَهُمْ لَهُ فِي الْأَصْلِ -أَصْلِ الْخَلْقِ- مِنَ الْكُفْرِ الَّذِي سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنْ يَخْلُقَهُمْ لَهُ فِي الْأَصْلِ، وَمِنَ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ فَتَدَبَّرُوا هَذَا وَاعْقِلُوهُ وَلا تَجْهَلُوهُ، فَإِنَّهُ مَنْ يَجْهَلْ هَذَا وَأَشْبَاهَهُ مِمَّا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ تَرَكَ دِينَ اللَّهِ وَرَكِبَ مَعَاصِيَهُ فَاسْتَوْجَبَ سَخَطَ اللَّهِ فَأَكَبَّهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ. وَقَالَ أَيَّتُهَا الْعِصَابَةُ الْمَرْحُومَةُ الْمُفْلِحَةُ إِنَّ اللَّهَ أَتَمَّ لَكُمْ مَا آتَاكُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ وَلا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ يَأْخُذَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ فِي دِينِهِ بِهَوًى وَلا رَأْيٍ وَلا مَقَايِيسَ، قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ وَجَعَلَ فِيهِ تِبْيَانَ كُلِّ شَيْءٍ وَجَعَلَ لِلْقُرْآنِ وَلِتَعَلُّمِ الْقُرْآنِ أَهْلا لا يَسَعُ أَهْلَ عِلْمِ الْقُرْآنِ الَّذِينَ آتَاهُمُ اللَّهُ عِلْمَهُ أَنْ يَأْخُذُوا فِيهِ بِهَوًى وَلا رَأْيٍ وَلا مَقَايِيسَ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ بِمَا آتَاهُمْ

مِنْ عِلْمِهِ وَخَصَّهُمْ بِهِ وَوَضَعَهُ عِنْدَهُمْ كَرَامَةً مِنَ اللهِ أَكْرَمَهُمْ بِهَا، وَهُمْ أَهْلُ الذِّكْرِ الَّذِينَ أَمَرَ اللهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِسُؤَالِهِمْ وَهُمُ الَّذِينَ مَنْ سَأَلَهُمْ وَقَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ أَنْ يُصَدِّقَهُمْ وَيَتَّبِعَ أَثَرَهُمْ أَرْشَدُوهُ وَأَعْطَوْهُ مِنْ عِلْمِ الْقُرْآنِ مَا يَهْتَدِي بِهِ إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَإِلَى جَمِيعِ سُبُلِ الْحَقِّ، وَهُمُ الَّذِينَ لا يَرْغَبُ عَنْهُمْ وَعَنْ مَسْأَلَتِهِمْ وَعَنْ عِلْمِهِمُ الَّذِي أَكْرَمَهُمُ اللهُ بِهِ وَجَعَلَهُ عِنْدَهُمْ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ فِي عِلْمِ اللهِ الشَّقَاءُ فِي أَصْلِ الْخَلْقِ تَحْتَ الْأَظِلَّةِ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَرْغَبُونَ عَنْ سُؤَالِ أَهْلِ الذِّكْرِ وَالَّذِينَ آتَاهُمُ اللهُ عِلْمَ الْقُرْآنِ وَوَضَعَهُ عِنْدَهُمْ وَأَمَرَ بِسُؤَالِهِمْ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ بِأَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ وَمَقَايِيسِهِمْ حَتَّى دَخَلَهُمُ الشَّيْطَانُ لأَنَّهُمْ جَعَلُوا أَهْلَ الإِيمَانِ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ عِنْدَ اللهِ كَافِرِينَ وَجَعَلُوا أَهْلَ الضَّلالَةِ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ عِنْدَ اللهِ مُؤْمِنِينَ، وَحَتَّى جَعَلُوا مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ حَرَاماً وَجَعَلُوا مَا حَرَّمَ اللهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ حَلالاً، فَذَلِكَ أَصْلُ ثَمَرَةِ أَهْوَائِهِمْ وَقَدْ عَهِدَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ فَقَالُوا نَحْنُ بَعْدَ مَا قَبَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ يَسَعُنَا أَنْ نَأْخُذَ بِمَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ رَأْيُ النَّاسِ بَعْدَ مَا قَبَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَبَعْدَ عَهْدِهِ الَّذِي عَهِدَهُ إِلَيْنَا وَأَمَرَنَا بِهِ مُخَالِفاً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَمَا أَحَدٌ أَجْرَأَ عَلَى اللهِ وَلا أَبْيَنَ ضَلالَةً مِمَّنْ أَخَذَ بِذَلِكَ وَزَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ يَسَعُهُ، وَاللهِ إِنَّ لِلَّهِ عَلَى خَلْقِهِ أَنْ يُطِيعُوهُ وَيَتَّبِعُوا أَمْرَهُ فِي حَيَاةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ. هَلْ يَسْتَطِيعُ أُولَئِكَ أَعْدَاءُ اللهِ أَنْ يَزْعُمُوا أَنَّ أَحَداً مِمَّنْ أَسْلَمَ مَعَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَخَذَ بِقَوْلِهِ وَرَأْيِهِ وَمَقَايِيسِهِ فَإِنْ قَالَ نَعَمْ فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً وَإِنْ قَالَ لا لَمْ يَكُنْ لأَحَدٍ أَنْ يَأْخُذَ بِرَأْيِهِ وَهَوَاهُ وَمَقَايِيسِهِ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْحُجَّةِ عَلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ يُطَاعُ وَيُتَّبَعُ أَمْرُهُ بَعْدَ قَبْضِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَدْ قَالَ اللهُ وَقَوْلُهُ الْحَقُّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

وَذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُطَاعُ وَيُتَّبَعُ أَمْرُهُ فِي حَيَاةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَبَعْدَ قَبْضِ اللهِ

مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَكَما لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مَعَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنْ يَأْخُذَ بِهَواهُ وَلا رَأْيِهِ وَلا مَقَايِيسِهِ خلافاً لِأَمْرِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَكَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنْ يَأْخُذَ بِهَواهُ وَلا رَأْيِهِ وَلا مَقَايِيسِهِ. وَقَالَ دَعُوا رَفْعَ أَيْدِيكُمْ فِي الصَّلاةِ إِلا مَرَّةً وَاحِدَةً حِينَ تُفْتَتَحُ الصَّلاةُ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ شَهَرُوكُمْ بِذَلِكَ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ.

وَقَالَ أَكْثِرُوا مِنْ أَنْ تَدْعُوا اللهَ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْعُوهُ، وَقَدْ وَعَدَ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالاسْتِجَابَةِ وَاللهُ مُصَيِّرٌ دُعَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُمْ عَمَلاً يَزِيدُهُمْ بِهِ فِي الْجَنَّةِ فَأَكْثِرُوا ذِكْرَ اللهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ فِي كُلِّ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَإِنَّ اللهَ أَمَرَ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ لَهُ وَاللهُ ذَاكِرٌ لِمَنْ ذَكَرَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَمْ يَذْكُرْهُ أَحَدٌ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ إِلا ذَكَرَهُ بِخَيْرٍ فَأَعْطُوا اللهَ مِنْ أَنْفُسِكُمُ الاجْتِهَادَ فِي طَاعَتِهِ فَإِنَّ اللهَ لا يُدْرَكُ شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ عِنْدَهُ إِلا بِطَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَحَارِمِهِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ فِي ظَاهِرِ الْقُرْآنِ وَبَاطِنِهِ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ فِي كِتَابِهِ وَقَوْلُهُ الْحَقُّ: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾.

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ تَجْتَنِبُوهُ فَقَدْ حَرَّمَهُ وَاتَّبِعُوا آثَارَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسُنَّتَهُ فَخُذُوا بِهَا وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَكُمْ وَآرَاءَكُمْ فَتَضِلُّوا، فَإِنَّ أَضَلَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَرَأْيَهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ وَأَحْسِنُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها وَجَامِلُوا النَّاسَ وَلا تَحْمِلُوهُمْ عَلَى رِقَابِكُمْ تَجْمَعُوا مَعَ ذَلِكَ طَاعَةَ رَبِّكُمْ وَإِيَّاكُمْ وَسَبَّ أَعْدَاءِ اللهِ حَيْثُ يَسْمَعُونَكُمْ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَقَدْ يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَعْلَمُوا حَدَّ سَبِّهِمْ لِلهِ كَيْفَ هُوَ، إِنَّهُ مَنْ سَبَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ فَقَدِ انْتَهَكَ سَبَّ اللهِ وَمَنْ أَظْلَمُ عِنْدَ اللهِ مِمَّنِ اسْتَسَبَّ لِلهِ وَلأَوْلِيَاءِ اللهِ فَمَهْلاً مَهْلاً فَاتَّبِعُوا أَمْرَ اللهِ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ. وَقَالَ أَيَّتُهَا الْعِصَابَةُ الْحَافِظُ اللهُ لَهُمْ أَمْرَهُمْ عَلَيْكُمْ بِآثَارِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسُنَّتِهِ وَآثَارِ الأَئِمَّةِ الْهُدَاةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَسُنَّتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ

أَخَذَ بِذَلِكَ فَقَدِ اهْتَدَى وَمَنْ تَرَكَ ذَلِكَ وَرَغِبَ عَنْهُ ضَلَّ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَتِهِمْ وَوَلَايَتِهِمْ وَقَدْ قَالَ أَبُونَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْمُدَاوَمَةُ عَلَى الْعَمَلِ فِي اتِّبَاعِ الْآثَارِ وَالسُّنَنِ وَإِنْ قَلَّ أَرْضَى لِلَّهِ وَأَنْفَعُ عِنْدَهُ فِي الْعَاقِبَةِ مِنَ الِاجْتِهَادِ فِي الْبِدَعِ وَاتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ. أَلَا إِنَّ اتِّبَاعَ الْأَهْوَاءِ وَاتِّبَاعَ الْبِدَعِ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ضَلَالٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ فِي النَّارِ وَلَنْ يُنَالَ شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ وَالصَّبْرِ وَالرِّضَا لِأَنَّ الصَّبْرَ وَالرِّضَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنِ اللَّهِ فِيمَا صَنَعَ اللَّهُ إِلَيْهِ وَصَنَعَ بِهِ عَلَى مَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، وَلَنْ يَصْنَعَ اللَّهُ بِمَنْ صَبَرَ وَرَضِيَ عَنِ اللَّهِ إِلَّا مَا هُوَ أَهْلُهُ وَهُوَ خَيْرٌ لَهُ مِمَّا أَحَبَّ وَكَرِهَ. وَعَلَيْكُمْ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي كِتَابِهِ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ. وَعَلَيْكُمْ بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ مَنْ حَقَّرَهُمْ وَتَكَبَّرَ عَلَيْهِمْ فَقَدْ زَلَّ عَنْ دِينِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَهُ حَاقِرٌ مَاقِتٌ، وَقَدْ قَالَ أَبُونَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَمَرَنِي رَبِّي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ مَنْ حَقَّرَ أَحَداً مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ الْمَقْتَ مِنْهُ وَالْمَحْقَرَةَ حَتَّى يَمْقُتَهُ النَّاسُ وَاللَّهُ لَهُ أَشَدُّ مَقْتاً، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي إِخْوَانِكُمُ الْمُسْلِمِينَ الْمَسَاكِينِ فَإِنَّ لَهُمْ عَلَيْكُمْ حَقّاً أَنْ تُحِبُّوهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِحُبِّهِمْ فَمَنْ لَمْ يُحِبَّ مَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِحُبِّهِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ مَاتَ وَهُوَ مِنَ الْغَاوِينَ.

وَإِيَّاكُمْ وَالْعَظَمَةَ وَالْكِبْرَ فَإِنَّ الْكِبْرَ رِدَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَمَنْ نَازَعَ اللَّهَ رِدَاءَهُ خَصَمَهُ اللَّهُ وَأَذَلَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ يَبْغِيَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ خِصَالِ الصَّالِحِينَ فَإِنَّهُ مَنْ بَغَى صَيَّرَ اللَّهُ بَغْيَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَصَارَتْ نُصْرَةُ اللَّهِ لِمَنْ بُغِيَ عَلَيْهِ وَمَنْ نَصَرَهُ اللَّهُ غَلَبَ وَأَصَابَ الظَّفَرَ مِنَ اللَّهِ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ يَحْسُدَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَإِنَّ الْكُفْرَ أَصْلُهُ الْحَسَدُ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُعِينُوا عَلَى مُسْلِمٍ مَظْلُومٍ فَيَدْعُوَ اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَيُسْتَجَابَ لَهُ فِيكُمْ فَإِنَّ أَبَانَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ يَقُولُ إِنَّ دَعْوَةَ الْمُسْلِمِ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ. وَلْيُعِنْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَإِنَّ أَبَانَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ يَقُولُ إِنَّ مَعُونَةَ الْمُسْلِمِ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْراً مِنْ صِيَامِ

شَهْرٍ وَاعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِيَّاكُمْ وَإِعْسَارَ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِكُمُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ تُعْسِرُوهُ بِالشَّيْءِ يَكُونُ لَكُمْ قِبَلَهُ وَهُوَ مُعْسِرٌ فَإِنَّ أَبَانَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ يَقُولُ لَيْسَ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُعْسِرَ مُسْلِماً وَمَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَظَلَّهُ اللهُ بِظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ. وَإِيَّاكُمْ أَيَّتُهَا الْعِصَابَةُ الْمَرْحُومَةُ الْمُفَضَّلَةُ عَلَى مَنْ سِوَاهَا وَحَبْسَ حُقُوقِ اللهِ قِبَلَكُمْ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ وَسَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ فَإِنَّهُ مَنْ عَجَّلَ حُقُوقَ اللهِ قِبَلَهُ كَانَ اللهُ أَقْدَرَ عَلَى التَّعْجِيلِ لَهُ إِلَى مُضَاعَفَةِ الْخَيْرِ فِي الْعَاجِلِ وَالآجِلِ، وَإِنَّهُ مَنْ أَخَّرَ حُقُوقَ اللهِ قِبَلَهُ كَانَ اللهُ أَقْدَرَ عَلَى تَأْخِيرِ رِزْقِهِ وَمَنْ حَبَسَ اللهُ رِزْقَهُ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَرْزُقَ نَفْسَهُ فَأَدُّوا إِلَى اللهِ حَقَّ مَا رَزَقَكُمْ يُطَيِّبِ اللهُ لَكُمْ بَقِيَّتَهُ وَيُنْجِزْ لَكُمْ مَا وَعَدَكُمْ مِنْ مُضَاعَفَتِهِ لَكُمُ الأَضْعَافَ الْكَثِيرَةَ الَّتِي لا يَعْلَمُ عَدَدَهَا وَلا كُنْهَ فَضْلِهَا إِلا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

وَقَالَ اتَّقُوا اللهَ أَيَّتُهَا الْعِصَابَةُ وَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا يَكُونَ مِنْكُمْ مُحْرِجُ الإِمَامِ فَإِنَّ مُحْرِجَ الإِمَامِ هُوَ الَّذِي يَسْعَى بِأَهْلِ الصَّلاحِ مِنْ أَتْبَاعِ الإِمَامِ الْمُسَلِّمِينَ لِفَضْلِهِ الصَّابِرِينَ عَلَى أَدَاءِ حَقِّهِ الْعَارِفِينَ لِحُرْمَتِهِ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ نَزَلَ بِذَلِكَ الْمَنْزِلِ عِنْدَ الإِمَامِ فَهُوَ مُحْرِجُ الإِمَامِ فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ عِنْدَ الإِمَامِ أَحْرَجَ الإِمَامَ إِلَى أَنْ يَلْعَنَ أَهْلَ الصَّلاحِ مِنْ أَتْبَاعِهِ الْمُسَلِّمِينَ لِفَضْلِهِ الصَّابِرِينَ عَلَى أَدَاءِ حَقِّهِ الْعَارِفِينَ بِحُرْمَتِهِ، فَإِذَا لَعَنَهُمْ لإِحْرَاجِ أَعْدَاءِ اللهِ الإِمَامَ صَارَتْ لَعْنَتُهُ رَحْمَةً مِنَ اللهِ عَلَيْهِمْ وَصَارَتِ اللَّعْنَةُ مِنَ اللهِ وَمِنَ الْمَلائِكَةِ وَرُسُلِهِ عَلَى أُولَئِكَ. وَاعْلَمُوا أَيَّتُهَا الْعِصَابَةُ أَنَّ السُّنَّةَ مِنَ اللهِ قَدْ جَرَتْ فِي الصَّالِحِينَ قَبْلُ، وَقَالَ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ حَقّاً حَقّاً فَلْيَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَبْرَأْ إِلَى اللهِ مِنْ عَدُوِّهِمْ وَيُسَلِّمْ لِمَا انْتَهَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِهِمْ لأَنَّ فَضْلَهُمْ لا يَبْلُغُهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلا مَنْ دُونَ ذَلِكَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا ذَكَرَ اللهُ مِنْ فَضْلِ أَتْبَاعِ الأَئِمَّةِ الْهُدَاةِ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، قَالَ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾. فَهَذَا وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ فَضْلِ أَتْبَاعِ الأَئِمَّةِ فَكَيْفَ بِهِمْ وَفَضْلِهِمْ وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يُتِمَّ اللهُ لَهُ إِيمَانَهُ حَتَّى يَكُونَ مُؤْمِناً حَقّاً حَقّاً فَلْيَفِ لِلَّهِ بِشُرُوطِهِ الَّتِي اشْتَرَطَهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

فَإِنَّهُ قَدِ اشْتَرَطَ مَعَ وَلايَتِهِ وَوَلايَةِ رَسُولِهِ وَوَلايَةِ أَئِمَّةِ الْمُؤْمِنِينَ إِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَإِقْرَاضَ اللهِ قَرْضاً حَسَناً وَاجْتِنَابَ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ فَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِمَّا فُسِّرَ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ إِلا وَقَدْ دَخَلَ فِي جُمْلَةِ قَوْلِهِ فَمَنْ دَانَ اللهَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ مُخْلِصاً لِلَّهِ وَلَمْ يُرَخِّصْ لِنَفْسِهِ فِي تَرْكِ شَيْءٍ مِنْ هَذَا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ فِي حِزْبِهِ الْغَالِبِينَ وَهُوَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَقّاً. وَإِيَّاكُمْ وَالإِصْرَارَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ فِي ظَهْرِ الْقُرْآنِ وَبَطْنِهِ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. إِلَى هَاهُنَا رِوَايَةُ الْقَاسِمِ بْنِ رَبِيعٍ يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ إِذَا نَسُوا شَيْئاً مِمَّا اشْتَرَطَ اللهُ فِي كِتَابِهِ عَرَفُوا أَنَّهُمْ قَدْ عَصَوُا اللهَ فِي تَرْكِهِمْ ذَلِكَ الشَّيْءَ فَاسْتَغْفَرُوا وَلَمْ يَعُودُوا إِلَى تَرْكِهِ، فَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِ اللهِ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا أَمَرَ وَنَهَى لِيُطَاعَ فِيمَا أَمَرَ بِهِ وَلِيُنْتَهَى عَمَّا نَهَى عَنْهُ فَمَنِ اتَّبَعَ أَمْرَهُ فَقَدْ أَطَاعَهُ وَقَدْ أَدْرَكَ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ عِنْدَهُ، وَمَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَمَّا نَهَى اللهُ عَنْهُ فَقَدْ عَصَاهُ فَإِنْ مَاتَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ أَكَبَّهُ اللهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلا مَنْ دُونَ ذَلِكَ مِنْ خَلْقِهِ كُلِّهِمْ إِلا طَاعَتُهُمْ لَهُ فَاجْتَهِدُوا فِي طَاعَةِ اللهِ إِنْ سَرَّكُمْ أَنْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ حَقّاً حَقّاً وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ. وَقَالَ وَعَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ رَبِّكُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّ اللهَ رَبُّكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ الإِسْلامَ هُوَ التَّسْلِيمُ وَالتَّسْلِيمَ هُوَ الإِسْلامُ فَمَنْ سَلَّمَ فَقَدْ أَسْلَمَ وَمَنْ لَمْ يُسَلِّمْ فَلا إِسْلامَ لَهُ وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْلِغَ إِلَى نَفْسِهِ فِي الإِحْسَانِ فَلْيُطِعِ اللهَ فَإِنَّهُ مَنْ أَطَاعَ اللهَ فَقَدْ أَبْلَغَ إِلَى نَفْسِهِ فِي الإِحْسَانِ، وَإِيَّاكُمْ وَمَعَاصِيَ اللهِ أَنْ تَرْكَبُوهَا فَإِنَّهُ مَنِ انْتَهَكَ مَعَاصِيَ اللهِ فَرَكِبَهَا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الإِسَاءَةِ إِلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بَيْنَ الإِحْسَانِ وَالإِسَاءَةِ مَنْزِلَةٌ فَلأَهْلِ الإِحْسَانِ عِنْدَ رَبِّهِمُ الْجَنَّةُ وَلأَهْلِ الإِسَاءَةِ عِنْدَ رَبِّهِمُ النَّارُ فَاعْمَلُوا بِطَاعَةِ اللهِ وَاجْتَنِبُوا مَعَاصِيَهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ يُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ شَيْئاً لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلا مَنْ دُونَ ذَلِكَ فَمَنْ سَرَّهُ أَنْ تَنْفَعَهُ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ عِنْدَ اللهِ فَلْيَطْلُبْ إِلَى اللهِ أَنْ يَرْضَى عَنْهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَداً مِنْ خَلْقِ اللهِ لَمْ يُصِبْ رِضَا اللهِ إِلا بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ وَطَاعَةِ وُلاةِ أَمْرِهِ مِنْ آلِ

مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَمَعْصِيَتُهُمْ مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ وَلَمْ يُنْكِرْ لَهُمْ فَضْلًا عَظُمَ أَوْ صَغُرَ. وَاعْلَمُوا أَنَّ الْمُنْكِرِينَ هُمُ الْمُكَذِّبُونَ وَأَنَّ الْمُكَذِّبِينَ هُمُ الْمُنَافِقُونَ وَأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِلْمُنَافِقِينَ وَقَوْلُهُ الْحَقُّ إِنَّ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾. وَلا يَفْرَقَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَلْزَمَ اللهُ قَلْبَهُ طَاعَتَهُ وَخَشْيَتَهُ مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مِمَّنْ أَخْرَجَهُ اللهُ مِنْ صِفَةِ الْحَقِّ وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِنْ أَهْلِهَا فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ مِنْ أَهْلِ صِفَةِ الْحَقِّ فَأُولَئِكَ هُمْ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَإِنَّ لِشَيَاطِينِ الْإِنْسِ حِيلَةً وَمَكْرًا وَخَدَائِعَ وَوَسْوَسَةً بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ يُرِيدُونَ إِنِ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَرُدُّوا أَهْلَ الْحَقِّ عَمَّا أَكْرَمَهُمُ اللهُ بِهِ مِنَ النَّظَرِ فِي دِينِ اللهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلِ اللهُ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ مِنْ أَهْلِهِ إِرَادَةَ أَنْ يَسْتَوِيَ أَعْدَاءُ اللهِ وَأَهْلُ الْحَقِّ فِي الشَّكِّ وَالْإِنْكَارِ وَالتَّكْذِيبِ، فَيَكُونُونَ سَوَاءً كَمَا وَصَفَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾، ثُمَّ نَهَى اللهُ أَهْلَ النَّصْرِ بِالْحَقِّ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا، فَلا يُهَوِّلَنَّكُمْ وَلا يَرُدَّنَّكُمْ عَنِ النَّصْرِ بِالْحَقِّ الَّذِي خَصَّكُمُ اللهُ بِهِ مِنْ حِيلَةِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَمَكْرِهِمْ مِنْ أُمُورِكُمْ تَدْفَعُونَ أَنْتُمُ السَّيِّئَةَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ تَلْتَمِسُونَ بِذَلِكَ وَجْهَ رَبِّكُمْ بِطَاعَتِهِ، وَهُمْ لا خَيْرَ عِنْدَهُمْ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تُظْهِرُوهُمْ عَلَى أُصُولِ دِينِ اللهِ فَإِنَّهُمْ إِنْ سَمِعُوا مِنْكُمْ فِيهِ شَيْئًا عَادَوْكُمْ عَلَيْهِ وَرَفَعُوهُ عَلَيْكُمْ وَجَهِدُوا عَلَى هَلاكِكُمْ وَاسْتَقْبَلُوكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمُ النَّصَفَةُ مِنْهُمْ فِي دُوَلِ الْفُجَّارِ فَاعْرِفُوا مَنْزِلَتَكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْبَاطِلِ فَإِنَّهُ لا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْحَقِّ أَنْ يُنْزِلُوا أَنْفُسَهُمْ مَنْزِلَةَ أَهْلِ الْبَاطِلِ لِأَنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ أَهْلَ الْحَقِّ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ أَهْلِ الْبَاطِلِ، أَلَمْ يَعْرِفُوا وَجْهَ قَوْلِ اللهِ فِي كِتَابِهِ إِذْ يَقُولُ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.

أَكْرِمُوا أَنْفُسَكُمْ عَنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَلا تَجْعَلُوا اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَإِمَامَكُمْ وَدِينَكُمُ الَّذِي تَدِينُونَ بِهِ عُرْضَةً لِأَهْلِ الْبَاطِلِ فَتُغْضِبُوا اللهَ عَلَيْكُمْ فَتَهْلِكُوا، فَمَهْلًا مَهْلًا يَا أَهْلَ الصَّلاحِ لا تَتْرُكُوا أَمْرَ اللهِ وَأَمْرَ مَنْ أَمَرَكُمْ بِطَاعَتِهِ فَيُغَيِّرَ اللهُ مَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ.

أَحِبُّوا فِي اللهِ مَنْ وَصَفَ صِفَتَكُمْ وَأَبْغِضُوا فِي اللهِ مَنْ خَالَفَكُمْ وَابْذُلُوا مَوَدَّتَكُمْ وَنَصِيحَتَكُمْ -لِمَنْ وَصَفَ صِفَتَكُمْ- وَلا تَبْتَذِلُوهَا لِمَنْ رَغِبَ عَنْ صِفَتِكُمْ وَعَادَاكُمْ عَلَيْهَا وَبَغَى لَكُمُ الْغَوَائِلَ، هَذَا أَدَبُنَا أَدَبُ اللهِ خُذُوا بِهِ وَتَفَهَّمُوهُ وَاعْقِلُوهُ وَلا تَنْبِذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ مَا وَافَقَ هُدَاكُمْ أَخَذْتُمْ بِهِ وَمَا وَافَقَ هَوَاكُمْ طَرَحْتُمُوهُ وَلَمْ تَأْخُذُوا بِهِ. وَإِيَّاكُمْ وَالتَّجَبُّرَ عَلَى اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ عَبْداً لَمْ يُبْتَلَ بِالتَّجَبُّرِ عَلَى اللهِ إِلا تَجَبَّرَ عَلَى دِينِ اللهِ فَاسْتَقِيمُوا للهِ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ أَجَارَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ التَّجَبُّرِ عَلَى اللهِ وَلا قُوَّةَ لَنَا وَلَكُمْ إِلا بِاللهِ. وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ خَلَقَهُ اللهُ فِي الأَصْلِ أَصْلِ الْخَلْقِ مُؤْمِناً لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُكَرِّهَ اللهُ إِلَيْهِ الشَّرَّ وَيُبَاعِدَهُ عَنْهُ وَمَنْ كَرَّهَ اللهُ إِلَيْهِ الشَّرَّ وَبَاعَدَهُ عَنْهُ عَافَاهُ اللهُ مِنَ الْكِبْرِ أَنْ يَدْخُلَهُ وَالْجَبْرِيَّةِ فَلانَتْ عَرِيكَتُهُ وَحَسُنَ خُلُقُهُ وَطَلُقَ وَجْهُهُ وَصَارَ عَلَيْهِ وَقَارُ الإِسْلامِ وَسَكِينَتُهُ وَتَخَشُّعُهُ وَوَرِعَ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ وَاجْتَنَبَ مَسَاخِطَهُ وَرَزَقَهُ اللهُ مَوَدَّةَ النَّاسِ وَمُجَامَلَتَهُمْ وَتَرْكَ مُقَاطَعَةِ النَّاسِ وَالْخُصُومَاتِ وَلَمْ يَكُنْ مِنْهَا وَلا مِنْ أَهْلِهَا فِي شَيْءٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ اللهُ خَلَقَهُ فِي الأَصْلِ -أَصْلِ الْخَلْقِ- كَافِراً لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُحَبِّبَ إِلَيْهِ الشَّرَّ وَيُقَرِّبَهُ مِنْهُ فَإِذَا حَبَّبَ إِلَيْهِ الشَّرَّ وَقَرَّبَهُ مِنْهُ ابْتُلِيَ بِالْكِبْرِ وَالْجَبْرِيَّةِ فَقَسَا قَلْبُهُ وَسَاءَ خُلُقُهُ وَغَلُظَ وَجْهُهُ وَظَهَرَ فُحْشُهُ وَقَلَّ حَيَاؤُهُ وَكَشَفَ اللهُ سِتْرَهُ وَرَكِبَ الْمَحَارِمَ فَلَمْ يَنْزِعْ عَنْهَا وَرَكِبَ مَعَاصِيَ اللهِ وَأَبْغَضَ طَاعَتَهُ وَأَهْلَهَا فَبُعْدٌ مَا بَيْنَ حَالِ الْمُؤْمِنِ وَحَالِ الْكَافِرِ. سَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ وَاطْلُبُوهَا إِلَيْهِ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ، صَبِّرُوا النَّفْسَ عَلَى الْبَلاءِ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ تَتَابُعَ الْبَلاءِ فِيهَا وَالشِّدَّةَ فِي طَاعَةِ اللهِ وَوَلايَتِهِ وَوَلايَةِ مَنْ أَمَرَ بِوَلايَتِهِ خَيْرٌ عَاقِبَةً عِنْدَ اللهِ فِي الآخِرَةِ مِنْ مُلْكِ الدُّنْيَا وَإِنْ طَالَ تَتَابُعُ نَعِيمِهَا وَزَهْرَتِهَا وَغَضَارَةُ عَيْشِهَا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَوَلايَةِ مَنْ نَهَى اللهُ عَنْ وَلايَتِهِ وَطَاعَتِهِ فَإِنَّ اللهَ أَمَرَ بِوَلايَةِ الأَئِمَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللهُ فِي كِتَابِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾. وَهُمُ الَّذِينَ أَمَرَ اللهُ بِوَلايَتِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ وَالَّذِينَ نَهَى اللهُ عَنْ وَلايَتِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ وَهُمْ أَئِمَّةُ الضَّلالَةِ الَّذِينَ قَضَى اللهُ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ دُوَلٌ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَوْلِيَاءِ اللهِ الأَئِمَّةِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، يَعْمَلُونَ فِي دُولَتِهِمْ بِمَعْصِيَةِ

اللَّه وَمَعْصِيَةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِيَحِقَّ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ وَلِيَتِمَّ أَنْ تَكُونُوا مَعَ نَبِيِّ اللَّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ فَتَدَبَّرُوا مَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِهِ مِمَّا ابْتَلَى بِهِ أَنْبِيَاءَهُ وَأَتْبَاعَهُمُ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ أَنْ يُعْطِيَكُمُ الصَّبْرَ عَلَى الْبَلاءِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ مِثْلَ الَّذِي أَعْطَاهُمْ وَإِيَّاكُمْ وَمُمَاظَّةَ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَعَلَيْكُمْ بِهُدَى الصَّالِحِينَ وَوَقَارِهِمْ وَسَكِينَتِهِمْ وَحِلْمِهِمْ وَتَخَشُّعِهِمْ وَوَرَعِهِمْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ وَصِدْقِهِمْ وَوَفَائِهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ لِلَّهِ فِي الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ فَإِنَّكُمْ إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ذَلِكَ لَمْ تُنْزَلُوا عِنْدَ رَبِّكُمْ مَنْزِلَةَ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْراً شَرَحَ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَإِذَا أَعْطَاهُ ذَلِكَ أَنْطَقَ لِسَانَهُ بِالْحَقِّ وَعَقَدَ قَلْبَهُ عَلَيْهِ فَعَمِلَ بِهِ فَإِذَا جَمَعَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ تَمَّ لَهُ إِسْلامُهُ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ الْحَالِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَقّاً، وَإِذَا لَمْ يُرِدِ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْراً وَكَلَهُ إِلَى نَفْسِهِ وَكَانَ صَدْرُهُ ضَيِّقاً حَرَجاً فَإِنْ جَرَى عَلَى لِسَانِهِ حَقٌّ لَمْ يُعْقَدْ قَلْبُهُ عَلَيْهِ وَإِذَا لَمْ يُعْقَدْ قَلْبُهُ عَلَيْهِ لَمْ يُعْطِهِ اللَّهُ الْعَمَلَ بِهِ فَإِذَا اجْتَمَعَ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى يَمُوتَ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَصَارَ مَا جَرَى عَلَى لِسَانِهِ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي لَمْ يُعْطِهِ اللَّهُ أَنْ يُعْقَدَ قَلْبُهُ عَلَيْهِ وَلَمْ يُعْطِهِ الْعَمَلَ بِهِ حُجَّةً عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَسَلُوهُ أَنْ يَشْرَحَ صُدُورَكُمْ لِلإِسْلامِ وَأَنْ يَجْعَلَ أَلْسِنَتَكُمْ تَنْطِقُ بِالْحَقِّ حَتَّى يَتَوَفَّيَكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَنْ يَجْعَلَ مُنْقَلَبَكُمْ مُنْقَلَبَ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ فَلْيَعْمَلْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَلْيَتَّبِعْنَا أَلَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾. وَاللَّهِ لا يُطِيعُ اللَّهَ عَبْدٌ أَبَداً إِلا أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي طَاعَتِهِ اتِّبَاعَنَا, وَلا وَاللَّهِ لا يَتَّبِعُنَا عَبْدٌ أَبَداً إِلا أَحَبَّهُ اللَّهُ, وَلا وَاللَّهِ لا يَدَعُ أَحَدٌ اتِّبَاعَنَا أَبَداً إِلا أَبْغَضَنَا, وَلا وَاللَّهِ لا يُبْغِضُنَا أَحَدٌ أَبَداً إِلا عَصَى اللَّهَ, وَمَنْ مَاتَ عَاصِياً لِلَّهِ أَخْزَاهُ اللَّهُ وَأَكَبَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

نبذة عن الرّسالة

وردت في الكافي وبحار الأنوار والوافي رسالة مفصّلة كتبها الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أصحابه، وقد كتب العلامة المجلسي رحمه الله[1] في كتابه مرآة العقول شرحاً مختصراً عليها، كما أنّ لأخي زوجة العلامة المجلسي رحمه الله شرحاً مفصّلاً على الرّسالة لكنّي لم أعثر عليه، ومن الجدير بالإخوة أن يعتنوا بهذه الرّسالة القيمة.

الطريق إلى الرّسالة

نقل الشّيخ الكُليني رحمه الله[2] الرّسالة بثلاثة أسانيد، وعدّها العلامة المجلسي رحمه الله من الرّوايات المعتبرة السّند، وقد ورد فيها: عن أبي عبدالله عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه كتب هذه الرّسالة إلى أصحابه وأمرهم بمدارستها، والنّظر فيها، وتعاهدها، والعمل بها،

(١) محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (١٠٣٧ـ١١١٠هـ) محدّث وفقيه كبير من فقهاء الإمامية. تتلمذ على أعاظم الأساتذة والمشايخ، مثل الشّيخ عبد اللّه بن جابر الآملي والشّيخ علي جبل عاملي والملّا محسن الفيض الكاشاني، وبعد تلقّيه العلوم العقلية اهتمّ بعلم الرواية والحديث وألّف وحقق العديد من الكتب في هذا المجال، ومن جملتها موسوعته العظيمة المسماة بحار الأنوار، كان يلقى مزيداً من الاحترام في عهد الملوك الصفويين، وتسنّى له التصدّي لمقام المرجعية الدّينيّة العليا في عهد الشاه عباس الثّاني والسلطان حسين.

(٢) أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، الملقّب بثقة الإسلام، ألّف الكافي الذي هو من أجلّ الكتب الإسلامية وقد صنفه في عشرين سنة، توفي ببغداد سنة ٣٢٩، سنة تناثر النجوم، وصلّى عليه محمّد بن جعفر الحسني أبو قيراط، ودفن بباب الكوفة. الكنى والألقاب: ج٢، ص٥٩٣ـ٥٩٤.

فكانوا يضعونها في مساجد بيوتهم، فإذا فرغوا من الصّلاة نظروا فيها[١].

أهمية الرّسالة

يتّضح من النصّ أعلاه أنّ الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ - وقبل الخوض في تفاصيل الرّسالة - أمر الشّيعة بأوامر أربعة وهي: المدارسة.. والنّظر.. والتّعاهد.. والعمل، ومن حسن الحظّ أنّ الفقهاء حملوا هذه الأوامر على الاستحباب وإلّا لكانت مسؤوليّة الشّيعة عظيمة.

أمّا الأوامر فهي:

١- المدارسة: وهي أن يقرأ طرفان أو أكثر كلٌّ على صاحبه، إذ لم تكن آنذاك الأقلام والورق متوفّرة كما هي عليه اليوم.

٢- النّظر فيها: والمراد منه بمناسبة الحكم والموضوع هو التأمّل فيها وليس مجرد النّظر السّطحي.

٣- تعاهدها: التعاهد هو تكرار المراجعة.

٤- العمل بها: أي: العمل بمضامينها.

اهتمام الشّيعة بالرّسالة

ولأجل أمر الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ الشّيعة أن يعتنوا بالرّسالة كانوا يضعونها في مساجد بيوتهم فإذا فرغوا من الصّلاة نظروا فيها، فمن المستحبات التي كانت معهودة في العصور السالفة أن يتّخذ الإنسان مصلّى في بيته، ولأنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أمر بذلك كان الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يتّخذون في بيوتهم مصلّى لهم، ففي الخبر أنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لما ضربه ابن ملجم نُقل إلى مصلّاه في بيته وكانت

(١) راجع الكافي، ج٨، ص٢.

لفاطمة عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ مصلّى في بيتها وكذلك للأئمّة عَلَيْهِمٱلسَّلَامُ[١].

ويظهر من الرواية أنّ الشّيعة كانوا يحتفظون بالرّسالة في مواضع الصّلاة في بيوتهم، وكانوا كلّما فرغوا من الصّلاة، انكبّوا على قراءتها بإمعان.

ومن جرّاء العمل بأمثال هذه الوصايا تربّى رجال أفذاذ أمثال زُرارة[٢]، وابن أبي عُمير[٣]، ومحمّد بن مسلم[٤] وآخرين.

تدبّرات في الرّسالة

قال عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: **بسم الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد فاسألوا الله ربكم العافية...**

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٢، ص٢٨٨ وج٤٣ ص٢٩ وج٤٦ ص٢٠٠ وج٤٨ ص٨١، وغيرها.

(٢) زُرارة بن أعين واسمه عبد ربّه، ويكنّى أبا الحسن وزُرارة لقب له، وكان أعين بن سنسن عبداً رومياً لرجل من بني شيبان تعلّم القُرآن ثم أعتقه، فعرض عليه أن يدخل في نسبه فأبى أعين أن يفعله، وقال له: أقرني على ولائي،وكان زُرارة قارئاً فقيهاً متكلماً شاعراً أديباً، قد اجتمعت فيه خصال الفضل والدّين.

(٣) محمد بن زياد بن عيسى أبو أحمد الأزدي، كان أوثق النّاس عند الخاصَّة والعامة وأنسكهم نسكاً وأورعهم وأعبدهم، وأدرك أبا الحسن موسى والإمامين بعده عَلَيْهِمٱلسَّلَامُ، وكان من أصحاب الإجماع جليل القدر عظيم الشأن وأصحابنا يسكنون إلى مراسيله لأنّه لا يرسل إلّا عن ثقة. قيل في حقه : إنّه أفقه من يونس وأفضل وأصلح.
روي عن الفضل بن شاذان قال: دخلت العراق فرأيت أحداً يعاتب صاحبه ويقول له: أنت رجل عليك عيال وتحتاج أن تكسب عليهم وما آمن أن تذهب عيناك لطول سجودك، فلما أكثر عليه قال: أكثرت علي ويحك لو ذهبت عين أحد من السّجود لذهبت عين ابن أبي عُمير، ما ظنك برجل سجد سجدة الشكر بعد صلاة الفجر فما يرفع رأسه إلّا عند زوال الشّمس؟ وقال الفضل : أخذ يوماً شيخي بيدي وذهب بي إلى ابن أبي عُمير فصعدنا إليه في غرفة وحوله مشايخ يعظمونه ويبجلونه، فقلت لأبي: من هذا؟ قال: هذا ابن أبي عُمير، قلت: الرّجل الصالح العابد؟ قال: نعم. توفي سنة ٢١٧. الكنى والألقاب ج١ ص٢٤٦.

(٤) محمد بن مسلم بن عبد اللّه بن شهاب الزهري (٥٨ـ١٢٤هـ) من أعيان الفقهاء والمحدثين والتابعين. روى عنه جملة من المحدثين، مثل مالك بن أنس وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة. وقد روى عدداً كبيراً من الرّوايات عن الإمام السجّاد عَلَيْهِٱلسَّلَامُ. اعتبره بعض علماء الرّجال من أصحاب الإمام الصّادق عَلَيْهِٱلسَّلَامُ امتدحه علماء العامّة إلى حد كبير، وعدّه جلال الدّين السيوطي أوّل من دوّن الرّوايات والأحاديث. راجع: ريحانة الأدب: ج٢ ص٣٩٨ـ٣٩٩.

حقّاً إنّ كلّ كلمة من كلمات الرّسالة جديرة بالنّظر والتأمّل والتدبّر والتوضيح، لكي ترسخ مضامينها في قلب المؤمن ووجدانه، وليُقبل بكلّ وجوده على العمل بها.

فمن طبيعة الإنسان عموماً أنّه ينشدّ إلى ما يأنس به كاللّباس والأرض والطعام والصّديق... فتترسّخ هذه الأمور في ذهنه وقلبه أكثر من غيرها.

أمّا الأشياء التي لا يأنس بها ولا ينشدّ إليها فسرعان ما ينساها ولا يتذكّرها إلّا بصعوبة، فهو ـ مثلاً ـ يتذكّر جيّداً أصدقاءه المقرّبين منه، على خلاف الأصدقاء العاديّين أو البعيدين عنه ممّن لا تربطهم به علاقة جيّدة فإنّه سرعان ما ينساهم.

اللُّجوء إلى الله

أوّل مسألة دعا إليها الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في الرّسالة هي أن يتّجه الإنسان نحو الله تعالى أينما كان ويرغب إليه سبحانه في كلّ الظروف، فمثلاً: من كان مديناً أو معوزاً، عليه اللجوء إلى الله تعالى ويطلب العون منه، وإذا أراد الإنسان أن يقترضَ مالاً يقصد الله عزّ وجلّ ويتوسل إليه أن يرشده لما فيه الخيرُ والصّلاح.

ومن كان مريضاً عليه أن يدعو الله عزّ وجلّ الشافي ثم يراجع الطبيب، وليعلم أنّ الله الحكيم شاء شفاء المرض عن طريق الأسباب الطبيعية، كمراجعة الطبيب[1]، وليس له أن يهمل مرضه ويكتفي بالدّعاء، فإنّ الدّعاء لا يعني ترك السبل الطبيعية المؤدّية لقضاء الحوائج، وإنّما المراد ضرورة الاعتقاد بأنّ جميع الأمور تبدأ من إرادة الله سبحانه، ومفتاحها الدّعاء: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[2].

فمن كان له مريض لا ينبغي له أن يدعه ويصلّي صلاة جعفر الطيّار عَلَيْهِ السَّلَامُ مثلاً

(١) رُوِيَ أنَّ نبيّ اللَّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مرضَ فوصف له بنو إسرائيل دواء، فقال: لا أتداوى حتى يعافيني اللَّه من غير دواء فطالت عليه، فأوحي إليه فتداوى، فلما برئ أوحى اللَّه إليه: أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك علي، فمن أودع العقاقير منافع الأشياء غيري؟! راجع جامع السّعادات ج٣، ص١٨٣.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٧٧.

بل يبدأ من الله، فقبل أن يأخذ مريضه إلى الطبيب يلجأ إلى الله عزّ وجلّ ويؤمن أنّ الشفاء من عنده تعالى.

وكذا من أراد أن يدرس، أو يُدرّس، أو يعظ، أو يخطب، عليه أن يدعو الله أوّلاً ويطلب المساعدة منه، فقد ورد في الدّعاء: «اللهم إني أعوذ بك أن أضلّ أو أُضَلّ، وإزِلَّ أو أُزَلَّ، وأَظلِم أو أُظلَم، وأجهل أو يُجهل عليَّ، عزّ جارك، وتقدّستْ أسماؤك، جلّ ثناؤك، ولا إله غيرُك..»[1].

ومن الجدير بطالب العلم أن يقرأ هذا الدّعاء قبل الشّروع بالدّرس والمطالعة لئلّا يصاب بسوء الفهم.

طلب العافية

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**واسألوا ربّكم العافية**».

من جزئيّات العافية في الرّوايات الشّريفة هي الصحّة والسّلامة، وإلّا فالمراد بها البعد عن كل ما هو سيّىء، ففي وصيّة السّيدة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: وعفِّ موضع قبري[2]، أي أخفه.

فقد يتصوّر الإنسان ـ خطأً ـ أنّ تحقّق أمر من الأمور يصبّ في صلاحه، غافلاً عمّا فيه من الخطر العظيم عليه، وهذا ما لا يعلمه إلّا الله تعالى، وهو وحده القادر على دفع ذلك الخطر وإزالة الضرر المحدق به.

خصال لا بدّ منها

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: **وعليكم بالدَّعة والوَقار والسّكينة...**

عليكم: الزموا.

---

(١) مصباح المتهجد، ص١١٥.
(٢) راجع بشارة المصطفى، ص٣٩٦.

الدَّعـة: قيل: إنّها الخفـض والطّمأنينة، ولكن لها معنى أشـمل وهـو الابتعاد عمّا يُعلم أو يحتمـل منه الضرر، كأن يجتنـب الفقير كثرة الأكل مع شـدّة احتياجه للطعام، أو يترك الإنسان الردّ على من يشتمه تحلّماً، فالدَّعة هنا تقتضي عدم الإفراط في الأكل والردّ على المسيء لضررهما.

كان السّـيد الوالد رحمه الله[1] يقول: إذا أردت التكلّم أو القيام بعمل ما تأمّل هنيئة قبل ذلك وانظر هل أعددت جواباً له في قبرك، فإن شككت أنّه لا جواب لك فدعه... هذا النّمط من التفكير والسلوك هو من مصاديق (الدَّعة).

أمّا الوَقـار والسّـكينة: فأحدهمـا متعلّق بالقلـب وهي السّـكينة، والآخـر بظاهر الإنسان وهو الوَقار، فيقال لمن يحافظ على هدوئه لدى تناول طعامه أو عند حديثه أو مشيه أو استماعه أو نظره: إنّه وقور.

والوَقار منـوط بطبيعة الاسـتفادة من الأعضـاء والجـوارح، بينما تطلق السّـكينة والطّمأنينة على استقرار القلب، وهي مشـتقّة من «السّكون» وهو يتأتّى من القلب أكثر من الجوارح.

وبعبارة أخرى: ليس من المناسـب إطلاق السّـكون على ظاهر الإنسـان؛ إذ ليس من المفتـرض للظّاهـر أن يجمد عـن الحركـة أو يقـف، لأنّ ظاهر الإنسـان محكوم بالحركة والنّشاط. أمّا القلب فله خاصّيته الموسومة بالاستقرار المعنويّ، لئلا يصطدم ويتزلزل عند الحوادث والمصاعب والمصائب.

ولا يخفـى أنّ السّـكينة متمّمة للوَقـار، ولا بدّ أن يكونـا معاً، فمن عادة الإنسـان أنّه لكـي يحفظ كرامته، يسـعى إلى حفظ وَقـاره، فإذا تحلّـى بالوَقـار، عليه أن يحكّم الطّمأنينة على قلبه، وهذا هو معنى «السّكينة».

---

(١) هو السّيد الميرزا مهدي الحسيني الشـيرازي قدس سره ولد في كربلاء المقدسة (١٣٠٤هـ) كان عالماً تقياً، ورعاً عابداً، زاهداً كثير الحفظ جيد الخط، وكان صاحب كرامات، وهو قدس سره من خيرة تلاميذ الشّـيخ محمد تقي الشـيرازي (قائد ثورة العشرين في العراق)، توفي في (٢٨ شعبان عام ١٣٨٠هـ) ودفن في الصحن الحسيني الشّريف.

وإلّا لو عجز الإنسان عن التحكّم بقلبه، فلت منه زمام التحكّم بظاهره أيضاً، وكذا هو العكس...

إذن؛ بين هاتين الحالتين تأثير وتأثّر، ولا ينبغي الغفلة عن إحداهما، ففي الخبر عن أَمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**ما أضمر أحدكم شيئاً إلّا أظهره الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه..**»[1].

فإذا لم يستطع الإنسان كبح جماح باطنه ولم يسيطر على قلبه، ظهرت تأثيرات ذلك على ظاهره وعلم الجميع بحقيقته، ولا ينبغي أن يغترّ أحد بقوّة إرادته، لأنّ هذه القاعدة تشمل الجميع، نعم قد تظهر لدى البعض متأخّرة.

وفي هذه الوصيّة يأمر الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ شيعته بالسّعي إلى التزام الهدوء والطّمأنينة في ظاهرهم وباطنهم، ولا ريب أنّ تحقّق هذا الأمر بحاجة إلى المراس والجدّية، لأنّ التّمرين لازم لكلّ أمر.

لذا ينبغي لمن أراد التحلّي بالوَقار والسّكينة، أن يمعن في المراس والرّياضة، ويبذل المزيد من السّعي للاستقامة، فمن الأمثلة المعروفة التي عادة ما تذكر لطالب العلم لحثّه على طلب العلم في بداية التحاقه بهذا الطريق هي:

أما ترى حبل الدّلو كيف أثّر في الصّخرة الصّماء؟

فمع أنّ حبل الدّلو الذي يُستخرج به الماء من البئر منسوج من خيوط ناعمة، وحافّة البئر من الصّخر الصّلد، ولكنّ الحبل يترك أثره فيها؛ لكثرة المرور عليها والمماسّة بها.

والمراد من المثال: أنّ العلم ليس أكثر نعومة من خيوط الحبل، ولا ذهن طالب العلم أشدّ خشونة من صخرة البئر، ولذا بالتكرار والممارسة يستطيع الجميع أن

(١) بحار الأنوار، ج٦٥، ص٣١٦.

يصبحوا علماء، والطّلاب ملزمون بتكرار مطالعة الدروس ليصبح ذلك ملَكة لهم.

ولكي يكتسب الإنسان الصّفات الأخلاقيّة الطيّبة ينبغي له أن يزاول المراس، فيكرّر التّمرين على صفة أخلاقيّة معيّنة حتى تتحوّل إلى ملَكة لديه، وهذا ما عناه الإمام الصّادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بكلمة: «**عليكم**».

فينبغي للإنسان أن يقرّر ثم ينفّذ، لأنّ مجرّد التقرير غير كافٍ لتحقيق التقدّم والتطوّر.

بالطّبع لا ينبغي التخوّف من صعوبة العمل بل يجب تلقين النّفس بأنّ التحلّي بالصّفات الأخلاقيّة الحميدة، ليس أمراً مستحيلاً.

نعم، على الإنسان أن لا يسمح لليأس كي يتسلّل إلى داخله في أيّ عمل، لأنّ ذلك يحرمه الموفّقية والنّجاح، وعليه أن يتذكّر دائماً أنّ المهمّة لو كانت مستحيلة لما استطاع غيره تحقيقها. والتّاريخ يشهد بأنّ كثيراً من النّاس بلغوا قمم العزّة والكمال، وارتقوا درجات الأخلاق وبقوا عليها طيلة حياتهم، وهذا الأمر بحدّ ذاته خير دليل على إمكانية تهذيب النّفس وكسب الفضائل الأخلاقيّة، والمحافظة على الوَقار والسّكينة، وتحقيق العافية والسّلامة التامّة.

شاهد على تمرين النّفس

صديقان كانا يعيشان في مدينة كربلاء المقدّسة، وكانت تربطهما علاقة وثيقة، وذات يوم حدث بينهما اختلاف على قضية ما أدّت إلى النّفرة الشّديدة بينهما فافترقا على أثرها. وبعد فترة وجيزة قرّر أحدهما أن يعيد العلاقة. ولما رأى صديقه في اليوم الثّاني سلّم عليه وحيّاه، ولكنّه لم يتلقّ منه سوى الإعراض، فعاود الكرّة في اليوم التّالي وحيّاه، فلم يرَ منه أكثر ممّا رآه في اليوم السّابق... استمرّ حالهما على ذلك مدّة ستّة أشهر، والصّديق الأوّل يلقي السّلام والتحيّة، والثّاني مصرّ على موقفه.

وذات يوم سلّم الصّديق الأوّل على الثّاني وهو لا يتوقّع أن يسمع منه شيئاً،

ففوجيء أن رأى شفتيه تتحرّكان، وسمعه يقول بهدوء: وعليكم السّلام. ثم قال: لم لا تكفّ عنّي؟!

فقال له: إنّني أعمل بوظيفتي، وهي أن أحطّم الخلاف بيننا وأعيد صداقتنا إلى سابق عهدها.

ثم تصالحا، وبقيا صديقين إلى آخر عمرهما.

نعم، بوسع الإنسان أن يسيطر على نفسه ويخمد نيران تمرّدها عبر التّمرين الدائم والرّياضة المستمرّة.

عاقبة عمل الخير

كان الشهيد زهير بن القين[1] ـ كما ذكر الشّيخ النمازي رحمه الله[2] في (مستدرك سفينة البحار) ـ ممّن تشرّف بالسّلام من الإمام المعصوم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد ورد في زيارة النّاحية المقدّسة المنسوبة للإمام المهديّ المنتظر عجّل الله تعالى فرجه الشّريف: «السّلام على زهير بن القين». وهذا شرف عظيم أن يسلّم منجي البشرية وخاتم الأوصياء على إنسان ويحيّيه! فيا ترى من كان زهير بن القين حتى نال شرف سلام الإمام عليه؟

---

(١) زهير بن القين من أصحاب الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد سماع الإمام خبر استشهاد مسلم بن عقيل أرسل رسوله إلى زهير بن القين، وطلب إليه النصرة. فسكت زهير في البداية، ولكنّه استجاب للإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لتحريض زوجته الصالحة، حتى انتهى به الأمر إلى نيل الشهادة في صحراء كربلاء المقدّسة.

(٢) الشيخ علي نمازي الشاهرودي (١٣٦٤ـ١٤٠٤هـ)، عالم فقيه ومحدّث ومتكلّم، وُلد في مدينة شاهرود الإيرانية، وبعد تتلمذه على والده هاجر إلى مدينة مشهد وطوى المدارج العالية لدى أساتذتها ومدرّسيها المعروفين. فدرس المعارف والأخلاق على الميرزا مهدي الغروي الأصفهاني. فضلاً عن إمامته للجماعة في أحد مساجد مشهد المقدسة، انهمك في التأليف والتحقيق. ومن تصانيفه كتاب مستدرك سفينة البحار، أبواب الرّحمة، تاريخ الفلسفة والتصوّف، أركان الدّين، مقام القُرآن والعترة في الإسلام، فهرست منتهى الجمان، إثبات الولاية، وكتب قيّمة أخرى. راجع أثر آفرينان: حياة مشاهير الثقافة الإيرانية من البداية حتى عام ١٣٠٠هـ. ش: ج٦ ص٦٤، بالفارسية.

بعد مقتل عثمان بن عفّان وإعلان معاويَة بن أبي سفيان التمرّد على حكومة الإمام عليّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ظهر على السّاحة العثمانيّون ـ الذين يدَّعون أنّ أتباع الإمام عليّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قتلوا عثمان بن عفان ـ ولم يكتفوا برفضهم لإمامة أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بل انبروا أيضاً لمحاربته هو وأتباعه ومحبّيه، وكان زهير بن القين يعيش في الكوفة ـ أي في مدينة أصحاب أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأولاده وأشياعهم ـ ولكنّه ـ كما قيل ـ كان عثمانيّاً وبعيداً عن ولاية أهْل البَيت عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ. ومع ذلك اهتدى وبلغ مرتبةً من الكمال أن نال ثناء خاتم الأوصياء الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشّريف.

استبصار العياشي رحمه الله

كان العيّاشي[1] من علماء العامّة ومؤلّفيهم المبرَّزين، وقد ألّف ثلاثة كتب في فضائل أبي بكر وعمر وعثمان ودافع عنهم، ولكنّه بعد مدّة ونقاش بينه وبين بعض الشّيعة أعلن تشيّعه وأسّس مدرسة في بغداد، ودرَّس وربَّى العديد من الطّلاب المميَّزين من جملتهم: الكشّي[2] والنّجاشي[3]، وهما من علماء الرّجال المعروفين، وقد ساهمت

(١) أبو النضر محمد بن مسعود بن محمد بن عياش، المعروف بالعياشي، فاضل أديب ومفسّر ومحدّث، من أعيان الشّيعة في عهد الشّيخ المحدّث محمد بن يعقوب الكُليني.. له كتب بالعشرات في العقائد والأخلاق والأحكام والتّفسير والتّاريخ، انظر فهرست الشّيخ الطّوسي وغيره.

(٢) أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز (ت: حوالي٣٤٠هـ) من ثقات وعلماء ومحدثي الإمامية، من تلامذة محمد بن مسعود العياشي وروى عنه. كان متبحّراً في علم الرّجال، وله كتاب الرّجال الشهير، واسمه الأصلي: معرفة أخبار الرّجال، أو: معرفة الناقلين عن الأئمّة الصّادقين. لخّص الشّيخ الطوسي رحمه اللّه هذا الكتاب وسمّاه اختيار الرّجال، أو اختيار الكشي. وما في الأيدي هو هذا التلخيص، أما أصل الكتاب فمفقود، كما قيل. راجع ريحانة الأدب: ج٥ ص٦٢ـ٦٣.

(٣) أبو الخير أبو الحسن (أبو العباس) أحمد بن علي بن أحمد النجاشي الأسدي الكوفي، الرّجالي الشهير، من علماء الإمامية في القرن الخامس الهجري. من تلامذة السّيد المرتضى. وروى عن الشّيخ المفيد وهارون بن موسى التلعكبري وأحمد بن نوح السيرافي وأحمد بن الحسين ابن الغضائري، ومن تأليفاته كتابه: الرّجال. راجع ريحانة الأدب: ج٦ ص١٣٤ـ١٣٥.

تصانيفهما في علم الرّجال في تصحيح كثير من روايات الشّيعة، ولولا ما ألّفا في هذا العلم لفَقدت مئات روايات الشّيعة مصداقيّتها واعتبارها؛ لأنّه لم يرد لرواة هذه الرّوايات أثر أو ذكر إلّا ما ورد من توثيقهم في كتابي رجال الكشّي والنّجاشي.

لنلزم نهج الصّالحين

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وعليكم بالحياء والتنزّه عمّا تنزّه عنه الصالحون قبلكم، وعليكم بمجاملة أهل الباطل**».

الحياء: صفة نفسانيّة يظهر أثرها خارجاً، والنّسبة بينه وبين الخجل هي العموم من وجه، فبعض الحياء خجل وبعضه ليس بخجل، وكذا الخجل، فبعضه يجتمع مع الحياء وبعضه لا يجتمع.

فمن الحياء أن يتعامل الإنسان مع النّاس بأخلاق حسنة، فلا يكلّم أحداً بما لا يليق.

والحياء أمر فطريّ، وبتعبير أدقّ: بعضه فطريّ وبعضه اكتسابيّ، فمقدار منه كامن في ذات الإنسان ولكنّه يحتاج إلى تنمية وترسيخ ليبلغ المرحلة المرجوّة. ولو كان جميع الحياء فطريّاً لما أمر الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ شيعته قائلاً: «**وعليكم بالحياء**» الأمر الذي يشير إلى ضرورة العمل بهذه الوصيّة المباركة.

وكما أنّ في كل شيء إفراطاً وتفريطاً، وكلاهما يضرّان بالإنسان، والمطلوب هو الاعتدال، كذلك الحياء، فإنّ فيه إفراطاً وتفريطاً، إلّا أنّه تبقى للحياء قيمته دائماً.

وما عن الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّ: «**الحياء يمنع الرّزق**»[1] فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ يحكي عن الواقع؛ فلو أنّ الحييّ جلس إلى مائدة طعام، تراه يتراجع إلى الخلف قليلاً، بخلاف عديم الحياء أو قليل الحياء فهو أعجل إلى تناول الطعام وأحرص، ممّا يكشف أنّ الحييّ يفقد أحياناً بعض الرّزق جرّاء حيائه، وقد يضيع حقّه كما لو جلس

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٢٥٧.

إلى مائدة تزاحم المدعـون لها، وأحياناً لا يأكل كلّ ما يرغـب ولا يمدّ يده إلى الطعام البعيد عنه أو يأكل بسرعة، وفي النتيجة يقلّ رزقه.

الملفت للانتباه أنّ الإمـام عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يدع الحيي إلى التخلّي عن حيائه، لأنّه سـيربح ما هو أهمّ ممّا فقده حيث ستعدّ له في الآخرة آلاف الموائد من الأطعمة الشهيّة.

ولم يقتصر الإمـام عَلَيْهِ السَّلَامُ على دعـوة الشّـيعة إلى التحلّـي بالحياء بـل أردفها بالاقتداء بالصّالحين والتنزّه عمّا تنزّهوا عنه، وفي هـذا الصدد ـ حياء الصّالحين ـ أذكر صديقاً حميماً لوالدي رحمه الله كان مبلّغاً، وقد سـمعت عنه قصصاً لطيفة، منها ما نقله لي ابنه أخيـراً: أنّ أخاه رآه ـ أي: رأى والدهمـا ـ في المنام وهو في حالـة جيّدة، ولمّا سأله عن سبب تنعّمه، قال: إنّي مسرور جداً لأنّ الميرزا مهدي قد زارنا، ما يعني أنهما مأنوسان ببعضهما في عالم الآخرة كما كانا في الدّنيا.

ومن قصص الحياء التي سـمعتها من ذلك الرّجل التقيّ ما نقله لي في أحد الأيام، فقال:

كنت ذات يوم في حرم أمير المؤمنيـن عَلَيْهِ السَّلَامُ وكان الزوّار حينها قليلين، فدخل زائر هندي وأخذ ـ كما هي عـادة بعض الزوّار ـ ينثر أوراقاً نقدية (خمسـة دنانير) على الحضور، وكانت للدينار آنذاك قيمة عالية، فربما كفى مصروف عائلة لمدّة سنة كاملة، فسقط أحدها على كتفي، ففكّرت أن أسـرع بالتقاطه، فسبقني إليها شخص كان خلفي فالتقطها بسـرعة، وقد بقي أثـر ذلك في قلبي، ليـس لأنّي لم ألتقطها بسـرعة بل لأنّي فكّرت حينها أن أسرع في أخذها، وهذا ممّا لا يليق بي.

تنزّه الصّالحين

يقـول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بعـد ذلـك: «**والتنـزّه عمـا تنـزّه عنـه الصالحـون قبلكم**» أي: انظـروا إلـى الصّالحين مـن قبلكـم عن أيّ شـيء تنزّهـوا اقتـدوا بهـم وتنزّهوا عنه، ما يدلّ على ضـرورة مطالعة تاريخ وسـيرة أوليـاء الله الصّالحين وعلى رأسـهم

المعصومون عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لأنّهم بلا شكّ أفضلهم، ويليهم في الفضل أصحابهم المخلصون والعلماء بعلوم القُرآن الكَريم وعلوم أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وهنا ينبغي مراعاة أمرين:

الأوّل: مطالعة سيرة الصّالحين لنعرف ما تنزّهوا عنه، فلو طالع الإنسان في كلّ ليلة صفحة من كتاب بحار الأنوار للعلّامة المجلسي ـ رحمه الله ـ ذلك الكتاب القيّم الذي يضم أحوال المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في عدّة مجلّدات ـ فلا شكّ أنّه سيطلع على أشياء جديدة لم يسمع بها ولم يقرأها من قبل.

الثّاني: التنزّه عمّا تنزّهوا عنه.

بعض ما ينبغي التنزّه عنه

لو عدنا إلى تاريخ الأئمّة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأصحابهم المخلصين والعلماء الأتقياء وسائر الصّالحين فسنلاحظ أنهم ابتعدوا عن أمرين بارزين يحتاجان إلى مزيد من الوعي والاهتمام، أحدهما: حبّ التسلّط والرّئاسة والوجاهة، والثّاني: حبّ المال. ومن اللافت للنظر أنّ هاتين الآفتين تعرضان لأهل العلم.

فمن يمشي على الأرض ولا ينظر أمامه يتعرّض إلى الخطر، والأكثر تعرّضاً منه للخطر الذي يحاول النزول من الجبل إلى سفحه ولا ينتبه، فقد يفقد حياته لعثرة واحدة... ومثل أهل العلم كالنازل من الجبل، ومثل الرّئاسة والمال كالجبل الشاهق.

ففي دعاء الصباح للإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصف النبيّ الأعظم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال:

«وصلّ اللّهمَّ على الدّليلِ إليكَ في اللّيلِ الأليَل، والثّابتِ القَدم على زحاليفِها في الزّمن الأوّل»[1].

(١) بحار الأنوار: ج٨٤ ص٣٣٩.

والزّحاليف: جمع «زحلوفة» أي: المكان الذي ينزلق منه الإنسان بسرعة وسهولة، فالإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يصف النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بأنّه ثابت القدم في مزالق كهذه.

ولا شكّ أنّ العلماء يمشون على الزّحاليف والمنزلقات وهم معرَّضون أكثر من غيرهم للمغريات، وما أكثر العلماء الذين غيّرهم المال أو الرّئاسة؛ بدءاً من صحابة النبيّ المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلى يومنا هذا، أمّا من سلم منهم من هاتين الآفتين وغيرهما فهو من الصّلحاء ممّن ينبغي الاقتداء بهم والتنزّه عمّا تنزّهوا عنه.

يقول عبد الله بن عباس[1]: دخلت على أَمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟ فقلت: لا قيمة لها! فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«والله لهي ـ النعل ـ أحبّ إليّ من إمرَتكم، إلّا أنْ أُقيم حقّاً أو أدفَع باطلاً»[2].

قال الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الكلام وكان زعيم أكبر وأهمّ حكومة على وجه الأرض وهذا الأمر نادر الوقوع طيلة التّاريخ.

فبالرّغم من أنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يحكم أهم حكومة في الأرض، تراه ينشغل بإصلاح نعليه بخيوط ليف النخل ويقسم بالله أنّها أحبّ إليه من الرّئاسة، بينما يترك بعض الصّحابة بعد موته من الذهب ما يكسَّر بالفؤوس[3]، فلو ذكرت هذه الصور للمسيحيين واليهود والبوذيّين وعبدة الأصنام لعجزوا عن المجيء بمثلها.

وهذه من مصاديق: «الصّالحين قبلكم»؛ ما يعني أنّ على الإنسان أن يبلغ بنفسه بحيث لا يهمّه المال ولا تغيّره الرّئاسة وإطراء النّاس، كأن يقال له: حجّة الإسلام، أو آية

(١) عبد اللّه بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم (٣ قبل الهجرة ـ ٦٨هـ) الشهير بابن عباس، من أعاظم الصحابة، ومن تلامذة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ.
(٢) نهج البلاغة، ج١ ص ٨٠ الخطبة ٣٣.
(٣) نقل المسعودي: أنّ زيد بن ثابت خلّف من الذّهب والفضّة ما كان يكسر بالفؤوس، راجع مروج الذّهب، ج١ ص٤٣٤.

الله، أويقبّلون يديه، بل يكون وجود ذلك وعدمه عنده سواء، وهذا أمر ممكن التّحقق، ولو لم يكن ممكناً لأشار أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى امتناعه كما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ في موضع آخر: **ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك**[١].

نعم، إنّ أمير المؤمنين وسائر الأئمّة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بلغوا مراحل لا يمكن بلوغها، ولكنّهم طلبوا منّا الاقتداء بهم وإن لم نبلغ تلك المقامات التي ذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بعضها، فقال: «**ألا وإنّ لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه**[٢]، **ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينونا بورع واجتهاد وعفّة وسداد**»[٣].

ولا شكّ أننا لن نجد في التّاريخ أمثلة في الزّهد كأمير المؤمنين وأبنائه المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وأننا مهما بذلنا من جهد لن نبلغ معشار ما بلغوا، علماً أنّ ذلك لم يكن لعجزه عَلَيْهِ السَّلَامُ عن امتلاك الأكثر أو لأنّه حرام عليه، كيف وهو الذي أنفق جميع أمواله مراراً في سبيل الله تعالى، وكان له مطلق القدرة على التنعّم بكلّ نعم الدّنيا، وكما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«**ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفّى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القزّ ولكن هيهات أن يقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا عهد له بالشّبع ولا طمع له بالقرص**»[٤].

فهل هناك من له القدرة على التنعّم بنعيم الدّنيا ويحكم أكبر وأقوى دولة في العالم في عصره ثم يكتفي بتناول الخبز فقط غير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ؟.

---

(١) نهج البلاغة من كتاب له إلى عثمان بن حنيف، ص٧١.

(٢) الطمران: اللّباس ذو القطعتين. واحدة يغطّى فيها الكتف إلى وسط والجسم، والأخرى من الوسط إلى القدمين.

(٣) و(٤) نهج البلاغة الرّسالة: ٤٥ ج٣ ص٧٠.

بالطّبع هذا الأمر يدخل في باب التّزاحم فإنّ العمل ذاته من النّاحية الفاعليّة حسن في نفسه، ولكن إذا تزاحم مع أمر أهمّ، فلا يكون حسناً من النّاحية الفعليّة. على كل لنا في ذلك درس في مراقبة النّفس والسّعي إلى تهذيبها.

قيل لعالم ـ وكان رجلاً فاضلاً ـ: لم لا تصلّ بنا جماعة؟

فقال: إنّني لا أؤمّ الجماعة قبل أن أشعر بعدم الفرق بين صلاتي جماعة (إماماً) وصلاتي منفرداً في البيت، وبما أنّني لم أشعر حتى الآن بهذه الحالة في نفسي فاعذروني.

إذن ينبغي لنا أن نهذّب أنفسنا ونجنّبها حبّ الرّئاسة، وهذا لا يتحقّق دفعة واحدة لأنّه صعب جدّاً وإنّما هو بالتدريج، فالمرء لا يستطيع أن يقلع النخلة من جذورها دفعة واحدة، ولكنّه يستطيع قلعها تدريجاً. وليكن صبره على ذلك صبر من يحفر بئراً بسكين صغيرة، وليخادع نفسه كما أوصى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ؛[1] لأنّها هي الأخرى تخادعه.

وعلى سبيل المثال:

لو دُعي الإنسان إلى مائدة يعلم جيداً أنّ أكله منها بكثرة ليس له فيه خير لا لدنياه ولا لأُخراه، أمّا الآخرة فلأنّ في حلالها حساب وفي حرامها عقاب وفي شبهاتها عتاب ـ كما ورد في الحديث الشّريف[2] ـ وأمّا الدّنيا، فلأنّ كثرة الطعام تسبّب له أمراضاً وأعراضاً كثيرة، فإذا أراد أن يترك النهم في الطعام فهو ليس بالأمر السهل على النّفس، لأنّ الطعام الشهيّ من الأمور المغرية، ولكن يمكن التخلّص من ذلك بالتّدريج عبر تلقين النّفس ومخادعتها، فلما تدعوه النّفس إلى تناول الطعام يمنّها بتناول الطعام في فرص أخرى.

مثال من التاريخ

قيل: كل من يراجع التّاريخ يلاحظ مدى حرص عائشة على عدم إظهار الضعف،

(١) نهج البلاغة، الرّسالة: ٤٩.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٤، ص١٣٩.

فهي في بعض الأحيان كانت تظهر التواضع ولكنّها لم تظهر الضعف، ومع ذلك ففي واقعة الجمل وبعد أن عفا أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن الجميع وأمنت عائشة ومن معها عقوبته أظهرت ضعفها أمام قدرة أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قائلة: ملكت فأسجح[1].

قالت ذلك وهي مطمئنّة أنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لن يؤاخذها كمجرمة حرب... هكذا كانت قدرة حكومة أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومع ذلك فهي بنظره عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا تساوي قيمة نعل من ليف.

لذا ينبغي لنا أن نخرج حب الرّئاسة من أنفسنا ونعمل على تهذيبها لكي نرد عليه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الآخرة مرفوعي الرؤوس في امتحان حبّ الرّئاسة.

امتحان المال

الأمر الآخر الذي يلزم الحذر منه ومن آفاته وينبغي الابتعاد عنه، هو المال الذي يعتني به أهل الثّروات الطّائلة فضلاً عن أهل العلم، فالتنبّه لآفات المال أمر ضروريّ ومهمّ للجميع لا سيّما أهل العلم.

ففي أحوال سمرة بن جندب[2] جاء: أنّه أخذ من معاويَة بن أبي سفيان أربعمائة ألف

(١) بحار الأنوار، ج٣٢ ص ٢٦٥.

(٢) سمرة بن جندب، مات سنة (٦٠هـ). من مجرمي العهد الأمويّ. ورغم أنّ أغلب المفسّرين ينسبون قول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ سورة البقرة، الآية: ٢٠٧، إلى ليلة المبيت حيث فدى أميرُ المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ النبيّ الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في ليلة هجرته، إلّا أنّ معاويَة طلب من سمرة بن جندب أن يحرّف الحقيقة لقاء مبلغ من المال، فرفض في البداية، ولكنّ معاويَة أخذ يزيد في المبلغ حتى رضي سمرة وأخذ من معاويَة أربع مئة ألف درهم ليحرّف شأن نزول هذه الآية الكَريمة، ولينسبه إلى اللعين عبد الرحمن بن ملجم. ولم يكتف سمرة بذلك، وإنما نسب نزول آية تتعلّق بالمنافقين إلى عليّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ سورة البقرة: الآية: ٢٠٤، كما قتل هذا المجرم ثمانية آلاف بتهمة التشيّع لأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في البصرة حين كان عاملاً لزياد ابن أبيه =

درهم ليفتري حديثاً على النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؛ فما أقبح بالمرء يبيع دينه بالدّراهم![1]

ابن أبي عُمير

من مصاديق: «الصالحون قبلكم» بعد الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هو ابن أبي عُمير الذي عاصر الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ وروى عنه، كما عاصر الإمامين الكاظم والرّضا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وروى عنهما.

وبالرّغم أنّه كان ثريّاً يتاجر بالأقمشة، ولكنّه لم يجمع مالاً من مصادر الشرّ، ولم يتعلّق قلبه بالمال والثّروة في أصعب الظروف. كان ابن أبي عُمير عالم دين يوفّر معاشه ممّا يكتسبه من مال التّجارة، فجمع ثروة كبيرة تربو على النصف مليون دينار، وهو مبلغ كبير جداً في ذلك الزمان، وقد ألقى به هارون العباسي في السّجن بتهمة التشيّع لآلِ البيتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فمكث فيه مدّة سبعة عشر عاماً، وصادر أمواله كافّة حتى بيته الذي يسكن فيه مع عائلته، وعذّب في السّجن بشدّة وله في ذلك قصص مفصّلة مذكورة في التاريخ، ثم خرج من السّجن ولكن بأية حال؟

فقد نقل الشّيخ الطوسي رحمه الله[2] في كتابه (تهذيب الأحكام) أنّ ابن أبي عُمير قال لدى خروجه من السّجن: والله لا أملك درهماً[3] وكانت القيمة الشّرائية للعشرة دراهم آنذاك قيمة شاة.

= والي العراق. وحين توجّه زياد له باللوم وسأله عن جرأته على قتل هذا العدد الكبير، وأنه قد يكون بينهم البريء، أجابه بكلّ وقاحة قائلاً: لو قتلت مثلهم ما خشيت؟! انظر: (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٤ ص٧٣، تاريخ الطّبري: ج٢، وقائع السّنة الخمسين للهجرة).

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج٤، ص٧٣.

(٢) هو أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي شيخ الطائفة، جليل القدر، عظيم المنزلة، ثقة عين صدوق، عارف بالأخبار والرّجال، والفقه والأصول، والكلام، والأدب، وجميع الفضائل تنسب إليه. ولد في شهر رمضان سنة (٣٨٥هـ) وتوفي في شهر محرم سنة (٤٦٠هـ) ودفن بالمشهد الغروي المقدس، له رحمه اللّه مؤلفات كثيرة منها: المجالس المشتهر بالأمالي، الغيبة، والمصباح الكبير، المصباح الصغير، الخلاف، والمبسوط، والفهرست، والرّجال،...الخ. انظر روضات الجنّات، ج٦، ص٢١٦ باب ما أوله الميم.

(٣) تهذيب الأحكام، ج٦، ص١٩٨.

ونقل الشّيخ الطوسي في «التهذيب» وصاحب «الوسائل» بعدّة طرق وفي مواقع عديدة، منها «كتاب القرض والدّين» أنّ ابن أبي عُمير كان قد أقرض شخصاً مبلغاً من المال، قبل سجنه وبقي هذا الشخص مديناً له طيلة فترة سجنه، وبعد الإفراج عنه عمد الشخص إلى بيع داره[١] لتسديد دينه لابن أبي عُمير. وبالرّغم من أنّ ابن أبي عُمير لم يطالبه بالمبلغ إلّا أنّه تأثر له بشدّة، ولمّا قدّم الرّجل المال لابن أبي عُمير سأله ابن أبي عُمير قائلاً: من أين لك هذا المال، وجدت كنزاً أو ورثت عن إنسان، لا بد من أن تخبرني؟[٢]

فقال: بعت داري. فقال ابن أبي عُمير: حدّثني ذريح المحاربي عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: **لا يخرج الرّجل عن مسقط رأسه بالدّين أنا محتاج إلى درهم وليس ملكي**[٣].

أقول: لو أنّ ابن أبي عُمير قبل الدَّين لما خالف حكماً شرعيّاً لأنّه كان يستحقّ المبلغ من جهة، وهو برضا المدين من جهة أخرى، إلّا أنّه التزم بقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**فاحبب لغيرك ما تحبّ لنفسك، واكره له ما تكره لها**»[٤].

على أيّة حال؛ فقد امتنع ابن أبي عُمير عن أخذ المال وقال للرّجل: اذهب وافسخ العقد.

---

(١) هناك مسألة شرعية مفادها أنّه إذا استقرض شخص من آخر مالًا فأقرضه، ثم حلّ وقت الأداء ولم يتمكّن المدين من الأداء دون تقصير أو تهاون وليس عنده سوى بيته الذي يسكنه والوسيلة التي تقلّه والثّياب وما يليق بشأنه الاجتماعي، فلا يسوغ للدائن أن يطالبه بالأداء الفوريّ، كما لا يجب على المدين بيع بيته أو شيء من ممتلكاته الضروريّة لتسديد الدَّين.

(٢) من المستحبّ للمقرض أن يسأل المقترض لدى تسلّمه المال المقروض عن مصدر المال ومن أين أتى به، لئلّا يكون قد اضطرّ إلى بيع مستلزماته الضروريّة لتسديد الدَّين. وقد ذكرنا في الهامش أعلاه أنّه لا يجوز للدائن الضغط على المدين وإجباره على بيع بيته، ولكن لو باعه هل يستحب له أن يردّهُ؟ قد يستفاد ذلك من بعض العمومات مثل «أحبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك».

(٣) بحار الأنوار، ج٤٩ ص ٢٧٨، الحديث ٢٩.

(٤) نهج البلاغة الرّسالة: ٣١.

وحيث إنّ الإمام الصّادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أمرنا باتّخاذ الصّالحين السّابقين أسوة ونبراساً ومنهم ابن أبي عُمير الذي أبى أن يُلجىء أخاه المؤمن إلى العيش دون مأوى، رغم أنّه كان مفتقراً إلى الدرهم الواحد؛ فعلينا أن نقتدي بهذا النوع من الموقف أمام المال، وأن نتنزّه بذلك عما تنزّه عنه الصالحون قبلنا.

السقوط في الهاوية

نُقل عن أحد القضاة في العراق ـ والقصّة تعود إلى أكثر من نصف قرن ـ أنّه أنجز لأحدهم معاملة غير قانونية، وتسلّم منه مبلغاً كبيراً، فاطّلع البعض على أمره، وأخذ ينصحه على سبيل الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، فقال: إنّك قاضٍ والمفترض أنّك تعرف أنّ هناك حلالاً وحراماً وحساباً وعقاباً، فلماذا رضيت بأخذ الرّشوة؟

فأجابه قائلاً: «الحلال ما حلَّ في الكفِّ»، أي: إنه يحلّ للإنسان كلّ ما استطاع حيازته. ويبدو أنّه كان رجلاً مطّلعاً على فنون البلاغة؛ لأنّه استخدم الجناس، فإنّ«الحلال» و«الحلّ» يتّفقان في اللفظ ويتفاوتان في المعنى، فـ«الحلال» اصطلاح شرعيّ له أبعاده الخاصَّة به، بينما «الحلّ» مشتقّ من مادة الحلول، أي: الاستقرار في موضع معيّن.

كان ذلك القاضي من أشباه أهل العلم، هذا شخص وشخص آخر ابن أبي عُمير، ولكن ما أكبر الفرق بينهما؟!

فهل كان ابن أبي عُمير على ما عُرف عنه منذ اليوم الأوّل؟ كلا، بل إنّه بلغ مقامه السّامي ومرتبته الرّفيعة عبر الاستقامة ومحاسبة الذّات بعد أن تعلّم من المعصومين عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وتنزّه عمّا تنزّه الصالحون قبله أيضاً.

مطالعة سيرة العظماء

إنّ الحديث عن الرّئاسة والمال والحذر عن أنواع الانحراف طويل جدّاً، ويمكن

العثور على النّماذج التّاريخية إبان المطالعة والبحث، وينبغي استنباط العبر المفيدة من هذه القصص.

لذا لا بدّ من مطالعة سير عظماء وأعلام مدرسة أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أمثال السّيد المرتضى[١] والشّيخ الطوسي والسّيد بحر العلوم[٢] والمقدَّس الأردبيلي[٣] والشّيخ المفيد[٤] وغيرهم، فهؤلاء هم الصالحون الذين ينبغي الاقتداء بهم.

بالطّبع الصّلاح ليس حكراً على ثلّة دون أخرى، نعم إنّ الله سبحانه عزّ وجلّ خصّ المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بخواصّ استثنائية، لا يمكن لأحد من النّاس بلوغها، ولكن درجات الصّالحين والعظماء من بعدهم متاحة للآخرين، ولا شكّ أنّ بمستطاع أيّ إنسان السموّ إلى منزلة ابن أبي عُمير مثلاً.

---

(١) علي بن الحسين (٣٥٥ـ٤٣٦هـ) الشهير بالسّيد والشّريف المرتضى، والملقَّب بعلم الهدى. ينتهي نسبه إلى الإمام موسى الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ، من أساتذته: الشّيخ المفيد والخطيب ابن نباتة، والشّيخ الحسن بن بابويه، ومن تلامذته: الشّيخ الطوسي، والقاضي ابن البراج، وأبو الصّلاح الحلبي، وأبو الفتح الكراجكي، وسلار بن عبد العزيز. ريحانة الأدب: ج٤ ص١٨٣ـ١٩٠.

(٢) السّيد محمد مهدي الطباطبائي (١١٥٥ـ١٢١٢هـ) فقيه، محدّث، مفسّر، مجتهد، من تلامذة الوحيد البهبهاني والشّيخ يوسف البحراني، بلغ مرتبة الاجتهاد الفقهي وكان عمره خمسة عشر عاماً، من تصانيفه: المصباح والدرة البهية. راجع أثر آفرينان: ج٢ ص٣٥، فارسي.

(٣) الملا أحمد بن محمد المعروف بالمقدّس والمحقّق الأردبيلي، توفيّ سنة (٩٩٣هـ) سما إلى مقام المرجعية بعد أستاذه الشهيد الثّاني، كان معاصراً للشيخ البهائي والميرزا محمد الإسترابادي صاحب الرّجال، ومن تلامذته صاحب المعالم والأمير فيض اللّه التفرشي. من تصانيفه: حديقة الشّيعة، وزبدة البيان في براهين آيات أحكام القُرآن، ومجمع الفائدة والبرهان. راجع أثر آفرينان: ج٥ ص٢٧٠، فارسي.

(٤) أبو عبد اللّه، محمد بن محمد بن النّعمان، المعروف بالشّيخ المفيد المتوفى سنة (٣١٣ق) فقيه، أصولي، محدث، رجالي، متكلم، من تلامذة جعفر بن قولويه، والشّيخ الصدوق، وأبي غالب الزراري، وأحمد بن محمد بن الحسن بن الوليد. درس عليه السّيد المرتضى والسّيد الرضي، والشّيخ أبو الفتح الكراجكي، والشّيخ الطوسي وسلار بن عبد العزيز الديلمي، له تأليفات جمة، منها: (أحكام أهل الجمل) و(الاختصاص) و(الإرشاد في معرفة حجج اللّه على العباد) و(الاستبصار فيما جمعه الشافعي من الأخبار) و(المقنعة) و(التمهيد) و(كشف الالتباس). راجع ريحانة الأدب: ج٥ ص٣٦١ـ٣٦٥.

فقد مضى على وفاة ابن أبي عُمير رحمه الله أكثر من ألف ومئتي سنة، ولكن سيرته الرائعة لا تزال مبعث فخر واعتزاز للشّيعة على الآخرين، ولنا أن نطرح قصّته على جميع الأديان والمذاهب ونفتخر به عليهم.

وليس خافياً أنّ عظمة الشّيعة غير منحصرة بإنجازات ابن أبي عُمير وأمثاله من المتقدّمين، فهناك في العصور المتأخّرة من العظماء والأفذاذ من يعتبرون مصدراً لاعتزاز الشّيعة وفخرها، أمثال الشّيخ عبد الكَريم الحائري رحمه الله[1]، وقد أدركت العشرات ممّن عاصروا الميرزا محمّد تقي الشيرازي رحمه الله[2]، وما زال الكثير ممّن أدركوا السّيد حسين القمّي رحمه الله[3]، وقد رأيت خادمه الذي نُقل عنه أنّه قال: لم أسمع ولم يسمع أحد منه كذبة واحدة ـ علماً أنّ خادم المنزل هو الأكثر اطّلاعاً على شؤون سيّده ـ.

(١) الشّيخ عبد الكَريم الحائري اليزدي (١٢٧٥ـ١٣٥٥هـ) مؤسّس حوزة قمّ العلميّة، في القرن الرّابع عشر الهجري، من أساتذته: السّيد محمد الطباطبائي الفشاركي، والشيخ الميرزا محمد تقي الشيرازي، والملّا محمد كاظم الخراساني. أقام في مدينة قمّ المقدّسة بإصرار العلماء، فأسّس حوزتها العلميّة. راجع أثر آفرينان: ج٢ ص٢٥٩، فارسي.

(٢) هو الشّيخ محمد تقي ابن الميرزا محب علي بن أبي الحسن الميرزا محمد علي الحائري الشيرازي زعيم الثورة العراقية، ولد بشيراز عام ١٢٥٦هـ ونشأ في الحائر الشّريف، فقرأ فيه الأوّليات ومقدمات العلوم، وحضر على أفاضلها حتى برع وكمل، فهاجر إلى سامراء في أوائل المهاجرين، فحضر على المجدد الشيرازي حتى صار من أجلاء تلاميذه وأركان بحثه، وبعد أن توفي أستاذه الجليل تعين للخلافة بالاستحقاق والأولويّة والانتخاب، فقام بالوظائف من الإفتاء والتدريس وتربية العلماء. ولم تشغله مرجعيته العظمى وأشغاله الكثيرة عن النّظر في أمور النّاس خاصّهم وعامهم، وحسبك من أعماله الجبارة موقفه الجليل في الثورة العراقية، وقيادته الحكيمة لها وإصداره تلك الفتوى الخطيرة التي أقامت العراق لما كان لها من الوقع العظيم في النفوس. فهو رحمه اللّه فدى استقلال العراق بنفسه وكان أفتى من قبل بحرمة انتخاب غير المسلم. وكان العراقيون طوع إرادته لا يصدرون إلّا عن رأيه وكانت اجتماعاتهم تعقد في بيته في كربلاء المقدّسة. توفي مسموماً رحمه اللّه في الثالث عشر من ذي الحجة عام (١٣٣٨هـ) ودفن في الصحن الحسيني (ع) الشّريف ومقبرته فيه مشهورة. راجع طبقات أعلام الشّيعة، نقباء البشر، ج١، ص٢٦١، الرقم٥٦١.

(٣) السّيد حسين الطباطبائي القمّي (١٢٨٢ـ١٣٦٦ق) فقيه ومرجع كبير للتقليد، ولد في مدينة قمّ المقدسة. وبعد إتمامه لمقدمات الدراسة الفقهية في مدينته هاجر إلى سامراء المشرفة ودرس لدى الميرزا الشيرازي الكبير مدّة ثلاث سنوات. ثم انتقل إلى طهران عام١٣٠٦ق، وتتلمذ على أساتذة كبار مثل الميرزا أبي الحسن جلوه، والميرزا حسن الآشتياني. ثم =

فلو كان للسيّد القمّي رحمه الله عيب لاطّلع عليه الخادم بسرعة وسبق الغير إليه، رغم أنّه رحمه الله لم يكن معاصراً للأئمة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - كابن أبي عُمير - ولكنّه بلغ درجة سامية جدّاً من الفضل والكمال والدّيانة، فهل يستطيع الآخرون أن يكونوا على هذه الشاكلة؟

الملفت للانتباه أنّ هذا الصّلاح والهدى كان متأصلاً في نفوسهم وليس شيء كانوا يتكلّفونه، فلا نتصور أنّ ابن أبي عمير مثلاً جاهد نفسه كثيراً حتى لا يقبل المال، بل كان تصرفه تصرفاً طبيعياً لأنّه تعوّد على مثله.

الخير عادة

روي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنّه قال: «**الخير عادة**»[1]. فثمّة من اعتاد على الخير، وثمّة من اعتاد على المساوىء. ومن النّاس من اعتاد على الاستجابة لجميع رغباته النّفسيّة، ومنهم من اعتاد على الزّهد والحذر من الدّنيا، وكلّ عمل يكرره الإنسان يتحوّل إلى ملكة وعادة لديه.

= هاجر إلى النّجف الأشرف سنة١٣١١ق، ودرس لدى كبار علمائها، كالميرزا حبيب اللّه الرشتي والآخوند الخراساني وفي سامراء المقدّسة لدى الميرزا محمد تقي الشيرازي، حيث عرّفه هذا الأخير باعتباره مرجعاً للتقليد. ثم عاد إلى مشهد المقدسة عام١٣٣١ق، اهتمّ بالتدريس، فضلاً عن توليه شؤون المرجعية الدّينيّة. ثم إنه قصد طهران حوالي عام١٣٥٣ق أيام الحاكم الطّاغوت (البهلوي الأوّل) لنهيه عن المنكرات الكبيرة التي كان قد فرضها بالحديد والنّار على الشّعب الإيراني المسلم (من منع الشّعائر الحسينيّة المقدّسة)، (ومنع النّساء عن الحجاب الإسلامي وفرض السّفور عليهنّ) وخلع العلماء عن العمامة التي لباس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ (ومنع تشييع الموتى) وغيرها، ثمّ نفاه البهلوي من طهران إلى العراق فسكن كربلاء المقدّسة وأقام بها حوزة علميّة نشطة ضمّت المئات من العلماء والفضلاء وطلبة العلوم الدّينيّة. وفي عام (١٣٦٠هـ) وبعد عزل البهلوي الأوّل، جاء إلى إيران لمحاولة جديدة للنّهي عن المنكرات بصحبة مجموعة من العلماء فيهم ابنه الفقيه السّيد حسن القمّي، والسّيد الميرزا مهدي الشّيرازي وآخرون، وقد نجح في إعادة الشّعائر الحسينيّة (ع) المقدّسة وحجاب النّساء والعمامة للعلماء، ورجع إلى كربلاء المقدّسة مظفّراً منصوراً ولله الحمد. راجع أثر آفرينان: ج٤ ص٣٥٨ فارسي.

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٢١٣.

وكما تقدّم، فإنَّ الرّئاسة والمال هما العاملان الأكثر تعرّضاً لأهل العلم، فتراهم يُمتحنون بهما أكثر من سائر فئات المجتمع. ولذلك ينبغي لهم أن يدكّوا في أنفسهم حبّ الرّئاسة والثّروة على أن لا يبلغ ذلك حدود الإفراط أو التفريط، وليكن الله والوجدان هما الحكمان في المقام.

نموذج من القدس والتّقوى

قرأت في كتاب اسمه «الرسائل» في أحوال الميرزا محمّد إبراهيم الكلباسي رحمه الله[1] صاحب كتاب الإشارات، وهو كتاب قيّم ومهمّ يشتمل على خمس عشرة رسالة مهمّة فيها قواعد أصولية وفقهية، وآراء العديد من العلماء الماضين ممّن لم أجد آراءهم في كتاب آخر.

وممّا نُقل عن تقواه رحمه الله أنّه كان في بيته بئر يستعملها للشرب والوضوء، فصبّ أحدهم ذات مرة في البئر قدحاً من ماء مغصوب، ولمّا علم الشّيخ الكلباسي رحمه الله بذلك رفض أن يستعمل ماء البئر مطلقاً ـ لا للشرب ولا للوضوء ـ لأنّه أصبح

(١) الشّيخ أبو المعالي بن محمد إبراهيم (١١٨٠ ـ ١٢٦٢هـ) بن محمد حسن الكلباسي الأصفهاني، والكلباسي نسبة إلى محلّة تسمّى حوض كرباس بأصفهان. وصفه الأمين بقوله: «عالم عامل متبحّر، فاضل دقيق النّظر كثير التتبّع، حسن التحرير، كثير التصنيف، كثير الاحتياط، شديد الورع، عالم ربّاني، منقطع إلى العلم، لا يفتر عن التحصيل ساعة، توفي يوم الأربعاء ٢٧ صفر ١٣١٥. ومما قال شيخنا العلامة: «عالم جليل، ومجتهد كبير، ومصنّف خبير، ولد بأصفهان في شعبان ١٢٤٧، وتلمّذ بها حتى برع وكمل، فمن آيات فضله واجتهاده رسائله الأصولية الخمس عشرة المطبوعة، وألّف ولده الميرزا أبو الهدى في أحواله كتاب البدر التمام في أحوال الوالد القمقام».

من آثاره: ١ـ الاستشفاء بالتربة الحسينية الشّريفة: طبع ملحقاً بشرح زيارة عاشوراء في ٤٤ صفحة في أصفهان سنة ١١٣١هـ، وأعيد طبعه بتحقيق الشّيخ حسين عنب علامي الهرساوي في قمّ سنة ١٤١٤هـ. ٢ـ رسالة في الاستخارة من القُرآن المجيد: طبع بتحقيق ونشر مؤسسة الإمام المهديّ عجل الله فرجه بقم، سنة ١٤١١هـ. ٣ـ شرح زيارة عاشوراء: طبع في أصفهان سنة ١٣١٤ في ١٢٩ صفحة. ٤ـ إشارات الأصول، توفي في أصفهان. روضات الجنّات، ج١، ص٣٤.

مخلوطاً بالمغصوب الحرام! الأمر الذي سبّب له ولعياله معاناة كثيرة، فهل لنا تحمّل مثل ذلك لو تعذّر علينا استعمال الماء في بيوتنا لسبب ما؟ وكم سيسبّب ذلك لنا من الحرج والعسر لأنّنا لا نملك طريقاً آخر للحصول على الماء؟ فسنضطر حينها إلى طلب الماء من هذا وذاك أو أن نشتريه بثمن باهظ.

لقد كان الشّيخ الكلباسي رحمه الله كبقية طلاب العلوم الدّينيّة، وفجأة ابتلي بهذا الأمر وتصرّف هكذا لشدّة تقواه واحتياطه وتجنّبه عن المغصوب، علماً أنّه رحمه الله يعرف حكم الاستهلاك وأفتى به النّاس ولكنّه لشدّة احتياطه تجنّب ذلك الماء رغم أنّ الماء المغصوب استهلك في ماء البئر الكثير الحلال، وحيث لا يمكن فرز أجزاء المغصوب فلأجل (ضرر) في الطرفين يكون الحلّ الشّرعي إعطاء مقدار القدح من الماء للمغصوب منه إن كان معلوماً، وإن كان مجهولاً فيكون -على الأظهر- سهم الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يُصرف بما يعرف رضاه (عجّل الله تعالى فرجه الشّريف)... وهكذا يكون التنزّه عمّا تنزّه عنه الصالحون قبلنا.

وقد يتصوّر البعض أنّ الأمثلة التي ذكرت من باب الأسطورة والخيال، والحال أنّها أمثلة واقعية وصادقة تستحقّ منا الاقتداء والتعلّم والعمل.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا للتنزّه عمّا تنزّه عنه الصالحون قبلنا.

مجاملة أهل الباطل

قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**وعليكم بمجاملة أهل الباطل.. تحمّلوا الضّيم منهم...**».

لايخفى أنّ كلمة «المجاملة» من باب المفاعلة، والأصل في هذا الباب أن يستعمل في صدور الفعل من الطرفين كالمقاتلة والمضاربة، إلّا أنّها قد تخرج عن ذلك وتأتي بمعانٍ أخرى منها التفعيل، فالمجاملة هنا بمعنى التجميل، أي: تجميل العلاقة والتعامل مع الآخرين.

وقد استُفيد من باب المفاعلة لأنّ من عادة النّاس أنّهم لو بادروهم بالحسن

فإنّهم ولو بعد حين يبادلون التعامل بالحسن، فاستعمل باب فعيل بمعنى المفاعلة لما سيؤول إليه التعامل بالمجاملة.

ولم يقل الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (جاملوا) بل بيّن أمره بقوله: «عليكم»، أي: الزموا هذا الأمر وواظبوا عليه، وقد دعا أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى مجاملة أهل الباطل؛ لأنّ الإسلام يريد هدايتهم، وإذا كان الهدف من إرسال الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وإنزال الكتب هو هداية الضالّين، فإنّ أفضل طريق لتحقيق هذا الهدف هي المجاملة.

وبعبارة أخرى: إنّ الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يأمر الشّيعة بمجاملة المؤمنين أو النّاس لأنّ ذلك أمر مفروغ منه، وإنّما أمرهم بمجاملة أهل الباطل من المشركين والملحدين والكفّار.. وأن يعاملوهم بالحسنى وبالتي هي أحسن، وهذا بطبيعة الحال ليس من باب: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[1] بل من باب: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[2] فهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يدعُ إلى المعاملة بالتي هي أحسن ومقابلة الحسنة بمثلها، ولذا ـ وكما ذكرنا ـ في البداية: ليس من الضروري أن تكون المجاملة ـ من باب المفاعلة ـ بمعنى التعامل المتقابل بل هي من باب التفعيل، أو أنّها من باب المفاعلة ولكن بالسبب والنتيجة.

فوارق المجاملة والمداهنة

من الأمور التي لا ينبغي الخلط بينها هي المجاملة والمداهنة[3]، فالمداهنة هي: تلبيس الحقّ بالباطل، ومداهنة أهل الباطل: تبرير أعمالهم والسّكوت عليها، وقد ذمّها الإسلام وعاقب عليها الله تعالى، ففي الخبر عن الإمام الباقر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال: «**أوحى الله إلى شعيب النبيّ** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: **إنّي معذبٌ من قومك مئة ألف، أربعين ألفاً**

(١) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٢.

(٣) المداهنة مشتقّة من الدهن، والمقصود: التلاين والتسامح إزاء الأعمال الباطلة والعقائد الفاسدة، كما يدهن الإنسان موضع ألم في بدنه مثلاً أو موضعاً قاسياً ليلين، أو ليستر العيب في البدن، فيكون من قبيل تلبيس الحقّ بالباطل.

من شرارهم، وستّين ألفاً من خيارهم. فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: **يا ربّ! هؤلاء الأشرار؛ فما بال الأخيار؟**

فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: داهَنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي»[١].

وقد أشار القُرآن الكَريم إلى المداهنة وثقافة التبرير، فقال الله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[٢]، فهؤلاء الستّون ألفاً لم يكونوا من العاصين، وإنما «داهنوا» العصاة ولم يتحمّلوا مسؤولياتهم في عملية الإصلاح الاجتماعي، فكانوا إذا رأوا معصية من أحدهم غطّوا على معصيته وبحثوا له عن تبرير؛ كأن يقولوا: عصى لمرض أو لمصيبة أو لجهل، وغير ذلك من الأعذار المرفوضة.

والمجاملة: أن يتعامل الإنسان مع الآخرين بالحسنى وإن أُسيء إليه بالقول أو الفعل، فيردّ القول السيّىء بالحسن والفعل القبيح بالجميل..

المجاملة بالأفضل

قال الله تعالى مخاطباً الرّسول الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[٣] مؤكداً أنّ خلُقه الرّفيع مع الأعداء هو من الرّحمة الإلهيّة، إذ إنهّم كانوا يسيئون إليه ويعنّفونه بالقول والعمل وهو لا يبطن لهم إلّا الحسنى، ويدعو لهم بالخير.

على كلّ فإنّ المجاملة في أعلى مصاديقها إزاء الضالّين تتجلّى في دعوة الرّسول المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الذي كان يدعو بالخير والهداية لقوم يرجمونه بالحجارة ويسيئون إليه أشدّ الإساءة، قائلاً: «**اللّهمّ اهدِ قَومي فإنّهم لا يَعلمون**»[٤].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «لا يعلمون» لا يعني أنّهم معذورون كما في

(١) وسائل الشّيعة: ج١٦ ص١٤٦.
(٢) سورة القلم، الآية: ٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٤) بحار الأنوار: ج١١ ص٢٩٨.

قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «رُفع.. ما لا يعلمون»[1]، بل إنّه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يطلب من الله تعالى أن ينجّي قومه لئلّا يضيفوا إلى سيّئاتهم سيّئات أخرى.

وقد صلح بذلك كثير ممّن عادوا النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أشدّ العداء وأصبحوا مؤمنين؛ إذ ليس من المقرّر أن يبقى أهل الباطل على باطلهم إلى نهاية أعمارهم، بل ينبغي أن يقادوا إلى الهداية. وأفضل طريق يوصلهم إليها هو تعامل المؤمنين معهم بالخير والحسنى، ليس لمرّة أو مرّتين، وإنّما لعشرات المرّات.

ففي الفترة التي ازدادت فيها قدرة المسلمين وتضاعفت أموالهم وأعدادهم، حيث أسلم الكثير على يد الرّسول الأكرم كان صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يحيّي اليهود ـ وهم الأشدّ عداوة للذين آمنوا ـ لما يمرّ عليهم ويتفقّد أحوالهم، ولمّا كان يعلم بمرض أحدهم يعوده، وفي سيرته المباركة أنّ أكثر من يهودي إبان احتضاره أسلم على يد النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ؛ لمعرفته بجميل صنيع النبيّ وتأثّره المباشر برفيع أخلاقه الطيّبة وتواضعه الجمّ.

وعلينا أن لا نتوقّع النتائج الطيّبة سريعاً ودائماً، لأنّ هناك عواقب متفاوتة بانتظار المؤمنين بعد المجاملة؛ ولذا قال الإمام الصّادق عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: «**وتحمّلوا الضّيمَ منهم...**».

إذ ليس من المتوقّع أن يصلح أمر الضالّين بموقف إيجابيّ واحد، وكما يقال: لا يحلّ الربيع بوردة واحدة، وإنّما يلزم اتخاذ الكثير من المواقف الإيجابية التي تنمّ عن اللطف والليونة؛ عسى أن يكفّ المنحرفون أو الضالّون عن الإمعان في الأذى والعصيان والظلم.

ولم يحدّد الإمام عَلَيْهِٱلسَّلَامُ نوع الضّيم بل أطلقه، ومن المعروف بين العلماء: «أنّ حذف المتعلّق يفيد العموم» أي: تحمّلوا كلّ أنواع الضّيم.

وكذا الأمر في المجاملة، فهو عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لم يحدّد المتعلق فيها ما يشير إلى

(١) وسائل الشّيعة: ج١٥ ص٣٦٩.

عمـوم أنواعهـا وأشـكالها ومناسـباتها، وهـي كقولـه تعالـى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[1] حيث حذف متعلّق الإحسان ولم يذكر نوعه، وإلى أيّ النّاس ينبغي أن يُقدَّم؛ لذا فهو يعمّ الجميع وبجميع الصور.

أصول المجاملة

يمكن جمع أصول المجاملة وقواعدها في ثلاثة أمور:

١ـ المجاملة بالنّية.

٢ـ المجاملة في القول.

٣ـ المجاملة في العمل.

أما المجاملـة بالنيّة؛ فهـي أن يكـنّ المؤمن نيّـة الخيْـر لجميع النّـاس بمن فيهم أهل الباطل، وقد نقل العلّامة المجلسـي فـي (بحار الأنوار) عن السّـيد ابن طاووس رحمه الله[2] في أعمال ليلة القدر المباركة، فقال: نظرت في نفسـي وقلت: أيّ الأعمال أؤدّي وأيَّ دعاء وأيّة عبادة أقوم بها في ليلة القدر؟ أأدعو للفقراء بالغنى؟ أم للمرضى بالشفاء؟ أم للمؤمنين بقضاء الحوائج؟

فرأيت أنّ الفقراء يعيشـون بفقرهم، وهو ليس أمراً أبديّـاً، وأنّ الله تعالى يمتحنهم به، والمرضـى بدورهم ممتحنـون، ولا بد أنّ الله سيشـفيهم في وقت مـا، والمؤمنون يتمتّعـون بالإيمان، وهو أسـمى النّعـم والفضائـل، وليس لديهـم ما يطلبونـه من الله

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٢) رضي الدّيـن، أبو القاسـم، علي بـن موسى بـن جعفـر (٥٨٩ـ٦٦٤هـ) المعروف بالسّـيد ابن طاووس، فقيه متكلّم محدّث مؤرّخ. أمّه ابنة الشّـيخ ورّام بن أبي فراس الحلّي، وأمّ أبيه ابنة الشّيخ الطوسي، عاصر حاكمين عباسيين، هما المستنصر والمسـتعصم. بذل جهوداً كبيرة لئلّا يتعرّض العراق لمزيد من الدمـار أثناء الغزو المغولي. قبل نقابـة العلويين على كره، وبقي إلى آخر عمره الشّريف في هذا المنصب. راجع دائرة المعارف الإسـلامية الكبرى (بالفارسية): ج٢ ص٥٤ـ٥٥.

سبحانه أعلى من ذلك. وفجأة خطر ببالي أنّ الأكثر حاجة إلى الدّعاء من غيرهم في هذه اللّيلة ـ ليلة القدر ـ هم الكفّار والمشركون، لأنّ عذاباً أبديّاً ينتظرهم ولا يمكنهم الخلاص منه ما لم يصلحوا أمرهم؛ لذا فإنّهم الأكثر حاجة للدعاء بالهداية. فأخذت أدعو الله عزّ اسمه وأطلب منه أن يهديهم ويوفّقهم إلى الإسلام[١].

أقول: لقد كان السّيد ابن طاووس رحمه الله رفيع المنزلة جليل القدر، حتى إنّ بعض المسائل والأحكام التي نقلها عن جدّه ورّام بن أبي فراس رحمه الله[٢] والتي لم يذكرها غيرهما من العلماء والفقهاء الإمامية، تُعدّ بمثابة الدليل الشرعي رغم عدم وجود رواية شريفة في ذلك؛ وذلك لمستوى الرّضا والقبول لهما من قبل العلماء[٣].

وقد روي أنّ مشركي مكّة آذوا النبيّ الأكرم صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ذات يوم حيث رَموه بالحجارة وأصيب بجراحات عديدة، فتوجّه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إثر ذلك إلى الله سبحانه وتعالى بالدّعاء قائلاً: «**اللهم اهدِ قومي فإنّهم لا يعلمون**»[٤]، فهو فضلًا عن دعائه لهم بالهداية يطلب العذر لهم بقوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «فإنّهم لا يعلمون».

وليس من المعلوم أنّه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أراد بجهلهم: الجهل الواقعي، فلربما قصد التجاهل العمدي، كما يوحي بذلك قول الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[٥]. حيث فسّرت «لا يعلمون» بالسَّفه لا الجهل القصوري أو المركّب، لأنّهم كانوا يعرفون أنّهم على باطل مع ذلك كانوا يصرُّون على باطلهم، وقد عبّر القُرآن الكَريم وبعض الرّوايات عن السَّفه بالجهل.

---

(١) راجع إقبال الأعمال، ص٢١٢ـ٢١٣.

(٢) ورّام بن أبي فراس توفيّ في عام (٦٠٥هـ) فقيه ومحدّث إمامي. ينتهي نسبه إلى مالك الأشتر النخعي رحمه اللّه، وجدّ السّيد ابن طاووس لأمّه. له كتاب تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف بمجموعة ورّام. راجع ريحانة الأدب: ج٦ ص٣١٣ـ٣١٤.

(٣) وكمثال انظر العروة الوثقى للفقيه المقدّم السّيد محمّد كاظم الطباطبائي اليزدي، فصل المستحبات قبل الدّفن وحينه وبعده، السادس والعشرون.

(٤) بحار الأنوار: ج١١ ص٢٩٨.

(٥) سورة النمل، الآية: ١٤.

وربما كان المراد بالجهل: وصف العمل دون الفرد، كما في قضية إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما ظلموه، فقال لهم: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾[1].

المجاملة في العمل

لا يخفى أنّ المجاملة بالنيّة لا تحتاج إلى كثير معاناة وتحمّل لأنّها أمر نفسانيّ، وإنما المجاملة بالقول والعمل تتطلّب التحمّل، وفيها يُتوقّع من المؤمنين أن يصبروا ويصابروا إزاء سوء سيرة أهل الباطل، فيردّوا إساءاتهم بالمجاملة وتحمّل الضّيم.

فمن أصعب أنواع المجاملة هي المجاملة العمليّة، وفي هذه المرحلة يُنتظر من المؤمن أن يلبّي حاجات الآخرين ولو كانوا أعداءه وممّن يخلقون له المشاكل، وهي مهمّة صعبة تتطلّب الاستعداد النّفسي والرّوحي الكبيرين.

وقد نجح عظماء ديننا الإسلامي - وفي مقدّمتهم الرّسول الأكرم والأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - في هداية الآخرين بهذا الأسلوب الطيّب.

فقد روي أنّ شخصاً ذكر اسم والدة الإمام محمّد الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ بكلام بذيء - ولا شكّ أنّ ذلك لو كان يحدث لغير الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ لكان سبباً في إراقة الدماء، وكم من صراع دمويّ حدث في تاريخ البشرية بسبب ذلك؟ ولكنّ الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ ردّ عليه بكلٍّ حكمةٍ ولينٍ ولم يردّ على إهانته بمثلها، فندم الرّجل وكانت عاقبته الهداية[2].

أليس من المؤسف أن يؤول أمر مثل هذا الرّجل إلى جهنّم؟ وكم كان مؤسفاً لو كان مصير الحرّ بن يزيد الرّياحي[3] ينتهي إلى العذاب والانتقام الأبديّين؟!

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٩.

(٢) راجع مناقب آل أبي طالب: ج٣، ص٣٣٧.

(٣) الحرّ بن يزيد الرّياحي نسبه يعود إلى رياح بن يربوع بطن من تميم، من الشهداء يوم عاشوراء بين يدي الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا ذكر له في المصادر قبل أن يوليه الحسن بن نمير رجل عبيد الله بن زياد على ألف، ويأمره بأن يستقبل الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ القادم إلى الكوفة ويحول بينه وبين دخولها عدا إشارة إلى أنّه كان من رؤساء أهل الكوفة ورئاسة قبلية =

وكما عن بعض العلماء أنّه قال: لقد أثبت الحرّ بن يزيد الرّياحي للعالم والتّاريخ قدرة الإنسان على التغيير النّفسي والعقيدي حتى في اللّحظة الأخيرة، فأصبح بذلك حجَّة على الذين يبرّرون تقاعسهم عن التّوبة.

فلم يكن الحرّ شخصاً عاديّاً، بل كان يحظى بالاحترام الكبير من قبل حاكم الكوفة، وكان رجلاً ثريّاً له منزلته الاجتماعية المرموقة، ولكنّه في لحظة ما قرّر الانتقال إلى شاطىء الحقّ، ولو كان غير الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ يطلب الحرّ منه العذر والصفح، فماذا كان ردّه؟ فلعلّه كان يقول له: الآن تعتذر وتتوب وقد صنعتَ ما صنعتَ وقضي الأمر؟ فما هذه التّوبة التي جئت تتحدّث عنها؟ وما هي فائدة التّوبة بعدما سبّبتَه من المصيبة لآل الرّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؟

إلّا أنّ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ استقبله وخاطبه قائلاً: **ارفع رأسك يا شيخ**.

ولو لم يتب الحرّ ـ مع الأخذ بنظر الاعتبار تسبّبه المباشر في محاصرة جيش يزيد لأهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ـ لكان وزره الأثقل بين أفراد الجيش الأموي.

ومن هذه الواقعة نستنتج ضرورة إعادة النّظر في مواقفنا تجاه سلوك أهل الباطل معنا، وأن نفكّر بموضوعيّة إزاء مواقفهم؛ ونبذل ما بوسعنا لقيادتهم إلى النّور والحقّ والبصيرة.

= حيث كان شريفاً في قومه. التقى بركب الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ مسافة من القادسية، وصرّح له بما أُمر به، ولكنّه عندما حضرت الصّلاة صلّى بصلاته، أي مأموماً، قال له وقد منعه من السير باتجاه الكوفة: ثكلتك أمك ما تريد؟ فأجابه الحر: ما لي إلى ذكر أمك من سبيل إلّا بأحسن ما يُقدر عليه. ظل يساير الإمام بعسكره تحت مراقبة دقيقة من ابن زياد حتى أوصله إلى أرض كربلاء، ولما اجتمعت العساكر في كربلاء جعل عمر بن سعد على كل ربع من الأرباع أميراً، وكان الحر على ربع همدان وتميم. لما تيقن نيّة القوم قتل الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ خيّر نفسه بين الجنة والنار واختار الجنة، فتقدم نحو الإمام وأعلن توبته عمّا سلف ثم قاتل حتى قتل، حُمل إلى الإمام وبه رمق، فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: أنت الحرُّ كما سمَّتك أمك، حرّ في الدّنيا، وسعيد في الآخرة. راجع رجال الطوسي، ص٧٣.

ما دخلت المسجد إلّا لأدعو لك

نُقل في مجموعة ورّام بن أبي فراس رحمه الله واقعة عن مالك الأشتر[١] النخعي رضوان الله عليه مفادها: أنّ مالكاً ـ وهو قائد لجيش أكبر دولة على وجه الأرض آنذاك ـ مرّ ذات يوم في إحدى طرق الكوفة، وكان يلبس قميصاً من ليف ويعتمر بما بقي من قطعة القميص. فأراد أحد الواقفين على قارعة الطريق أن يرفّه عن أصدقائه ويضحكهم، فرمى مالكاً بنواة تمرة أو قشرة بندقة! فأحسّ مالك بذلك ولكنّه لم يعبأ به وواصل مشيه. وبعد انصرافه قال النّاس للرّجل: هل عرفت الذي رميته؟ فقال: لا. فقيل له: إنه قائد جيش المسلمين واليد اليمنى لأمير المؤمنين عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالويل لك ممّا صنعت وانتهكت! فبهت الرّجل لما سمع واضطرب لذلك أيّما اضطراب، فلحق بمالك فوجده في المسجد قائماً يصلّي، فوقف ينتظره، وما إن فرغ مالك من صلاته حتى هوى الرّجل على قدميه يسأله الصفح، وإذا بمالك يقول له: والله ما دخلت المسجد إلّا لكي أستغفر لك[٢].

وهنا ينبغي الالتفات إلى أنّ مالك الأشتر رضوان الله عليه هو قائد جيش الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ومع ذلك يمشي في الطّرقات والأسواق مرتدياً أبسط الثّياب ويقضي حاجات النّاس ويردّ على إساءات المسيئين بالإحسان، ويضرب أروع الأمثلة في المجاملة بالعمل.

وفي الوقت نفسه كان قائد جيش معاويَة يرزح في حلل الديباج والذهب، ويضطرّ آلاف بل عشرات الآلاف من النّاس إلى تعظيمه والرّكوع بين يديه وهم يعون طبيعته الباطلة، كما كانوا يحذرون سطوته إذا ما تسبّبوا له بأدنى درجات الإزعاج.

ولو كان غير مالك يواجه ذلك الموقف لاتّخذ موقفاً صارماً إزاء تلك الإهانة،

---

(١) مالك بن الحارث الأشتر النخعي جليل القدر، حاله أشهر من أن ينبّه عليها، لما بلغ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ موته تأوّه حزيناً وقال: رحم اللّه مالكاً، وما مالك عزّ عليّ هالكاً، ولو كان صخراً لكان صلداً، ولو كان جبلاً لكان فنداً. ويكفيه شرفاً قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ فيه: لقد كان لي كما كنت لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله.

(٢) تنبيه الخواطر: ص١٠.

ولتذرّع ـ على أقلّ تقدير ـ بضرورة تربية أفراد المجتمع وعدم تركهم هكذا ـ وضرورة تطبيق العدالة والاقتصاص وردّ الاعتداء بمثله مدّعياً أنّ من يتجاسر اليوم على مالك قد يتجاسر غداً على أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ!

ولكن مثل هذا النهج في التفكير لا يشاهَد إلّا في سيرة معاويَة وعمرو بن العاص، ولا ريب أنّ الأصل في معالجة مثل هذا الموقف هو أن يجامَل الجاهلون.

نعم، هناك بعض الموارد القليلة مستثناة من ذلك ينبغي التقيّد بها بأوامر وتعاليم أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أيضاً.

لنتعلّم من مالك الأشتر

نقل المؤرّخون: أنّ مالك الأشتر رضوان الله عليه ـ رجل الزّهد والجهاد والتّقوى ـ بالرّغم من أنّه كان بطلاً مقداماً ولكنّه لم يجد بدّاً من مجاملة أهل الباطل.

ولذا ينبغي للشّيعة اليوم تعريف هذه الشّخصية العظيمة التي تكاملت في مدرسة أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلى جميع شعوب العالم والاعتزاز بها.

فقد كان مالك قائداً لحكومة تمتدّ مساحتها من حدود الصّين إلى المغرب الإسلامي وقلب إفريقيا وآسيا الوسطى، أي: ما يعادل خمسين بلداً من البلدان المعاصرة منها إيران والعراق ومصر والحجاز.

قائد بمثل هذه القوّة العالميّة يردّ الإساءة بالإحسان، وينظر إلى مهمّته التّاريخية والدّينيّة في هداية النّاس إلى الخير بموضوعيّة تامّة ووعيٍ متكاملٍ؛ ولذا كان مالك بطل الرّوح والوعي قبل أن يكون بطل السّيف والقتال.

وهذا السلوك هو الذي ينبغي أن نتّخذه قدوة، وما لم نفعل ذلك لن نحقّق شيئاً من مسؤولياتنا العظيمة تجاه المجتمع الإنساني.

الطريق إلى التّقوى

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**فاتقوا الله وكفّوا ألسنتكم إلّا من خير**».

التّقوى مأخوذة من «الوقاية» بمعنى التزام الحيطة والحذر.

فمن يمشي في طريق سهلة لا يحتاج إلى الاحتياط والحذر، أمّا من يمشي في طريق وعرة، أو يقود سيارة في شارع مزدحم فيلزمه الاحتياط والوقاية، لأنّه لو غفل قليلاً لعرّض نفسه وغيره للمخاطر.

وكذا هو الطريق إلى الآخرة، فهو ليس بسهل، بل يحتاج إلى التّقوى، فإنّ الهدف من خلق البشر أن يصبحوا جلساء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في الآخرة، ولا شكّ أنّ هذا يتطلّب همّة عالية وحذراً واحتياطاً شديدين، علماً أنّ هذه الرفقة لا تتأتّى دون التحلّي بالتّقوى وترسيخ النواحي المعنوية في وجود الإنسان.

مصاعب التّقوى

التّقوى ـ كالاجتهاد ـ لها مراتبها الخاصّة، فإنّ الآلاف من أهل العلم يجهدون أنفسهم لنيل مرتبة الاجتهاد، إلّا أنّ القلّة القليلة منهم يحقّقون أهدافهم، والنزر اليسير من المجتهدين يبلغ مقام الأعلميّة، والله أعلم بعقبات وموانع الوصول إلى مرتبة الأعلميّة.

فإنّ الكثير ممّن سعوا حثيثاً في طريق العلم عجزوا عن تحقيق شروط الأعلميّة في أنفسهم، كما أنّ كثيراً من المجتهدين تمكّنوا من تخطّي العديد من موانع الأعلميّة سوى مانع واحد حال دون وصولهم إلى هذا المقام.

فقد يعزم الإنسان على أمر سنين طويلة ولكنّه يعجز عن تفعيل عزمه لأسباب معيّنة، وكمثال على ذلك: لو أشرنا بنقطة سوداء على ورقة بيضاء في كلّ مرة نفشل فيها عن تفعيل عزمنا خلال سنة، فإنّنا سنحصل ـ في نهاية المطاف ـ على ورقة سوداء.

على كل التّقوى كلمة يمكن التفوُّه بها أو كتابتها بسهولة، وهي قابلة للادّعاء، وتحقّق الجهل المركّب أو الغفلة فيها ومع ذلك فهي واقع...

فهي ـ كما ذكرنا ـ كالاجتهاد، فإنَّ الآلاف يعزمون على تحصيله ولكن كم هم الذين يقصدون الاجتهاد الواقعي؟

وكم من الذين يقصدون الاجتهاد الواقعي يتوجّهون إلى موانع وشرائط الاجتهاد؟

وكم من الذين يتوجّهون إلى شرائط وموانع الاجتهاد يعزمون على تحصيل الاجتهاد؟

وكم من الذين يعزمون على تحصيل الاجتهاد يواصلون الدرب حتى النهاية؟

فالكثير من النّاس يرغبون بتحقيق التّقوى في أنفسهم غير أنّ القليل منهم يسعون إلى ذلك، ومن هذه القلّة قلّة توفّق في الحصول عليها، لأنّ معظم الراغبين بالتّقوى والعازمين على تحصيلها يجهلون ـ عملياً ـ طبيعة الموانع والعقبات التي تقف في طريقهم، وما هي المشاكل التي ستواجههم.

إنّ تحصيل التّقوى ـ فضلاً عن ضرورة توفير العزم الجادّ والهمّة العالية والإرادة الصّلبة ـ يتطلّب التعرّف على أنواع الموانع والعقبات، والاستمداد من الله وأهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

بالطّبع التّوفيق الإلهي وألطاف أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بمثابة الإمضاء والعامل المكمّل لسائر شروط التّقوى، بل يمكن القول: إنّ كلّ شرط من شروط التّقوى بحاجة أساسية لتوفيق ربّاني وعناية المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ولا ريب أنّ التّوفيق الإلهي مرتبط إلى حدّ كبير بطبيعة التزامنا بالأوامر الإلهيّة، وإلّا ستتكاثر النّقاط السوداء في صحيفة أعمال الإنسان إلى أن يرى ضياع عمره، بل إنّ أعماله الصالحة ستحبط، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1].

(١) سورة الروم، الآية: ١٠.

التّوفيق في الأعمال

إنّ أمور الدّنيا قائمة على حسابات دقيقة جداً، ونظامها غاية في الإتقان، فالشّمس رغم كونها أكبر من جرم الأرض بآلاف المرات، ودرجة حرارتها تتجاوز العشرة آلاف درجة مئويّة، إلّا أنّها لا تتأخر أو تتقدّم في طلوعها أو غروبها ثانية واحدة، قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾[1]. ورغم هذه العظمة والدّقة في نظم الوجود، إلّا أنّه ورد في الحديث: «**إنّ الدّنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة**»[2] وفي العبارة بلاغة واضحة حيث لم يقل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: جناحي بعوضة، لأنّ الجناحين ينفعان البعوضة لطيرانها، فإنّ الدّنيا لا قيمة لها عند الله بمقدار جناح واحد من جناحَيِ البعوضة؛ لأنّه لوحده لن ينفعها في طيرانها.

والسؤال هنا: إذا كان الله عزّ وجلّ خلق الوجود ووضع له كلّ هذا النظام وهذه الدّقة، هل يعقل أنّه لا يكون دقيقاً في حساباته في الدار الآخرة التي هي المحطّة النّهائية وخاتمة أهداف الوجود؟!

ومن يتأمّل ويتدبّر قول الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾[3]، ويطالع التفاسير ـ يدرك جيداً أنّ النّاس سيصابون بالحيرة والدّهشة عندما يردون الآخرة ويرون الدّقة في قوانينها، إذ لم يكن في حسبانهم أنّ الحساب على أعمالهم سيكون بهذه الدّقة.

فإنّ في الآخرة حساباً على حلال الدّنيا فضلاً عن حرامها، فالله جلّ ثناؤه أحلّ الاستفادة من بعض الأشياء في الدّنيا، ولكن ذلك لا يعني أنّها ستكون بلا حساب أو كتاب في يوم القيامة، وإنّما: «في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب..» بالطّبع المحاسبة لا تعني بالضرورة الأذى والعذاب، وإنما يفرض على الإنسان أن يجيب عن مسائل الحلال في الآخرة بدقّة.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ١٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٩ ص١٤٨.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

وقد أوصى الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأولياء الله تعالى بالخوف والحذر من عدل الله فهو لا يظلم أحداً أبداً ـ ولكن إذا ما ظهر عدله فلا يصمد أمامه أحد.

وليس هناك وسيلة لحصول الإنسان على الأمن في الآخرة والخلاص من عذابها سوى التّقوى.

ولحقيقة التّقوى آلاف الدّرجات كلّ واحدة منها تتفاوت عن غيرها من وجوه عديدة.. فهي كالسيارة التي يراد لها أن تتحرك، فينبغي أن تجتمع مئات الشروط وتتصل مئات الأجزاء فيما بينها لتتمكن من الحركة والانطلاق...

ومن الممكن أن تصاب آلاف المركبات بالعطل، ولكلّ منها سبب معيّن... فإذا كانت السيارة بحاجة إلى كلّ هذه الشروط لتتحرك وتنطلق، فما بالك بالتّقوى التي تنتهي بالإنسان إلى مجالسة أمير المؤمنين والأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في جنان الخلد؟

يقول الإمام الهادي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**الدّنيا سوق، ربح فيها قوم وخسر آخرون**»(١).

فمن يستشير أهل الخبرة في صفقاتهم التّجارية يكون أقلّ عرضة للخسارة وأكثر توقّعاً للربح، فينبغي في سوق الآخرة الإصغاء إلى وصايا الأنبياء والأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فهم الأكثر علماً بشؤونها، كما أنّهم القدوة الأرقى لئلّا نصاب بالخسران. بالطّبع هناك استثناءات أيضاً وهي أيضاً وفق محاسبات دقيقة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾(٢).

فالبعض ينال الوجاهة عند الله عزّ وجلّ جرّاء دعوة مستجابة من أب أو أمّ أو جدّ أو قريب له، أو يبلغ مرتبة سامية ببركة عمل صالح من بعض أرحامه، فينتقل أثره إلى ذرّيته.. ولكن هذه الاستثناءات على خلاف القانون الإلهي الذي نصّ عليه الباري تعالى في قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(٣).

(١) بحار الأنوار: ج٧٥ ص٣٦٦.
(٢) سورة الطور، الآية: ٢١.
(٣) سورة النجم، الآية: ٣٩.

الوقاية من المعاصي

نقل الشّيخ عباس القمّي رحمه الله[١] في (مفاتيح الجنان) زيارة الإمام الهادي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لجدّه أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في عيد الغدير ـ وهي من حيث الحجم أكبر من دعاء كميل، وتعتبر كدائرة معارف خاصّة بسيّد الأوصياء عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ وقد وصف الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيها دور التّقوى في الوقاية من فعل المعاصي، فقال:

«قد يرى الحُوَّلُ القُلَّب وجهَ الحيلة ودونها حاجز من تقوى الله، فيدَعَها رأيَ العينِ، وينتهزُ فرصتَها مَنْ لا حريجةَ له في الدّين»[٢].

وعبارة: «الحُوَّلُ القُلَّب» اصطلاح عربيّ خاصّ، وغالباً ما تستعمل فيه الكلمتان معاً.

أمّا كلمة: «حُوَّل» فهي من الحول، أي: الحيلة وطريقة الخلاص والمخرج، وتستعمل كلمة: «قُلّب» فيمن يجد لكل عُقدة حلّاً، كما تطلق على الخبير في تقلّب الأمور والأحوال.

فإنّ بعض الأذكياء يجدون لكل أمر معقَّد حيلةً ومخرجاً، ولكن تعوقهم دون ذلك التّقوى التي يستشعرونها في قلوبهم، ومنهم من يتحيّن الفرص ليرتكب ما شاء من الموبقات والمعاصي، ولا يجد في نفسه حرجاً من ذلك، بل إنّ نفسه الأمارة بالسوء تدفعه إلى خوض المعاصي وارتكاب الذنوب.

والإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يشير إلى أنّ البعض يعرف كيف يخدع النّاس ـ مثلاً ـ ولكن خوفه من الله تعالى وشديد عقابه، يقف كالجدار في وجهه ويمنعه عن ارتكاب

(١) الشّيخ عباس القمّي بن محمد رضا المعروف بالمحدث القمّي (ت١٣٥٩ق) من تلامذة الميرزا حسين النّوري وملازميه. له مؤلفات قيمة عديدة، مثل (بيت الأحزان في مصائب سيدة النسوان) و(سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار) و(الكنى والألقاب) و(منازل الآخرة) و(منتهى الآمال في مصائب النبيّ والآل) و(مفاتيح الجنان). راجع ريحانة الأدب: ج٤ ص٤٨٧ ـ ٤٨٨.

(٢) زيارة أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المخصوصة في يوم عيد الغدير المبارك، بحار الأنوار ج ٩٧، طبع مؤسسة الوفاء بيروت - لبنان.

المعصية. وأمثال هؤلاء يعون جيداً كيفية تحقيق مقاصدهم الدّنيويّة والشهوانيّة، إلّا أنّ خوفهم وحذرهم وتحسّبهم من العدل الإلهي يحول بينهم وبين الانزلاق والضّياع.

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**فيدَعَها رأيَ العين**» أي: تقوى بصيرته ويرى ما يفوته من المصالح الدّنيويّة بالعين المجرّدة، لكن: «ينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدّين» فالذي يفتقر إلى (العاصم) ويعوزه (التعبّد في دين الله) لا يجد حرجاً في تحقيق شهواته ومصالحه الدّنيويّة الباطلة وإن كان ذلك من خلال المعاصي وانتهاك حُرَمِ الله تعالى.

ولعلَّ خير مثال على ذلك أنّ الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يرفض الخلافة المشروطة[1] بينما يجهد عثمان بن عفان نفسه عناءً لتسنّمها، متصوّراً أنّه سيكون الفائز في واقعة الشّورى.. فأصبح مصداقاً للمخدوع بألاعيب الدّنيا والمتّخذ الدّين وسيلة لتحقيق أهدافه الدّنيويّة.

دروس في التّقوى

ينبغي استلهام معاني التّقوى من أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو اللّائق الوحيد بإمامة المسلمين وخلافتهم، ومع ذلك فقد استُبعد عنها طيلة خمسة وعشرين عاماً، لرفضه التخلّي عن تقوى الله تعالى ولو للحظة واحدة.

فلما قال له عبد الرحمن بن عوف: «أبايعك على كتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الشّيخين»[2] رفض عَلَيْهِ السَّلَامُ ولم يلجأ إلى الحيلة كما فعل عثمان، بل صرّح قائلًا: «**بل على كتاب الله وسنّة رسوله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ **واجتهاد رأيي**»[3].

---

(١) في واقعة (الشّورى) التي شكلت بأمر من عمر، تم عرض الخلافة على أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بشرط العمل بكتاب اللّه وسنة النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وسيرة أبي بكر وعمر، ولكنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ رفض الشرط الأخير رفضاً قاطعاً، مؤكداً قبوله العمل بكتاب اللّه وسنة النبيّ وما يراه هو، باعتباره إماماً شرعيّاً لا يمكنه الوقوع في الباطل والتخبط في الأخطاء.

(٢) بحار الأنوار: ج٣١ ص٣٩٨.

(٣) المصدر نفسه.

وقد أثبت أَمير المؤمنين عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ بهذه الكلمات البليغة موقفه وهو: أنّه أكبر وأعلى من أن تجرّه المصالح الدّنيويّة الباطلة للتخلّي عن الحقّ.

ومن هوان الدّنيا أنه عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ انكفأ على الزّراعة وحفر الآبار طيلة خمس وعشرين سنة رغم أحقيّته بالقيادة ـ باعتراف العدوّ قبل الصّديق ـ ولو كانت الدّنيا تعدل شيئاً عند الله تعالى لما عاش أَمير المؤمنين عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ ـ ومن قبله من الأنبياء والرّسل ـ ومن بعده الأئمّة عَلَيْهِمُ‌ٱلسَّلَامُ والأولياء على النّحو المعروف من صعوبة العيش وتحمّل الآلام.

فقد نقل في سيرته عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ أنّه ما كان يتناول اللّحم إلّا مرّة واحدة في السّنة، وذلك في يوم عيد الأضحى فقط[1]، إذ من المفترض على قائد المسلمين أن تتساوى معيشته مع أضعف المسلمين حالاً، وحيث كان جميع النّاس يتناولون اللّحم في عيد الأضحى، فإنه كان يسمح لنفسه بذلك.

ونقل أنّ أَمير المؤمنين عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ دخل بيته ذات يوم فبلغ مشامّه رائحة كبد مشويّ، فتعجّب وسأل عن ذلك، فقيل له: إنّ أرحام إحدى زوجاته نحروا بعيراً وأهدوا لها قدراً من اللّحم والكبد، فقال عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ: «**هنيئاً لها**»..[2].

فمن أراد النّظر إلى التّقوى الحقيقيّة فلينظر إلى الإمام عليّ عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ ـ ميزان الأعمال ـ فهو وإن ألزم نفسه باجتناب اللّحم إلّا مرة واحدة في السّنة ولكنّه لم يفرض ذلك على أقرب النّاس إليه وهي زوجته ـ مع أنّها لو كانت قد اقتدت به لأتت أمراً محموداً ـ ولكنّه عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ لم يأمرها بذلك أو يضغط عليها على وجه الخصوص، وإنّما اكتفى بالقول: هنيئاً لها.. ونقل أنّ زوجته لم تصب بمرض بعد قول أَمير المؤمنين عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ طيلة حياتها، بل إنّها لم تصب حتى بوجع الرأس ببركة دعائه عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ.

---

(١) السبيل إلى إنهاض المسلمين، ص٣٣٨.

(٢) بحار الأنوار ج٤٠: ص١٠٨. وفي بقيّة الحديث الشّريف أنّ تلك المرأة لم تشتك ألماً إلاّ شكوى الموت.

من لوازم التّقوى

التحلّي بالتّقوى بحاجة إلى التعلّم والوعي وإلّا لسقط الإنسان في مطبّات عديدة، كأن يمارس الموبقة متخيّلاً أنّها الصّلاح، أو يهجر الصّلاح ظانّاً أنّه الموبقة، ولكن إن وضع نصب عينيه سيرة أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ووعى ممارساتهم، تسنّى له تجنّب الشبهات.

نُقل عن أحد العلماء الزاهدين أنّه كان يعيش عيشة زاهدة ملؤها التّقوى، وكانت سيرته مع أهل بيته أن يقتصر على توجيه النّصائح في بعض الأوقات، ولم يكن يصرّ عليهم بالالتزام بغير الواجبات والفرائض الإلهيّة. وهذا الأمر بحدّ ذاته يجسّد حكماً شرعيّاً ينبغي لعوامّ النّاس الالتزام به وإن لم يذكر ضمن الأحكام الشرعية في الرّسائل العمليّة.

وكان أحد الأشخاص ملتزماً بالصوم المستحبّ ويلزم أولاده بذلك، ولكنّهم لم يكونوا يصغون له، فقلت له: لا يجوز لك ذلك، لأنّه ليس لأحد أن يوجب ما لم يوجبه الله تعالى، فلا يحقّ لأحد أن يجبر أولاده على صلاة اللّيل أو الغفيلة أو الصوم المستحبّ، بل ليس له أن يوبّخهم على ترك ذلك أو أن يزعجهم.

من آثار التّقوى

روي عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**وجَعَلَ لكل شيءٍ حدّاً، وجَعَلَ عليه دليلاً يدلّ عليه، وجعل على من تعدّى ذلك الحدّ حدّاً**»[1].

إنّ دين الإسلام على مستوًى من النّظم والدّقة بحيث يفرض على الجلّاد الذي يجري الحدّ أن يجلد بالصورة المشروعة دون غيرها، وإلّا لو زاد جلدة لاقتص الحاكم الشرعي منه على ما تعدّى.

وقد نُقل أنّ السّيد حسين القمّي رحمه الله كان يسافر كل يوم من كربلاء المقدّسة إلى النّجف الأشرف لزيارة أَمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذات يوم التقاه الشّيخ محمّد

(١) الكافي: ج١ ص٥٩.

الخراساني رحمه الله -وهو من الخطباء المنبريين المعروفين آنذاك وكان أكبر سنّاً من السّيد القمّي رحمه الله- في الصحن العلوي المقدّس، فقال له دون أن يقصد بذلك شيئاً من الإهانة: إنّ واجبك أن تجلس للنّاس وتربّي الطّلبة لا أن تأتي إلى النّجف كل يوم، فأكّد له السّيد القمّي رحمه الله امتثاله للأمر... نعم ليست التّقوى إلّا مراعاة الحدود والوظائف.

نِعم لا تحصى

من ألطاف الله عزّ وجلّ على الشّيعة وفضائله عليهم أن منّ عليهم بنعمة الإيمان، لذا ينبغي لهم في مقابل ذلك أن يجهدوا أنفسهم لمحاربة الشّيطان في كلّ يوم. كما أنّ لله سبحانه وتعالى المنّة الكبرى على الشّيعة أن أنعم عليهم بنعمة الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهم النّور الوهّاج ومشعل الهداية، فيما انشغل الآخرون بالخرافات.

وسيرد (الشّيعة) في يوم ما[1] كضيوف على أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عند حوض الكوثر، وهذه لعمري من أكبر النّعم الرّبانية.. نعمة لو كانت الأشجار أقلاماً والبحار مداداً والجنّ والإنس كتّاباً على أن يحصوا فضائلها ما استطاعوا ذلك، بينما يفتقر أتباع سائر الأديان الأخرى إلى واحد بالألف ممّا لدى الشّيعة.

خرافات يهودية

ورد في التّوراة ـ التي بين أيدي اليهود ـ حول النبيّ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوجته حواء ما يلي:

إنّ الله عزّ وجلّ أدخلهما الجنة، وقال لهما: تنعّما بنعم الجنة كلّها إلّا شجرة،

(١) طالما أوضح الأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ المراد بالشيعي، فأكدوا أن شيعتهم الملتزمون بتعاليم القُرآن الكَريم وأنّ شيعتهم المتقون، أي إنّ هذه المفردة لها من المكانة الأرفع ما يجعل المتسمين بها حقاً أهلاً لأفضل الثّواب الأخروي.

أمرهما بتجنّبها، وقال: لو أكلتما منها تموتان موتاً ـ وموتاً كما في علم النحو مفعول مطلق وهو إمّا للتأكيد أو الفوريّة ـ وموتاً هنا للفوريّة.

فامتنعا عنها في البداية، ثم جاءهما الشّيطان قائلاً: لمَ لا تأكلان من ثمرة هذه الشّجرة؟ فقالا: لأنّ الله قال ذلك. فقال: هل تعلمان لماذا منعكما الله عنها؟ فأجابا: لأنّ الله قال: إنّكما ستموتان موتاً إن أكلتما منها. فقال الشّيطان: ليس الأمر كذلك، فهذه الشّجرة شجرة المعرفة، والله لا يريد لكما المعرفة، فمنعكما عنها، فأنتما الآن عراة ولكنكما لا تدركان ذلك لأنّه لا معرفة لكما، فإذا أكلتما من ثمرة الشّجرة ستعرفان، فأكلا منها ثم نظرا إلى بعضهما، وقالا: لماذا نحن هكذا، ولماذا عوراتنا بادية؟ فحصلت لهما المعرفة. فقال لهما الله: حيث أكلتما من ثمرة الشّجرة فليس لكما البقاء في الجنة[1].

ومعنى ذلك أنّ الله تعالى قد كذب على آدم وحواء والعياذ بالله، وأنّ الشّيطان هو الصّادق، إذ إنّ الله لم يرد لهما أن يعرفا بأنّ التعرّي عيبٌ، ولم يرد لهما المعرفة والعلم، ولكن الشّيطان عرّفهما الحقيقة، وللأسف أضحى هذا الحديث وأمثال هذه البدع ديناً من الأديان.

والأمر نفسه جارٍ على القضايا الأخرويّة، فمن كان يتحمّل مسؤوليّة نفسه فقط ويسير باتّجاه الآخرة، فهو كالسّائر على قدميه بأمان، بينما الذي يتحمّل مسؤوليّة الآخرين فضلاً عن مسؤوليّة نفسه يلزمه ـ بلا شكّ ـ أخذ جانب الحيطة والحذر والتحلّي بالتّقوى أكثر من غيره.

التزام الصّمت

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «... **وعليكم بالصّمت إلّا فيما ينفعكم الله به من أمر آخرتكم ويأجركم عليه**».

(١) راجع الرحلة المدرسية: ج١ ص٢١.

أمر الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ شيعته أن يلزموا الصّمت، فلا يتكلّموا إلّا بما يعود بالنّفع لآخرتهم، أي: أن ينظروا إلى مصالحهم الدّنيويّة ضمن إطار الآخرة، ولا ريب أنّ الالتزام بذلك في غاية الصّعوبة ولكنّه ليس مستحيلاً، وفيه فوائد جمّة، بالطّبع الالتزام بالصّمت ليس وليد اللّحظة بل هو أمر تدريجي ويحتاج إلى كثير من الدّعاء والتّصميم والاستقامة ومحاسبة النّفس، فما أكثر ما يخرج من فم الإنسان من الكلام، ثم يلتفت إلى عدم فائدته.

وقد أوصى الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ الشّيعة أن يلتزموا الصّمت إلّا عمّا يعود عليهم بالنّفع والأجر والثّواب، وذلك يشمل الفوائد الدّنيويّة إذ ينبغي للإنسان أن ينظر إليها في إطار المنفعة الأخرويّة.

أقسام الأمور الأخرويّة

تنقسم الأمور الأخرويّة إلى قسمين:

١ـ أمور لها علاقة مباشرة بالآخرة كالصّلاة.

٢ـ أمور علاقتها بالآخرة غير مباشرة لارتباطها بأمور الدّنيا قبل صلتها بالآخرة، ومثال ذلك ما ورد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال: «**المؤمن يأكل بشهوة أهله، والمنافق يأكل أهله بشهوته**»[1].

ولذا أصبح من أخلاق المؤمن وأدبه الاجتماعي أنّه لا يفرض على أهله نوع الطعام الذي يتناولونه، فلا يأمرهم أو ينهاهم فيما يخص الطعام، وعلى العكس من ذلك أخلاق المنافقين والكفار..

بالطّبع كلمة «أهل» تطلق لغةً على من يعيلهم الرّجل كالزّوجة والأطفال، وكذا أقارب الرّجل وأرحامه كالأب والأم والأخ والأخت حتى ابن العم وابن الخال.

(١) الكافي: ج٤ ص١٢.

وقد نُقل أنّ هارون العباسي سأل الإمام الكاظم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذات يوم فقال: يا أبا الحسن ما عليكَ من العيال؟ فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: يزيدون على الخمسمائة[1]. وكان عدد زوجاته وأولاده عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أقل من ذلك بكثير جداً، ولكنّه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ضمّ إليهم العديد من أقاربه وخدمه.

وأمّا كلمة «شهوة» فهي لا تقتصر على الغريزة الجنسية فحسب، وإنّما هي تعبير عن رغبات النّفس كما هو المعروف في اللّغة العربيّة.. وقد ورد في الخبر: «من أكل التمر على شهوة رسول الله إيّاه؛ لم يضره»[2] فالشّهوة هنا بمعنى الاشتهاء وحبّ الشيء.

وعلى أيّة حال؛ ينبغي للمؤمن أن يأكل وفق رغبة أهله.. وهذا النوع من الأكل له ثوابه الخاصّ، وما أروع أن يتناول المرء طعامه فيتقوّى به من ناحية، ويكتب له الثّواب في صحيفة أعماله.

مواضع الصّمت والتكلّم

يمكن القول: بأنّ الكلام أجدى الوسائل لتحديد شخصيّة الإنسان وإظهار رغباته، ولكن لا بد من استثمار هذه القوّة بالطريقة المناسبة وفي الموقع المناسب.

أمّا السّكوت ـ وبغض النّظر عن الطبيعة الزمانيّة والمكانيّة ـ فهو أمر محمود، نعم في بعض المواقع يصبح التكلّم واجباً ويرجّح على السّكوت، كأن يحضر المرء مجمعاً علمياً وهو يحسن بعض القضايا العلميّة، فيلزمه الكلام لتعمّ الفائدة الآخرين.. وكذا بالنّسبة للأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، حيث يكون التكلّم فرضاً لازماً؛ لأنّ في كثير من المناسبات لا يتحقّق الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر إلّا بالكلام، آنذاك لا يكون الحديث واجباً فحسب بل إنّ الصّمت حينها يعد خطيئة..

(١) راجع بحار الأنوار: ج٤٨ ص١٣٠.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٣ ص١٤٠.

وفي بعض الأحيان يكون السّكوت واجباً، كأن يطلب الظالم إرشاده إلى مظلوم مع العلم أنّه سيظلمه، فلا شكّ أنّ التكليف الشرعي حينذاك يقتضي اختيار السّكوت، لمنع وقوع الظلم، ولئلا يكون المكلّف شريكاً في الظلم.

ابن أبي عُمير قدوة

من حواريي الإمام موسى بن جعفر عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ وكبار محدّثي الإمامية هو ابن أبي عُمير، وقد لاقى هذا الصّحابي الجليل ما لا يوصف من التّعذيب في سجون هارون العباسي حيث سجنه مدّة سبعة عشر عاماً، وصودرت جميع أمواله.. لأنّه لم يبح بأسماء أصحاب الإمام الكاظم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ومعرفته الكاملة بأنّ السلطة العباسية ستقتل كل من سيتفوّه باسمه.

يقول ابن أبي عُمير: ضاق بي الأمر ذات يوم لما تعرّضت له من التّعذيب وكدت أن أفشي بأسماء من أعرفهم من الشّيعة، فرأيت محمّد بن يونس بن عبد الرحمن[1] فجأة وهو يحذرّني ويذكّرني قائلاً: «يا محمّد بن أبي عمير! أُذكر موقفك بين يدي الله..» فزادني ذلك عزماً ولم أستجب لمطالب بني العباس[2].

وبالفعل فقد تحمّل ابن أبي عُمير الآلام الجسيمة ولم يبح باسم أحد من الشّيعة...[3].

وبالرّغم من أنّ السّكوت بذاته أمر محمود، ولكن الحكم يختلف فيما لو طرأ طارئ، حيث يتحوّل الصّمت في بعض الأحيان إلى أمر حرام، أمّا في غير ذلك فإنّ الصّمت مطلوب وممدوح.

وهذا يدل على ضرورة عدم إهدار أيّة فرصة فيما لا ينفع في الآخرة، بالطّبع عادة

(١) اختيار معرفة الرّجال: ص٥٩١ـ٥٩٢.

(٢) اختيار معرفة الرّجال، ج٢ ص٨٥٥.

(٣) فأصبح مصداقاً طيّباً للذين وصفهم اللّه تعالى بقوله الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ سورة فصلت، الآية: ٣٠. وعلى ذلك؛ فلعل ملكاً من الملائكة قد تنزّل عليه بأمر اللّه بصورة صاحبه محمد بن يونس بن عبد الرحمن، ليذكّره اللّه في الصبر والاستقامة..

ما تحبّب النّفس الكلام للإنسان وتحثّه على التحدث.. وهذه الشّهوة أقوى بكثير من الشّهوة الجنسيّة.

بل إنّ بعض المفكّرين أو العلماء يتطرّقون إلى مسألة من المسائل للتّفاخر وعرض المعلومات، فلا يحصّلون من ذلك ما يعادل جلب شعيرة من الثّواب، رغم ما يبذلونه من التّعب والجهد النّفسي.

التأمّل قبل الكلام

إنّ التأمّل قبل الكلام لا يأخذ من المتكلم وقتاً طويلاً، فقد يستغرق الأمر ثانية واحدة يتساءل فيها الإنسان مع نفسه بأنّ: ما سأقوله نافع لآخرتنا أم لا؟ وهذا ديدن علمائنا الأعلام الذين كانوا يفضّلون الصّمت في الكثير من المواقع رغم رغبتهم الباطنيّة المغايرة..

فقد نقل عن والد الشّيخ عباس القمّي رحمه الله أنّه ذهب إلى مسجد الإمام الحسن العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ في مدينة قمّ المقدسة، وكان أحد الوعّاظ يعظ الجالسين ويذكر لهم قصصاً من كتاب (منازل الآخرة) تأليف ولده الشّيخ عباس رحمه الله.. فقال الوالد للشيخ عباس ذات يوم: ما أجمل أحاديث الخطيب الفلاني في مسجد الإمام العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ، ليتك تعلّمت منه؟

فلم يرد الشّيخ عباس القمّي رحمه الله على والده بشيء بالرّغم من إصرار والده وحبّه الشّديد أن يتعلّم الشّيخ عباس رحمه الله من ذلك الكتاب.. ولم يقل له: إنّ الخطيب ينقل من كتابي (منازل الآخرة).

تقديم الموعظة على الصّمت

إنّ كبح جماح شهوة التكلّم أصعب من ضبط الشّهوة الجنسيّة، فاختيار السّكوت كما صنع الشّيخ عباس رحمه الله أشد عسراً من أن يكبح شاب أعزب شهوته إذا خلا بامرأة جميلة، وهذا الأمر قد ثبت بالتّجربة.

ومع ذلك لو دار الأمر بين لزوم الصّمت وتقديم الموعظة لقدّمت تقديم الموعظة، وكشاهد على ذلك أنّه ذكر في أحوال الشّيخ عباس القمّي رحمه الله- الذي كان يؤثر الصّمت في بعض الأحيان- أنّه كان يدعى في بعض الأحيان من قبل كبار العلماء والمراجع ليخطب ويعظ في بيوتهم، ومن جملة المراجع الذين كانوا يدعونه هو السّيد حسين القمّي رحمه الله حيث كان يستضيفه في بيته وذلك قبل أحداث منع الحجاب في إيران عام (١٩٣٦م) وقد تركت منزلة الشّيخ عباس رحمه الله السّامية الأثر الكبير على المستمعين..

وذات يوم نقل لي السّيد المرعشي النّجفي رحمه الله[١]: أنّه حضر مجلس الشّيخ عباس رحمه الله، وشاهد كيف كان الشّيخ عباس رحمه الله يخطب في أهل العلم وهم يبكون..

وفي الحديث عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**احسبوا كلامكم من أعمالكم**»[٢] أي: كما أنّ الطاعات والمعاصي تكتب في صحائف أعمالنا، كذا الأمر في صالح الحديث وسيّئه، فهما يكتبان في الصحائف لأنّهما من الأعمال.. وكما يكتب طالح الحديث ذنباً، فإنّ موعظة الآخرين تكتب حسنة، وفي الخبر الشّريف: «**الكلمة الطيّبة صدقة**»[٣]..

وقد كان الوالد رحمه الله يقول: حينما تريد القيام بعملٍ ما، تخيّل السّاعة التي يضعونك في القبر وتبقى وحيداً، فهل ستجزى خيراً على ذلك العمل أم لا؟

فإذا توقّعت منه خيراً فأدِّه وإلّا فلا..

وحقاً كانت هذه النّصيحة مفيدة لي للغاية في حياتي، كما كانت منشأ بركات كثيرة وخير عميم..

---

(١) السّيد شهاب الدّين المرعشي النّجفي (١٢٧٩ـ١٣٦٩ش) (١٣٢٣ـ١٤١١ق)، أصولي، فقيه، كان من مراجع التقليد في هذا العصر.

(٢) بحار الأنوار: ج١٠ ص٩٨.

(٣) وسائل الشّيعة: ج٥ ص٢٣٤.

الصّمت الممدوح

لا ينبغي التوهّم أنّ الدعوة إلى اختيار الصّمت تبرّر السّكوت غير المنطقي حملاً على فضيلة الصّمت.. لأنّ المؤمن مطالب بالتحدّث بحسن الكلام، كما هو مطالب بتقديم النّصح لأفراد أسرته، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[1] فمثل الزّوجة والأولاد ليسوا مراجع تقليد أو علماء متكاملين ليختار الإنسان السّكوت معهم.. بل ينبغي التحدث معهم بكل بساطة ووعي، والعمل على تعليمهم الأحكام والآداب والأخلاق الإسلامية بأساليب متنوعة وطرق متفاوتة، وقد ورد في الأثر: أنّ للمتكلّم مع عياله ثواب المسبّح..

وروي عن الإمام الباقر عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنّ من وصايا داود لسليمان قوله: «**النّدامة على طول الصّمت مرة واحدة خير من الندامة على كثرة الكلام مرات**»[2].

وقال رجل طاعن في السّن: تشاجرت مع زوجتي قبل خمسين عاماً، فقالت شيئاً، فرددت عليها بأفحش الكلام.. وبالرّغم من مضي مدّة طويلة على ذلك الشجار إلّا أنّها ما زالت تتذكره كلما انزعجت منّي ـ وقد لا تكون محقّة في ذلك ـ فترفع صوتها وتصيح بي قائلة: أنت الذي قلت ما قلت قبل خمسين عاماً..

وأضاف الرّجل قائلاً: ليتني لم أتفوّه بشيءٍ في ذلك اليوم!

فقد تلحق بالإنسان ندامة على صمته ولكنّها نادراً ما تحدث، قياساً مع ندامات التحدّث..

من بركات الصّمت

كان الشّيخ محمود العراقي رحمه الله[3] من أبرز تلامذة الشّيخ مرتضى الأنصاري

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٩.
(٢) وسائل الشّيعة: ج١٢ ص١٨٦.
(٣) الشّيخ محمود العراقي بن محمود، المعروف صاحب (القوامع) توفي عام (١٣١٠ق)، من أكابر =

رحمه الله[١]، وقد نقل في القسم الأخير من كتابه (دار السّلام) قصصاً عديدة في أحوال الفقهاء والعلماء بعضها منسوبة إلى الشّيخ الأنصاري رحمه الله والمـلّا أحمد النراقي رحمه الله.

ومن القصص التي قد لا تكون مرتبطة بالبحث ارتباطاً مباشراً، إلّا أنّها جديرة بالاطّلاع عليها ما نُقل عن الميرزا القمّي رحمه الله[٢]: بأنّ كثيراً من الكرامات التي نالها كانت لتحلّيه بفضيلة كبح جماح لسانه، ومن تلك الكرامات ما ذكره الشّيخ العراقي في (دار السّلام): بأنّ رجلاً قصد الحج عن طريق بحر عمان.. وذات مرّة أخرج هميانه وبدأ يعدّ أمواله.. وبينما هو كذلك لاحظ أنّ رجلاً ينظر إليه من الطابق الأعلى للسّفينة.. وما هي إلّا لحظات وإذا بالرّجل يصيح بأعلى صوته: سُرقت أموالي، وسرعان ما جاء شرطة السفينة وبدأوا يسألون عن حقيقة الأمر، فأخبرهم بصفات هميان ذلك الرّجل الذي كان يعد أمواله، ذاكراً لونه ومقدار ما فيه من المال.. فأدرك صاحب الهميان أنّ الرّجل يريد الاستيلاء على ما لديه من المال بهذه الطريقة.. ففكر في طريقة للخلاص من هذا المأزق بحيث يتخلّص من هذه التّهمة وضياع المال

= علماء الإمامية في أوائل القرن الرابع عشر الهجري القمري، هاجر إلى مدينة بروجرد (غرب إيران) عام (١٣٥٥ق) بعد دراسته لمقدمات الفقه، ثم سافر طيلة عشر سنوات إلى مدن سلطان آباد وطهران ومشهد وآذربيجان، ثم إلى النّجف الأشرف حيث حضر درس الشّيخ مرتضى الأنصاري. وعند رحيل هذا الأخير عاد إلى إيران وأقام في مدينة همذان، ثم قضى أخريات عمره الشّريف في طهران، حيث توفي فيها، ووري جثمانه الثرى في النّجف الأشرف.

(١) الشّيخ مرتضى الأنصاري بن محمد أمين الشوشتري، توفي سنة (١٢٨١ق)، فقيه وأصولي متبحر، يعرف بالشّيخ الأعظم وخاتم الفقهاء والمجتهدين. وُلد في مدينة دزفول، تعلم بادئ الأمر على أبيه وعمه. هاجر مع أبيه عام (١٢٣٢ق) إلى العتبات المقدسة في العراق، وتتلمذ طيلة أربعة عشر عاماً على السّيد محمد مجاهد وشريف العلماء المازندراني، ثم قصد النّجف الأشرف، ودرس لدى الشّيخ موسى بن جعفر كاشف الغطاء، ثم عاد إلى مسقط رأسه عام (١٢٤٠ق) وأجازه الملا أحمد النراقي في الاجتهاد. وعاد مرة ثانية إلى العراق في عام (١٢٥٠ق) وتصدى للمرجعية الدّينيّة العليا عام (١٢٦٦ق) بعد رحيل صاحب (الجواهر) الشّيخ محمد حسن النّجفي. راجع أثر آفرينان: ج١ ص٣٢٠، فارسي.

(٢) الميرزا أبو القاسم بن الحسن الجيلاني عالم عليم دقيق، من أهل شقت توابع مدينة رشت، تتلمذ على الميرزا حبيب اللّه والميرزا هداية اللّه جده لأمّه، له تأليفات قيمة منها قوانين الأصول، وغنائم الأيام في الفقه، ومناهج الأحكام. راجع قصص العلماء للتنكابني، ص١٩٦ ـ ١٩٧.

والتعرّض للعقوبة! فما كان منه إلّا أن قال: يـا أَمير المؤمِنين! إنّني أُودعك مالي عندك أمانة ورمى الهميان في البحر..

ثم إنّ الشـرطة فتّشـوا جميع ركاب السـفينة فلم يجدوا شـيئاً، فعادوا إلى الرّجل المدّعي زوراً سرقة ماله، وعاقبوه بجريرة الاتهام الباطل...

وبعـد أن أدّى الرّجل فريضة الحـج وعانى ما عانى من المصاعـب ولدى عودته، قصد مدينة النّجف الأشرف وزار مرقد أَمير المؤمِنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخاطبه قائلاً: يا أَمير المؤمِنين! إنّني مؤمن بك، وقد أودعتك همياني، وها أنا ذا أطلبه منك.

وفي اللّيلة نفسـها رأى في الرؤيا أنّ الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يأمـره بالذهاب إلى مدينة قمّ المقدّسة ليستلم أمانته من الميرزا القمّي رحمه الله.

وحينما اسـتيقظ الرّجـل ذهب إلى قـمّ المقدّسـة ـ وكان لا يعرف الميـرزا القمّي رحمه الله ولمّا سأل عنه، قيل له: إنه مرجع للتقليد وبيته يقع في النّاحية الفلانيّة، فذهب إليه وقصّ عليه قصّته ورؤيـاه.. فما كان من الميـرزا القمّـي رحمه الله إلّا أن أخرج من تحت عباءته الهميان نفسه وسلّمه إليه، وحينما فتحه وجد ماله لم ينقص منه شيء!!

فقد بلغ الميرزا القمّي رحمه الله ما بلغ من الدّرجات العلى بما كان يبذله من الجهد الجهيد فـي تهذيب النّفـس والتحلّي بفضائل الأخـلاق، حتى قيل: إنه نـال الكثير من الكرامات لحفظ لسانه من التورّط باللغو والباطل.

لذا ينبغي للإنسـان أن يكتسـب القدرة والقوّة على ضبط اللسـان والسيطرة عليه، وللأسـف فإنّ أغلب ألسـنة النّـاس خاضعة لتأثيـر الآخريـن، والمفتـرض أن يضبط الإنسان لسانه، فلا ينطق إلّا بالحقّ والصّدق..

فلم يصل الميرزا القمّـي رحمه الله إلى ما وصـل إليه لقلّة كلامه، لأنّـه كان يدرّس ويتباحث ويعـظ، ولعل لسـانه كان يكلّ من كثرة قـول الحقّ.. وهو علامـة على وفرة عقله وتكامله..

بالطّبع التزام الصّمت لا يعني أن يقتصر الإنسان على الحديث بما يكون ذخيرة له في آخرته، فالحديث عن الأمور الدّنيويّة لضمان الاكتساب والمعيشة مطلوب كي لا يضطر الإنسان إلى مد يد الفاقة، وفي ذلك ثواب وفضل..

فمن الطبيعي أنّ الساعي لأمور معاشه يضطر للتكلّم، فلا يعني ذلك أنّ الدّنيا قد استنفذته، بل هو طلب للآخرة، وفي الخبر أنّ رجلاً قال للإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنّا والله لنطلب الدّنيا. فقال الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**تصنع بها ماذا؟**».

قال: أعود بها على نفسي وعلى عيالي، وأتصدّق منها، وأصل منها، وأحج منها. فقال الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**ليس هذا طلب للدنيا، هذا طلب الآخرة**»[1].

الثّناء على الله عزّ وجلّ

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «.. **وأكثروا من التّهليل والتّقديس والتّسبيح والثّناء على الله والتضرّع إليه والرّغبة فيما عنده من الخير الذي لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه أحد، فاشغلوا ألسنتكم بذلك..**».

«أكثروا» أي: قولوا كثيراً. والإكثار من العمل قضية تشكيكيّة تتفاوت حسب الأشخاص والمناسبات.

والتّهليل والتّقديس والتّسبيح، أعمال مأمور بها تجتمع كلّها تحت عنوان (ذكر الله على اللسان).

ولا شكّ أنّ ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى هو نوع من الثّناء عليه سبحانه، وقد ورد في دعاء (الجوشن الكبير) ألف اسم من هذه الأسماء، والمعروف أنّ لله تعالى ألف اسم واسم، ألف منها ورد في دعاء الجوشن الكبير، والاسم الآخر هو اسم الله الأعظم الخافي على غالب النّاس.

(١) مستدرك الوسائل: ج١٣ ص١٨.

وكما يبدو أنّ هذا الحصر غير دقيق؛ لأنّ ثمّة أدعية أخرى وردت فيها أسماء أخرى لله تعالى لم ترد في دعاء الجوشن الكبير..

وقد فسّر البعض التضرّع إلى الله: بأنه البكاء الشّديد، لكنّه تفسير ليس بدقيق، لأنّ البكاء الشّديد من لوازم التضرع.

فالتضرّع هو: الطلب المقترن بالمسكنة واستشعار الفقر إلى الله عزّ وجلّ.

فقد تعرض للإنسان حاجة غير ضروريّة كأن يريد السّفر، فإن تحقّقت مقدّماته فبها، وإلّا لم يضرّه القعود في بلده.

وقد يضطر الإنسان إلى أمر ما ويعرف أنّه سيتعرّض للعسر والحرج إذا لم يتحقّق له.. ففي مثل هذه الحالة، تجده يسعى بكل حثاثة للوصول إلى ما يريده، وهذه الحالة هي: التضرّع.. والإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ يربّي الشّيعة على تكريس هذا الشعور الإيجابي في نفوسهم تجاه ربّهم المتعال لما فيه من الآثار العظيمة التي تعود على الإنسان نفسه.

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «.. **والرّغبة فيما عنده من الخير..**».

وهي دعوة أخرى للشّيعة بأن يظهروا الرّغبة فيما عند الخالق من الخير.. ولكن ما هو مقدار هذا الخير؟

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**الذي لا يقدّر قدره؛ ولا يبلغ كنهه أحد**» وهذا أحد أوصاف ما عند الله عزّ وجلّ حيث يعجز الجميع عن بلوغ كنهه والغور في عمقه.. لأنّ ما لدى الله تعالى غير محصور في الدّنيا ليعلم أبعاده.. وإن كانت النّعم الدّنيويّة يصعب تصوّرها أيضاً، حتى من قبل الأنبياء والرّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.. فهم لا يحيطون بما لدى الخالق من الخير.

ثواب الذكر

كان نبيّ الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ صاحب حكومة لا يخرج عن سيطرتها شيء، ولم تقم حكومة قبله ولا بعده كحكومته، وكان يحكم البشر والجنّ والشياطين

والحيوانات، وقد دعا الله عزّ وجلّ أن يهب له ملكاً لا يؤتيه أحد من بعده، فقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾[١].

ولم تخرج من الحكومات عن ملك نبيّ الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلّا حكومة اليمن في سبأ.. وقد ضمّها إليه فيما بعد.

وفي الخبر: أنّه خرج يسير وهو جالس على كرسيه وأصحابه معه على كرسي عن يمينه وعن شماله الريح تدفّ بهم، والطّير تظلّهم، فأشرف وهم كذلك على امرأتين من بني إسرائيل، فعجبتا ممّا رأتا من ذلك، فقالتا: سبحان الله، لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً، فسمع قولهما سليمان، فلما حاذى بهما قال للريح: قفي، فوقفت، فقال لهما: ما قلتما آنفاً حين طلعت عليكما؟ قالتا: ما قلنا إلّا خيراً يا نبيّ الله، قلنا: سبحان الله، لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً، فقال لهما سليمان: فقولكما سبحان الله أفضل من جميع ما أوتي آل داود[٢].

وهنا يعلم مدى الحسرة التي ستستولي على النّاس في يوم القيامة، حيث إنّ كثيراً منهم ضيّعوا أوقاتهم في دار الدّنيا ولم يستثمروها في ذكر الله والتسبيح، فضلاً عمّا أتلفوه في الحديث بالحرام والباطل.. إذ سيتبع ذلك استنطاق واستجواب..

ولذلك أمر الإمام الصّادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ شيعته أن يشغلوا ألسنتهم بالذّكر والتّسبيح، وفي الخبر الشّريف: «**إذا قال العبد: سبحان الله، سبّح معه ما دون العرش**»[٣].

تسبيح المخلوقات

قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٤].

(١) سورة ص، الآية: ٣٥.
(٢) تاريخ مدينة دمشق: ج٢٢ ص٢٧٥.
(٣) بحار الأنوار: ج٩٠ ص١٦٦.
(٤) سورة الجمعة، الآية: ١.

لا شكّ أنّ المراد بالآية أنّ الموجودات كافّة تسبّح باسم الله عزّ وجلّ..

إلّا أنّ البعض أوّل الآية ومئات الرّوايات بالتّسبيح التّكويني.. أي: إنّ واقع ما في السّماوات والأرض وجوهره يحكي عن صانع له.. ولكنّه يعارض ظاهر الرّوايات.. بالطّبع نحن لا ننفيه كليّاً، بل ننفي الاكتفاء به والاقتصار عليه.. فإنّ المسألة واضحة تماماً وغنيّة عن التأويل.. فالمراد من الآية أنّ جميع الموجودات، تسبّح لله، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1] وكلمة «شَيْءٍ» تشمل كل شيءٍ.

وبالرّغم أنّ الملّا عبدالله رحمه الله[2] في حاشيته يصرّح بأنّ كلمة «أمر» أعم من «شيء» ولكن الظّاهر يشير إلى أنّ «شيء» أكثر عموميّة، لا سيما إذا سبقتها «إن» النّافية، ولعل العموم في الآية المذكورة من العمومات التي لا تقبل التّخصيص فلا تشملها القاعدة المعروفة: «ما من عام إلّا وقد خُصّ» إذ ثمّة عمومات غير مخصّصة وخارجة عن هذه القاعدة، ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3] وفي آية التّسبيح المشار إليها حكم عام لم يخصّص، أو لنقل: إنه غير قابل للتّخصيص..

وحتى الشّيطان يسبّح لله تعالى وهذا لا ينافي شيطانيّته.. إذ إنّ كثيراً ممّن

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٢) عبداللّه بن الحسين اليزدي يُعرف بـ: الملّا عبداللّه (ت:٩٨١هـ/١٥٧٣م) فقيه، كلامي، حكيم، مصنّف. يؤخذ من نسبته أنّه وُلد في يزد، أو أحد أعمالها شاه آباد. درس في شيراز على منصور بن محمد الدشتكي الشيرازي، وجمال الدّين محمود الشيرازي. عاش مدّة في إيران ثم هاجر إلى النّجف واستوطنها، وأسس فيها مدرسة لتدريس العلوم الدّينيّة والحكمة. ظل كتابه حاشية على تهذيب المنطق المعروف بحاشية الملّا عبداللّه من كتب التدريس الأساسية في الحوزات العلميّة مدّة قرون. تتلمذ عليه في إيران: بهاء الدّين محمد بن الحسين العاملي، والسّيد ظهير الدّين إبراهيم بن الحسين الحسني الطباطبائي. وفي النّجف: السّيد محمد بن علي الموسوي العاملي صاحب مدارك الأحكام، والحسن بن زين الدّين الجبعي صاحب معالم الدّين. توفي في النّجف. راجع رياض العلماء، ج٣، ص١٩١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

يعترفون بسيّدهم ويقرّون بملكيّته لهم، ولكنّهم في الوقت ذاته يتمرّدون على أوامره..

إذن جميع الموجودات تسبّح لله عزّ وجلّ ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: إنّ النّاس لا يفهمون أو يعون طبيعة تسبيحها، والفقه لغةً هو الفهم.. والمراد بالتّسبيح في الآية الكَريمة على نحو الحقيقة، غير أنّ بني البشر هم العاجزون عن إدراك ذلك.

وهناك الكثير من الآيات الدالة على تسبيح السماوات والأرض ومنها قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[1].

وقد سُئل الإمام الصّادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن عدد الملائكة، فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**أكثر من عدد التّراب**»[2]، فإنّ عدد حبيبات قبضة من تراب كثيرة جداً فكيف بعدد حبيبات تراب جميع الأرض، فهي بلا ريب خارجة عن الإحصاء.. ولذا ينبغي لنا أن نتصوّر تسبيح جميع هذه الحبيبات والملائكة لله.. ليدفعنا ذلك إلى الخضوع.

وعن الإمام الباقر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**مكتوب في التّوراة أنّ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سأل ربّه جلّ وعلا، قال: إلهي إنه يأتي عليَّ مجالس أعزّك فيها، فقال الله عزّ وجلّ: يا موسى، اذكرني على كل حال، وفي كل أوان**»[3].

وبالرّغم أنّ الفقهاء تعرّضوا إلى كراهة اصطحاب القُرآن في بيت الخلاء إلّا أنهم صرحوا بأنّ ذكر الله عزّ وجلّ مستحبّ حتى في ذلك المكان.. إذ على الإنسان أن لا يضيّع فرصة أبداً حتى في حال التخلّي أو وقت النوم.

عن أبي عبدالله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «كان أبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كثير الذكر، لقد كنت أمشي معه وإنّه ليذكر الله، وآكل معه الطعام وإنّه ليذكر الله، ولقد كان يحدّث القوم وما يشغله ذلك عن ذكر الله، وكنت أرى لسانه لازقاً بحنكه، يقول: لا إله إلّا الله، وكان يجمعنا

(١) سورة الجمعة، الآية: ١.
(٢) بحار الأنوار: ج٢٤ ص٢١٠.
(٣) الدعوات (سلوة الحزين): ص١٨.

فيأمرنا بالذّكر حتى تطلع الشّمس، ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منّا، ومن كان لا يقرأ منّا أمره بالذّكر»[١].

بل ـ وكما في الرّوايات ـ أنّ جميع ما تحت العرش يسبّح لله تعالى، ويعلم الله ما هو تحت العرش.. فلو حقّق الإنسان في ذلك مئة عام ما استطاع أن يحصيه.

وبالرّغم أنّ الإنسان أكرم مخلوقات الله، وقد قال الباري تعالى في خلقه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[٢] ولكنّه في الوقت ذاته صغير حقير بالنّسبة إلى عرش الله تعالى وقدرته وجبروته..

آثار الذكر

من آثار الذّكر الدائم: الانقطاع عن الدّنيا، وإذا أكثر الإنسان من ذكر القيامة أدرك أنّ نعم الله غير دائمة وأنّ الدّنيا ليست إلّا دار امتحان، فمن صفات يوم القيامة: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[٣] حيث ينشغل الإنسان عن الآخرين بمن فيهم الأب والابن والأخ.

وقد فُسرت كلمة «لا إله إلّا الله» التي هي من أبرز مصاديق الذّكر بأشكال متعدّدة، بل إنّ كلمة «إله» بحد ذاتها لها معانٍ متعدّدة، منها المعبود والأمل والملجأ، لأنّ الربّ المعبود هو ملجأ الجميع وأساس جميع العلل، ولكن النّاس يغفلون عن هذا المعنى.

وقد ذكر الشّيخ عبد الزّهراء الكعبي رحمه الله[٤] ذات ليلة، فقال: الإنسان يقول بلسانه: لا إله إلّا الله، ولكنّه في الشدائد يلجأ إلى الجميع سوى الله تعالى.

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٦ ص٢٩٨.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.
(٣) سورة الروم، الآية: ١٤.
(٤) الشّيخ عبد الزهراء الكعبي ينتمي إلى أسرة كريمة عُرفت بالفضل والشرف ينتهي نسبها إلى قبيلة بني كعب المنتهية إلى كعب بن لؤي بن غالب، استوطنت كربلاء المقدّسة في القرن الثّاني عشر الهجري. ولد في مدينة كربلاء عام ١٣٢٧هـ، والذي صادف يوم ولادة الصّديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ وانتهل العلوم والمعارف الإسلامية من معين مدارس =

وكمثال على ذلك: المدين بدين قد حلّ أجله وليس له ما يسدّد به، تجده يطلب المساعدة من الجميع إلّا الله عزّ وجلّ.. والحال أنّه مؤمن ومقرّ بربوبية الله، ولمّا يُسأل عمّا إذا كان قصد الله عزّ وجلّ في حاجته؟ يجيب بأنه لم يتذكّر ذلك. والسؤال هنا: لماذا لا يذكر الإنسان الله في حالات كهذه؟

فإنّ التّبرير بعدم الذّكر عذر غير مقبول، بل هو عذر أقبح من ذنب ويستحقّ عليه العتاب.. فلو سأل صديق صديقه عن عدم زيارته إيّاه، واعتذر الأخير بعدم تذكّره، فهل يكون الصّديق محقّاً في معاتبته إيّاه على هذا التّبرير الذي يكشف عن عدم المحبّة والمعزّة له في قلبه؟ وإلّا لم ينسه أبداً!.. ولعل الكثير من أهل الذّكر بالألسن قلوبهم منشغلة بغير الذّكر... نُقل أنّ أحد العلماء اعترته مشكلة، فقصد مرقد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وتردّد عليه مدّة أربعين يوماً دون أن تقضى حاجته، وفي اليوم الأربعين وفيما هو جالس في الحرم الشّريف رأى شخصاً من عامّة النّاس يتوسل بأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ فنال حاجته فوراً، فانزعج العالم جداً ولكنّه لم يشكُ أو يعترض على الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بل اكتفى بالخروج من الحرم الشّريف والذهاب إلى بيته.

وفي اللّيلة نفسها رأى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في منامه[1] وهو يسأله عن حاجته، فقال له: سيدي أتيت حرمك أربعين يوماً لقضاء حاجتي وحل مشكلتي.. فردّ عليه الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: ولكني لم أرك إلّا اليوم.. فاستيقظ من نومه والتفت إلى أنّه كان يحتاج إلى حضور القلب حقّاً.

= كربلاء الدّينيّة. درس عند الشّيخ الرمّاحي والشّيخ محمد الخطيب والشّيخ جعفر الرشتي والشّيخ الواعظ. بلغ مكانة عالية في الخطابة الحسينية وكان سلس البيان شريف النّفس واسع الصدر يتّصف بالكرم والأخلاق النبيلة. اشتهر في قراءته لمقتل الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في يوم عاشوراء. اغتيل بالسمّ عام ١٣٩٤هـ المصادف يوم شهادة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ، وهذا من النّوادر أن يكون اسمه (عبد الزّهراء) ويولد يوم مولد الزّهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ ويستشهد يوم استشهاد الزّهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ، ومن مؤلفاته: «قتيل العبرة».

(١) ليست الرؤيا بحد ذاتها حجة، ولكن ورد في الرواية أنّها تكون صادقة إذا ما طابقت الواقع، وعموماً هناك شرطان لصحة الرؤيا: ١. أن تطابق الواقع، ٢. أن توافق الأدلة والرّوايات، (المؤلف).

حضور القلب

ينبغي أن تُعرض الحاجة على الله تعالى وأهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بحضور قلب والتفات، وفي الخبر: أنّ الإنسان قد يدعو بلسانه والحال أنّ قلبه منشغل بشيء آخر، فلا يستجاب له.

وكان أحد العلماء يقول: كنت أعدّ محاضراتي أثناء الصّلاة.. وهو غافل عن أنّ صلاته خالية من حضور القلب والالتفات إلى معاني الصّلاة.. ولذا يمكن التشكيك في آثار مثل هذه الصّلاة..

فمن ينطق بكلمة: (الله أكبر) في تكبيرة الإحرام أو الرّكوع أو السّجود، ينبغي أن يلتفت إلى معانيها على أقلّ تقدير.. ولا يدع الوساوس الشّيطانيّة تستولي على تفكيره.. لا سيما وأنّ للشّيطان حراباً كثيرة، وقد أضلّ كثيراً من النّاس عن طريق الدّين أو ما يسمّى بالاحتياط غير المشروع.

وقد نُقل أنّ أحدهم كان يؤلّف كتاباً ضد الشّيطان، فرأى بعض أصدقائه الشّيطان في عالم الرؤيا، وقال له: إنّ فلاناً ـ الكاتب ـ مشغول بتأليف كتاب يفضح فيه حيلك وألاعيبك.. فضحك الشّيطان من كلامه وقال: أنا الذي أمرته أن يؤلّف هذا الكتاب.

فقال الرّجل: وكيف ذلك؟

فأجاب الشّيطان: جهدت في إضلاله ولكنني لم أفلح في ذلك، حتى ألقيت في روعه أنّه عالم مثقّف، وإذا ما كتب الكتاب سيطّلع الجميع على غزارة علمه ومستوى ثقافته، وبالتّالي سيكون معروفاً لدى الجميع.. وفعلاً بدأ بتأليف الكتاب حبّاً في الظهور والرّياء، فاستطاع الشّيطان أن يلوّث نيّته ويصرفه عن الإتيان بالعمل قربةً إلى الله تعالى..

بالطّبع هذا لا يدعونا إلى التّراجع عن أداء وظيفتنا من خلال التّأليف والتّحقيق حذراً من الوقوع في مثل هذا الشراك الشّيطاني..

فمن كلام لصاحب (العروة الوثقى)[١] رحمه الله بعد بيان فضل صلاة الجماعة،قال: فإنّه كما ورد: لا يمنع الشّيطان من شيء من العبادات منعاً، بل يعرض عليهم الشّبهات من جهة العدالة ونحوها حيث لا يمكنهم إنكارها لأنّ فضلها من ضروريّات الدّين[٢]، وقال الشّهيد الثّاني[٣] رحمه الله: وكما يكون الإظهار مظنّة الرياء ومخطرته كذلك الإخفاء، فإنّ فيه أيضاً للشّيطان مداخل منها أن يأمرك بترك العمل خوفاً من أن تكون مرائياً به، وهذا من جملة خدائعه، وفي ترك العمل كذلك تحصيل لغرضه؛ لأنّ غرضه الأقصى ترك العمل وإنّما يعدل بك إلى قصد الرياء وغيره عند عجزه من تثبيطك عن العمل[٤].

وقد زرت ذات يوم أحد أساتذتي الذين تتلمذت عليهم في غرفته وقت الظهر وكان غير متزوج، فوجدته مشغولاً بالصّلاة، ولما فرغ سألته عن عزوفه عن صلاة الجماعة، فقال: في الواقع إنني لا أعرف أئمة الجماعة معرفة تامّة ـ وكان آنذاك المئات من أئمة الجماعة العدول، وكانت عدالة العديد منهم محرزة ـ ولكن ذلك الأستاذ حُرم من فضل صلاة الجماعة وثوابها الكبير.

فالشّيطان قد يمنع البعض عن التّأليف والفعاليّات الأخرى المفيدة بداعي الحذر من سوء النيّة وغير ذلك...

إذن للذكر المقترن بحضور القلب من الخاصّية ما يساعد المؤمنين في الرقيّ إلى الدّرجات العلى.

---

(١) هو السّيد محمد كاظم ابن السّيد عبد العظيم الطباطبائي اليزدي ولد في يزد سنة (١٢٤٧هـ) تتلمذ على الشّيخ مهدي ابن الشّيخ علي نجل كاشف الغطاء، وعلى الشّيخ راضي النّجفي وحضر على المجدد السّيد محمد حسن الشيرازي، توفي في النّجف الأشرف عام (١٣٣٧هـ) ودفن في الصحن الغروي الشّريف.

(٢) العروة الوثقى: فصل في فضل صلاة الجماعة.

(٣) زين الدّين علي بن أحمد العاملي الجبعي، أمره في الوثاقة والجلالة والعلم والفضل وجميع الفضائل أشهر من أن يذكر، خلّف ألفي كتاب منها مائتا كتاب بخطه الشّريف من مؤلفاته وغيرها، تولد ١٣ شوال سنة ٩١١، وقتله العامة سنة ٩٦٦.

(٤) رسائل الشهيد رحمه اللّه: ص١٤٨.

فوائد الذكر

قال النبيّ الأكرم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: **لما أسري بي إلى السّماء دخلت الجنّة، فرأيت فيها قيعاناً يققاً، ورأيت فيها الملائكة يبنون لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وربّما أمسكوا. فقلت لهم: ما لكم ربما بنيتم، وربما أمسكتم؟**

فقالوا: حتى تأتينا النفقة.

فقلت: ما نفقتكم؟

قالوا: قول المؤمن في الدّنيا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، فإذا قال بنينا، وإذا أمسك أمسكنا[١].

ومنه يتّضح بعض فوائد أمر الإمام الصّادق عَلَيْهِٱلسَّلَامُ الشّيعة بأن يكثروا من الذكر..

مزاعم خرافيّة..

ذهب أتباع العقائد المحرّفة إلى أنّ لله ولداً أو زوجة، وأنه يمتطي الحمار.. وقولنا: «سبحان الله» تنزيه الله عزّ وجلّ عن مثل هذه الخرافات..

وقد نقل عن داود الظاهري[٢] أنّه كان يرتقي المنبر ويأمر النّاس أن يسألوه عن الله عزّ وجلّ قائلاً: اعفوني عن الفرج واللحية واسألوني عما وراء ذلك[٣].. وهذا الادّعاء البعيد عن التوحيد والإيمان بالله عزّ وجلّ الذي ليس كمثله شيء يحكي عن انعدام العقل لقائله، فضلاً عن إساءة الأدب.. فالله سبحانه وتعالى منزّه عن مثل هذه الخرافات.. وهو بقدسه بعيد عن كافة النقص والمعايب والضعف...

---

(١) أمالي الطوسي: ص٤٧٥.

(٢) أبو بكر محمد بن علي بن داود الظاهري، صاحب كتاب ـ الزهرة ـ تولّى مقام الفتوى ببغداد بعد أبيه وكان يناظر أبا العباس بن سريج، مات سنة ٢٩٧هـ. تذكرة الحفاظ، ج٢، ص٦٦٠.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٣ ص٣.

أقسام الذكر

ذكر الله تعالى على نوعين:

أحدهما لـه مدخليّـة بتزكية النّفـس وتهذيبهـا، ومن شـأنه أن يحيي فـي وجدان الإنسـان روح العدالة.. وهذا النوع يعد واجباً عينياً، لأنّ على الإنسـان أن يسـعى إلى إعداد القلب دائماً كي يتلقّى الحق.

وهناك نوع آخر من الذّكر مستحب، وهو نوع محمود وضروري.

بطبيعة الحال لا بد أن لا يزاحم الذّكر المسـتحبّ الأعمال الأكثر أهمية.. لأنّ من الأعمال ما هو أكثر فضيلة من الذّكر كطلب العلم..

وفـي الخبـر عـن عبـد السّـلام بن صالـح الهـروي، قـال: سـمعت أبا الحسـن الرّضا عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: **رحـم الله عبداً أحيا أمرنا**. فقلت لـه: فكيف يحيى أمركم؟ قال: **يتعلّم علومنا ويعلّمها النّاس**[1].

ولذا لـو دار الأمر بين طلب العلم وبيـن الذّكر يقدّم طلب العلـم على الذّكر.. بل إنّ تحصيل المعيشـة في بعض الأحيان تقدّم على الذّكر والعبادة، ففي الخبر أنّ الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ سـأل أحدهم ذات يوم، فقال: **أين فلان؟** فقيل له: إن معيشـته جيّدة وهو في غنًى عن أن يتولّـى أمر دكّانه، فجعل من يبيع ويشـتري عنه وانشـغل بالعبادة من الصباح إلى اللّيل في مسـجد النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.. فقـال الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: **قولوا له يعود إلى كسـبه وعمله، فإن كان غير محتاج، فليصل رحمه بأمواله، ويتصدّق على الفقراء.. وذلك أفضـل من الذكر**.. علماً أنّ الرّوايات تضافـرت بأنّ أفضل البقاع للصلاة المسجد الحرام ومسجد النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.. ممّا يدلّ على أنّ وظيفة الإنسان أن لا يدع الأعمال الأكثر أهمية من أجل المستحبّات..

(١) معاني الأخبار: ص١٨٠.

الحذر من الحرص

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «.. **وإياكم أن تشرهَ أنفسكم إلى شيءٍ ممّا حرّم الله عليكم، فإنه من انتهك ما حرّم الله عليه ها هنا في الدّنيا؛ حال الله بينه وبين الجنة ونعيمها ولذّتها وكرامتها القائمة الدّائمة لأهل الجنة أبدَ الآبدين**».

لم يقتصر الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الفقرات على أمر الشّيعة بالدّعاء وإنّما دعاهم إلى خوض ميادين العمل والابتعاد والحذر عن «الشره» وهو أسفل مراتب الحرص.

وقد فسّر العلامة المجلسي رحمه الله في ـ مواطن عديدة من بحار الأنوار ـ الشره بعبارات مختلفة منها: «شدة الحرص» و«أسوأ الحرص»[1].

فلما ترغب النّفسُ صاحبها بمآربها وتتولد فيه الرّغبة إلى ذلك فإنه يسعى إلى تحقيقه.. وهنا يصدق عليه أنّه قد أصيب بالحرص، فإذا تابع نفسه فيما تريد واستمر في الطاعة العمياء لها اشتد حرصه وأصبح شرهاً..

بالطّبع هذه التفاسير للحرص هي في بعض الأحيان سبب أو مسبب، ولازم أو ملزوم للحرص، وإلّا فإنّ الحرص أنّ يطلب الإنسان من النّعم الإلهيّة ما هو أكثر من احتياجاته.

ولا يخفى أنّ الله سبحانه وتعالى أودع الإنسان الشهوات، فبداعي الشّهوة ينبعث

(١) راجع بحار الأنوار: ج٤٣ ص١٦٧، ج٦٣ ص٤٠٥، ج٦٨ ص٢١٠.

الإنسان نحو حاجاته، وإذا كان هذا الانبعاث ضمن الحدود الطبيعية والمنطقية، وتوقّف عليه قوام حياته فهو ليس بحرص لأنّ ذلك من مستلزمات الحياة ويتوقّف عليه بقاء العنصر البشري، فمن لا يتناول الطعام ولا يشرب الماء مثلاً، ينتهي أمره إلى الموت المؤكد.. ولعل من لا يُشبع غريزته الجنسية يصاب بالمرض.

وعليه؛ فلا تسمّى رغبات الإنسان المقيّدة بهذه الحدود حرصاً، بل هي تلبية لضرورات الحياة، وقد أحل الشارع المقدس تلبية الرغبات ضمن الحدود المعقولة.

التمتع بالنّعم

أكد الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في رواياتهم الشّريفة على التنعّم بنعم الله عزّ وجلّ.. ففي الخبر: أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كان يحبّ التمر[1]، وهو الذي لم يُشبع بطنه من الطعام طيلة عمره الشّريف، كذا الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان يستعيد قواه البدنية بالتمر.

ومهما يكن؛ فإنّ تلبية حاجات الإنسان ضمن الحدود الطبيعية لا تعد حرصاً فحسب، بل هي كما في الرّوايات الكَريمة (القناعة) حيث يكتفي الإنسان ويقنع بمقدار حاجته..

وفي كلام لأحد علماء الأخلاق حول القناعة، قال: ليس كل ما يقع بيد الإنسان هو ملك له ويجب أن يستفيد منه.. فلا يصح أن يستثمر الفرد كل ما هو تحت تصرفه من النّعم بمفرده، كما لا ينبغي له التفكير بأنّ ما لديه مختص به وحده، قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾[2].

بالطّبع النّعم التي بين يدي الإنسان ليست سوى امتحان؛ ينبغي له استثمارها، أمّا لو احتكرها لنفسه ولم يوصل منها للآخرين شيئاً أو تصرّف بها أكثر من حاجته، فليعلم أنّه مصاب بداء الحرص.. وإذا استفحل فيه هذا الداء، تحوّل شيئاً فشيئاً إلى: «الشره» الذي منع الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أتباعه عنه، فقال: «إياكم أن تشره أنفسكم إلى شيءٍ».

---

(١) راجع دعائم الإسلام: ج٢، ص١١٢.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ١٩.

إياكم والشره

من الملاحظ أنّ فعل «تشره» في كلام الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ متعدٍّ بحرف (إلى) بينما تعدّى هذا الفعل في بعض الرّوايات بحرف (على) أيضاً، وفي البلاغة يدل حرف (إلى) على منتهى الغاية، ففي المثل المعروف: «سرتُ من الكوفة إلى البصرة» ولذا فإنّ استخدام حرف (إلى) في المقام يشير إلى أنّ الشره هو غاية الحرص ومنتهاه.

أمّا لو استفيد من حرف (على) لدلّ على أنّ في الشره نوع خفي من السلطة والسطوة، كأن يحتاج الإنسان إلى خمسمائة غرام من الطعام ويتناول ما يعادل سبعمائة غرام، فإنّ ذلك نوع من الرّغبة الجامحة.

وقد نُسب فعل «شره» في كلام الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى النّفس، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أن تشره أنفسكم**» لأنّ النّفس الأمّارة بالسوء تجر الإنسان إلى مستنقع الشره.. وحتى أصحاب المستويات العلميّة الرّفيعة مشمولين بهذا التهديد الجدّي، ومن الضروري جداً حل هذه المشكلة النّفسية والأخلاقيّة.

الجدير بالذكر أنّ الشره له مصاديق متعدّدة، فتارة يصاب الإنسان بشره الغريزة الجنسية، وأخرى يصاب بشره تناول الطعام أو النوم والراحة، وهكذا..

وقد ذكرت كل واحدة من هذه الغرائز في بعض الكتب الروائية والأخلاقيّة مفصلاً ومنها كتاب (حلية المتقين) و(بحار الأنوار)..

ويمكن القول: إنّ تجاوز حدود الحاجة الطبيعية في كل غريزة يقود الإنسان إلى الحرص، وما لم يسيطر على الحرص يتطور إلى الشره الذي يفسد دنيا الإنسان وآخرته ويقوده إلى الأمراض، ففي الخبر: «**كل داءٍ من التخمة ما خلا الحمى**»[1].

فمن يأكل حتى التخمة يصاب بسوء الهضم ويقاسي الأمراض.. وكذا من يفرط في الغريزة الجنسية فعادة ما يقوده ذلك إلى الجنون، وقد رأيت أحد جيرتنا وكان شاباً صالحاً، كيف انتهى أمره مع الأسف شيئاً فشيئاً إلى الجنون، علماً أنّ والديه كانا شخصين صالحين وسالمين، وكانا مهتمّين بمداراته، ولكنّه لم يطق ما تعرّض له حتى توفّي.

(١) بحار الأنوار: ج٦٣ ص٣٣٦.

عاقبة الحرص والشره

إنّ كلمة «شيء» في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إياكم أن تشره أنفسكم إلى شيء ممّا حرّم الله عليكم» نكرة في سياق النفي تفيد العموم، وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إياكم» تحذير من ارتكاب المحرمات، إذ لا ينبغي للمؤمنين أن ينتهي بهم الأمر - جرّاء الحرص والطمع والشره - إلى ارتكاب المحرمات.. وانتهاك الحرمات، وإلى ذلك يشير الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ قائلاً: «فإنّ من انتهك ما حرّم الله عليه في الدّنيا، حالَ الله بينه وبين الجنة ونعيمها ولذتها وكرامتها القائمة الدائمة لأهل الجنة أبد الآبدين».

و«الانتهاك» هو التمزيق، حيث جعل الله عزّ وجلّ حدوداً للناس سهلة الاختراق، لذا حذّر الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ الشّيعة من ارتكاب المحرمات الإلهيّة كالنّظرة والسماع واللمس والتفكير الحرام.. وغير ذلك من المحرمات التي لا ينبغي للمؤمن الاقتراب منها.

وقد أشار الشّيخ الأنصاري رحمه الله إلى ذلك في كتابه (المكاسب)، وشبّه المحرمات الإلهيّة بالستارة المهترئة، علماً أنّ الاستفادة من كلمة «انتهاك» نوع من الاستخدام، وهو من أقسام المجاز، فمن ارتكب المحرمات وانتهك ستار الحرمات جعل الله بينه وبين الجنة جداراً منيعاً وحائلاً دون دخولها، كما قال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾[1].

لكي لا تضيع نعم الآخرة

وصف الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ الجنة في الرواية بثلاثة أوصاف يضيعها الشره على الإنسان، وهي: النعيم، واللذة، والكرامة.

ولم تجتمع هذه الصّفات حتى الآن لأحد قط حتى نبيّ الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ - الذي لم يجعل الله تعالى نظيراً لقدرته - لم يتحقّق له ذلك، لأنّ نعم الدّنيا قد تتضمن الصحة والطعام والترفيه في بعض الأوقات، ولكنّها قد لا تقترن مع اللذة. وخير مثال لذلك أن يتناول الإنسان أطيب الطعام وأفخره، ولكنّه منشغل البال في

(١) سورة الحديد، الآية: ١٣.

قضية يتوجب عليه الامتثال أمام القاضي فيها.. فهو وإن أُتيحت له نعمة إلهية دنيوية رائعة.. ولكنّه لا يشعر إلّا بالقليل من اللذة والرّاحة.

وقد نقل لي أحد التجار الكبار، فقال: إنّ أهل العلم يلتذّون بنعم الدّنيا أكثر من التجار.. لأنهم قد يتناولون في وجبة إفطارهم قليلاً من الخبز والجبن والشاي فيلتذون به، بينما تحتوي مائدة إفطارنا على أنواع الأطعمة ما يجعلنا نحير أيّاً منها نأكل، ومع ذلك فإننا لا نشعر بأية لذة عند تناول الإفطار لأنّ مشاغلنا وهمومنا تبدأ منذ الصباح، فإذا استمعنا إلى الأخبار الاقتصادية الصباحية أثناء تناولنا للإفطار زدنا همّاً على همٍّ، وحسرة على حسرة، فالهم على ارتفاع الأسعار، والحسرة على ما بعناه الأمس بأسعار أقل من أسعار اليوم.. ولذلك ترانا منشغلي الذهن مضطربي القلب حتى أثناء تناول الطعام، ممّا يجعلنا لا نشعر باللذة.

هذه هي طبيعة النّعم الدّنيويّة، فهي ممزوجة بالهموم والمشاكل، مجردة في كثير من الأحيان عن اللذة، على خلاف نعم الجنة ونعيمها فهي مقترنة باللذة الأبدية.. أوليسَ من الخسارة استبدال النّعم الأبدية بنعم لا تدوم إلّا أياماً معدودات؟!

ولذا يحذرنا الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ من أن تشره أنفسنا لئلا نحرم من الجنة ونعيمها ولذتها وكرامتها.

وقد نقل لي أحد الأشخاص أنّه جلس إلى مائدة إحدى الشخصيات السياسية العراقية، وكان المدعوون كثيرين، ومنهم السّيد صالح الحلي رحمه الله[1]، وهو أحد خطباء المنبر المعروفين، وكانت المائدة تحوي ما لذ وطاب من الأطعمة. ولكن جيء للرّجل المضيف بحساء لحم أحد الحيوانات المحرمة خال من الملح والبهارات، فسأله السّيد صالح الحلي رحمه الله عن سبب اكتفائه بهذا النوع من الطعام، فأجاب بأنّ

(١) السّيد صالح بن محمد حسين الحليّ (١٢٨٩ ـ ١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠م) خطيب كبير، أعرف خطباء العراق في زمانه، فقيه، شاعر. وُلد في الحلّة. وفيها نشأ وقرأ المقدمات. انتقل إلى النّجف، وبعد أن أتم قراءة السطوح، حضر أبحاث الشّيخ محمد كاظم الخراساني، والشّيخ محمد طه نجف، والشّيخ آغا رضا الهمذاني. توفي في الكوفة ودفن في النّجف الأشرف. راجع أعيان الشّيعة، ج٧، ص٣٧٧.

جميع ما في المائدة لا يلائم صحته، وأنه يجب عليه الاكتفاء بالحساء المذكور فقط..

وليست الدّنيا بأكثر من ذلك، فتارة تتجرد نعمها من اللذة.

وكان أحدهم يعاني أيام شبابه من شدة الفقر، ولكنّه استطاع في أيام كهولته أن يجمع ثروة طائلة، فكان يخاطب نفسه قائلاً: عندما كنت أتمتع بصحة جيّدة كنت أحتاج إلى أبسط أنواع الخبز والآن لما عجزت عن تناول الطعام توفّر لي أجود الخبز..

فمن جاوز حدوده ـ طبقاً لقول الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ حالَ الله بينه وبين نعم الجنة ولذتها وكرامتها، وهي المواصفات الدائمة والمهيأة باعتبار أنّها تحت تصرف الإنسان ما شاء وكيف شاء.

أمّا في الدّنيا فيمكن التنظير له بمن نظر إلى منظر جميل جداً، وأراد أن يعيد النّظر إليه مرة أخرى، فإنه يتحمّل مشاق السفر في بعض الأحيان إلى منطقة ذلك المنظر... إلّا أنّ نعم الجنة ليست كذلك فهي أبدية ومهيأة..

مطالعة صفات الجنة

من الضروري جداً أن يقرأ المؤمنون الرّوايات المتعلقة بالجنة وصفاتها بين الفترة والأخرى ليتضاعف شوقهم إليها، وليكون ذلك سبباً مانعاً دون التكالب على الدّنيا والسقوط في حضيضها..

الجدير ذكره أنّ نعم الجنة أبدية ومهيأة، كما أنّ أهل النار خالدون فيها، وفي بعض الرّوايات أنّه يؤتى بالموت يوم القيامة على شكل حيوان، فيقال للجميع: هذا هو الموت، ثم يوضع في مكان بحيث يراه الجميع فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال لهم: لا موت بعد الآن..[1].

وكما في بعض الرّوايات أنّه لو كان ثمّة موت بعد انتهاء الحساب في يوم القيامة لمات أهل الجنة من الحزن، ولمات أهل النار فرحاً[2].

---

(١) بحار الأنوار: ج٨ ص٣٤٥.

(٢) بحار الأنوار: ج٨ ص٣٤٥.

ولكن نعم الجنة أبدية لأهلها، وعذاب النار أبدي لأهله، ولا خلاص لهم منها، ومفتاحا السعادة والشقاء بأيدينا في الوقت الحاضر، وهذان المفتاحان قد سلبا من أيدي الموتى لأنّ كتبهم قد خُتمت وقضي الأمر، أمّا كتب الأحياء فلا تزال مفتوحة، لذا يجب أن ينظر الإنسان ماذا دوّن في كتابه وعلى أيّة صورة سيغلقه...

المسلمون وأخلاق النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**فاتقوا الله أيّتها العصابة الناجية، إن أتم الله لكم ما أعطاكم به، فإنه لا يتم الأمر حتى يدخل عليكم مثل الذي دخل على الصّالحين قبلكم، وحتى تُبتلوا في أنفسكم وأموالكم**».

تسمّى الخرقة التي يشدّ بها الرأس أو خصوص الجبهة لغة عصابة، وهذه التّسمية متعارفة إلى اليوم بين القرويين والبدو، أمّا من حيث الاصطلاح فتطلق على المجموعة ذات الفكرة والسلوك الواحد، كما هي الأحزاب المعاصرة، ولكن المراد من «العصابة» في العبارة الشّريفة هم الشّيعة الذين لم يكن عددهم كبيراً في تلك الفترة.

وفي هذه الفقرة يأمر الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ شيعته بالتّقوى، وعلامتها لدى المؤمنين أن يجعلوا الله نُصب أعينهم ويحكّموه في أعمالهم ونواياهم.

ولا يسعنا في هذا المقام سبر غور المباحث الكثيرة والمطولة فيما يتعلق بالشّيعة (الفرقة النّاجية)، ولكننا نشير إلى أنّ إطلاق العبارة له من الانعكاسات والمفاهيم الكثيرة ما يمكن الاستفادة منها من البعد العقائدي والثقافي والسياسي، لا سيما وأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قد وجه خطابه إلى شيعته في مختلف المراحل والأعصار.

وبالرّغم من أنّ «به» في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما أعطاكم به» فيها احتمالات عديدة أُشير إليها في المصادر المختلفة، لكن العلّامة المجلسي رحمه الله لم يتطرّق إلى تفسيرها في كتابه «مرآة العقول».. ومهما يكن فإنّ «به» تحتمل أمرين:

الأوّل: أنّ ضمير «به» يعود إلى الفرقة الناجية، ومعه يمكن القول بأنه استخدام لفظي ومن التعابير البلاغية.

الثّاني: أنّ مرجع الضمير في «به» يعود إلى التّقوى المأمور بها.

ويبدو أنّ الاحتمال الأوّل أفضل من جهتين:

الأولى: أنّ العصابة أقرب إلى الضمير، والأصل أن لا تكون ثمّة فاصلة كبيرة بين المرجع والضمير، بالطّبع يجري هذا الأصل حيث تنعدم قرينة أقوى وأرجح من الأقربية في الكلام.

الثّانية: إذا عاد الضمير إلى التّقوى، فيفترض أن تكون التّقوى هي المسلّم في تحقّقها، والحال أنّ الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ اعتبر النجاة هي المسلّم في تحقّقها في كلامه، وليس التّقوى.

وقد أكد عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّ الشّيعة هم الناجون بشرط أن يحقّقوا ما خصّهم الله تعالى به، وهي النجاة.

الطريق إلى النجاة

أشار الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ما تكتمل به نجاة الشّيعة، فقال: «**فإنّه لا يتم الأمر حتى يدخل عليكم مثل الذي دخل على الصّالحين قبلكم، وحتى تبتلوا في أنفسكم وأموالكم**» فنعمة النجاة لا تكتمل لدى الشّيعة حتى يُمتحنوا في أموالهم وأنفسهم، كما أُمتحن الصالحون من قبلهم، وليس من شك أنّ الصّالحين المشار إليهم هم الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والنخبة من حواريّيهم..

وكما أُمتحن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والأئمّة المعصومون عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأصحابهم الأبرار، كذلك سيمتحن شيعتهم وأتباعهم، وما لم ينجحوا في هذا الامتحان، فلن تتمّ نجاتهم..

ابتلاءات الماضين

كان مرسوماً لدى القبائل العربيّة قبل ظهور الإسلام وبعده، أنّ من قصد بيتاً أو

مضرباً، وطلب الأمان والإجارة، أعطي الأمان وأُجير، وهيئت له وسائل الراحة وقدّم له الطعام والشراب، سواء كان المستجير عدواً أو صديقاً، بل حتى لو استجار القاتل بأسرة وعشيرة المقتول، أعطي الأمان وحظي بالاحترام.. وكان هذا العرف والقانون الاجتماعي سائداً في السّابق أكثر من العصور المتأخرة. وقد لمست بنفسي هذا الأمر مراراً في العراق.. وكان من العار عند العرب أن يمتنع الرّجل عن إجارة من طلب الإجارة، بل قد لا يوجد عربيّ له الجرأة على الامتناع عن الإجارة.. وإن فعل أحدهم ذلك لحقه العار وبأسرته إلى سنين طوال..

الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يستجير القبائل

ورد في كتاب (بحار الأنوار): «أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خرج في الموسم يعرض نفسه على القبائل»[١] ليتحدّث مع رجالها بحديث الإسلام «فلم يقبله أحد منهم»[٢] وكلمة «أحد» نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي إنّ أحداً لم يسمح للنبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أن يجلس ويتحدّث إليه، وذلك للضغط الكبير الذي كانت تبديه قريش على القبائل العربيّة في إطار محاصرة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والتضييق عليه، ولم يحدث مثل هذا السلوك في تاريخ الجزيرة العربيّة إلّا مرة واحدة، ولم يذكر أنّ أحداً غير النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تعرّض لانتهاك قانون الحماية والإجارة من قبل العرب حتى اللصوص والقتلة.. فلمّا كان النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بسيماه النّورانية وجماله الجذّاب وكلامه العذب يدعو قبائل العرب في موسم الحج إلى الإسلام، كان يلقى ردّاً ورفضاً سريعاً.. «فجعل يعرض نفسه على قبائل العرب، فإذا أتاهم قالوا: كذّاب؛ امضِ عنّا!»[٣] والعياذ بالله، فهذا السلوك الهمجي خرق للعادة ونقض للقانون الاجتماعي السائد بين العرب، وهو من الإهانة البالغة، خصوصاً أنهم كانوا يمتنعون عن فعل ذلك حتى مع القتلة، ولكنّهم لم يلتزموا به مع النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الناصح لهم.

(١) بحار الأنوار: ج١٩ ص٢٣.
(٢) بحار الأنوار: ج١٩ ص٦ ـ ٨.
(٣) بحار الأنوار: ج١٩ ص٦ ـ ٨.

وبالرّغم أنّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ كان شديد الحياء إلّا أنّه تحمّل كل تلك الإهانات، ولم يمتنع عن الدعوة والإرشاد.. فلم يؤمن من بين جميع القبائل إلّا رجال قلّة بادئ الأمر، رغم ما تعرّض له النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ من الأذى والبلاء.. وكانت الثلّة المؤمنة به نادرين، و«النادر كالمعدوم»، ولأنّه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ كان مكلّفاً من قبل ربه المتعال كان صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يؤدي وظيفته برحابة صدر.. وربما لم تشهد بعض السّنين دخول شخص واحد في الإسلام إلى أن جاء ذات سنة ستّة من مشركي قبيلة الخزرج من المدينة إلى مكة للزيارة والحج[1] فقصدهم النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ واستأذنهم ليتحدث معهم، فسمحوا له بذلك، فدعاهم إلى الإسلام والتوحيد، فاستمعوا قوله واستجابوا لدعوته..

إسلام عثمان بن مظعون

كان عثمان بن مظعون[2] من الصحابة الصّالحين، وقبره يزار في البقيع.

---

(١) كانت مراسم الحج معروفة لدى العرب منذ زمن النبيّ إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وكان المشركون يحجون البيت على طريقتهم قبل الإسلام حيث يطوفون وينحرون، ولكنّهم كانوا يرتكبون بعض الممارسات المشينة أثناء الطواف. (المؤلف).

(٢) عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب الجمحي، صاحب رسول اللّه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، كان حكيم العرب قبل الإسلام، وهو ثالث عشر من أسلم، وهاجر إلى الحبشة مرتين. حضر معركة بدر، وتوفي في السّنة الثّانية للهجرة. وبعد عودته الأولى من الحبشة احتمى بالوليد بن المغيرة في مكة وأمن من أذى قريش، ولكنّه حينما رأى ما يتعرض له سائر المسلمين من العذاب والأذى من قبل مشركي قريش طلب من الوليد أن يعلن على الملأ أنّه لن يحميه وقد خرج من جيرته، لكي يواسي المسلمين فيما يتعرضون له. وفعل الوليد بن المغيرة ذلك، فكان عثمان بن مظعون معرضاً للأذى بعد أن أعلن صدق قول الوليد. وأثناء ذلك جاء (لبيد) الشاعر والخطيب المعروف، فبدأ يقرأ قصيدته الشهيرة حيث قال: ألا كل شيءٍ ما خلا اللّه باطل، فصدقه ابن مظعون، فقرأ لبيد تتمة البيت قائلاً: وكل نعيم لا محالة زائل، فاعترضه عثمان بشدة ليقول له: لقد أخطأت، فنعيم الآخرة غير زائل.. مما أثار غضب لبيد الذي قال: يا قريش! لقد تبدل حالكم، من هذا؟ فأجابه أحدهم: إنه أبله خرج عن ديننا وتبع رجلاً مثله (معاذ اللّه) فلا تهتم لأمره، ثم قام وصفعه على وجهه حتى اسود وجهه. فقال الوليد بن المغيرة لعثمان بن مظعون: لو كنت في إجارتي ما أصابك شيء مما لقيته اليوم. فردّ عليه عثمان: إنني في حمى اللّه الكبير. فقال الوليد: أتمنى لو تعود لحماي. فقال: لن أفعل ذلك أبداً. يراجع بحار الأنوار، موارد عديدة ومنها: ج٢٢ ص١١٢، ١٥٧، ١٦٤، ٢٦٤، ٢٦٧.

وقد نقل عثمان رضوان الله عليه قصة إسلامه، فقال:

كنت في مكة، فرآني رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ذات يوم، فقال لي: يا عثمان! ألا تؤمن؟ فقلت: لا. فأعاد عليّ الرّسول السؤال نفسه في اليوم التّالي، فأجبته بالجواب نفسه، وتكرّر ذلك مراراً، حتى قصدت في يوم من الأيام أبا طالب، فقلت له: إنّ ابن أخيك لا يدعني لشأني، فقد ملأني الحياء لكثرة ما دعاني إلى الإيمان بما يقول.

فقال أبو طالب: يا عثمان إنه أراد لك سعادة الدّنيا والآخرة..[١].

وبالرّغم أنّ إيمان عثمان بن مظعون في بادئ الأمر كان عن خجل وحياء، ولكنّه استقر في قلبه شيئاً فشيئاً حتى أصبح من المقدمين من أصحاب النبيّ الأكرم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، بل بلغ إيمانه من المرتبة السّامية ما جعل الرّسول الأعظم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يقبّل جثمانه حين وفاته[٢] وأعظم بذلك من دليل على جلالة قدر هذا الصّحابي الكبير.

التأسّي بأخلاق النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ

لقد تحمّل النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ طبقاً للمسؤوليّة الدّينيّة الملقاة على عاتقه أنواع الأذى والبلاء في سبيل الدعوة إلى الدّين.. والصّلاة التي يقيمها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ثمرةً لما تحمّله النبيّ الأعظم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٣]، ولذا فإنّ المؤمنين ملزمون بالتحلّي بأخلاق الرّسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وتشجيع الآخرين ودفعهم إلى صالح الأعمال.. حتى لو طال هذا التشجيع سنين مديدة، ليترك الأثر المطلوب فيهم.

وبالرّغم أنّ للنبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ مقاماً رفيعاً ومنزلة خاصّة من الله عزّ وجلّ، ولكنّه

(١) مجمع البيان: ج٦ ص١٩١.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٢ ص٣٣٧.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

تعرّض إلى هذه الشدة في البلاء والامتحان، وذلك: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[1].

ومن هنا؛ أصبح لزاماً على المؤمنين أن يعلّم بعضهم بعضاً أصول الدّين وفروعه، وما أروع أن يبدأوا بتنفيذ هذه المسؤوليّة الكبيرة والمهمّة من محيط أسرهم والمقربين إليهم، لينتقلوا فيما بعد إلى الجار والصّديق والتلميذ، فيصل صوتهم إلى كافة الأطراف، فيدعوهم إلى التزام التّقوى بكل الوسائل، بما في ذلك الكتاب والتلفاز والمذياع ومواقع الإنترنت.. وهذه القضية مهمّة جداً وبحاجة إلى المزيد من الوعي والصبر والاستقامة؛ لأنّ الإسلام لم يصل إلينا إلّا بوعي وصبر واستقامة أسلافنا الصّالحين وما بذلوه من التضحيات الجسام.

أهمية تبليغ الأحكام

ينبغي أن نوصل الواجبات والمستحبات للناس كافة حتى لو أعربوا عن عدم الرّغبة في ذلك.. فهو لا يقلّل من حجم مسؤوليّة المؤمنين، فإذا لم يبلغوا كان لهم أن يبرّروا موقفهم يوم القيامة ويقولوا: لم نكن نعلم أو لم يرشدنا أحد.. ومن هنا؛ أصبحت الاستقامة في تبليغ الدّين مسألة أساسية وضروريّة.. ألم يعلم النبيّ الأكرم صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنّ المشركين لن يؤمنوا به رغم كل ما كان يبذله من الجهود الجبارة؟

لا شكّ أنّه كان يعلم أنّ هناك من سيبقى على الكفر، ولكنّه مع ذلك لم يكلّ عن دعوة النّاس إلى الإسلام.

ولو قيل: إنّ الخصائص النبوية تقتضي هذا النوع من الإصرار والاستقامة، فإنه يقال له: إنّ هذا استدلال خاطىء؛ لأنّ خصائص الرّسول الأعظم صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ذكرت في مختلف الكتب، وقد عدّها المحقّق الحلي رحمه الله[2] في (شرائع الإسلام) خمس عشرة

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

(٢) نجم الدّين، أبو القاسم، جعفر بن الحسن بن يحيى الهذلي الحلي، المعروف بالمحقق الحلي (٦٠٢ ـ ٦٧٦ق) من فحول علماء الإمامية في القرن السابع الهجري، وكان معاصراً للخواجه =

خصيصة[١] كما ذكرها الشّيخ النّجفي[٢] في (جواهر الكلام)[٣]، وتطرّق العديد من العلماء في كتبهم إلى شرحها، ولم يشر أيّ منهم إلى اختصاص النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ببذل منتهى الجهد لتبليغ الدّين وإرشاد النّاس، بل إنّ الأصل الأصيل في ذلك هو أنّه كل ما لم يذكر ضمن نطاق الخصائص النبوية فهو مشمول بحكم الآية الكَريمة التي أمرت المسلمين أن يتّخذوا النبيّ الأعظم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قدوة حسنة.

نعم، هناك خصائص نبوية لا تجب إلّا على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وأمّا غير ذلك؛ فإنّ قول وفعل وتقرير النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حجّة لازم الاتباع، وعبارة: «وعرض النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نفسه على القبائل» من تلك الأفعال التي ينبغي أن تتخذ نموذجاً طيباً من قبل المؤمنين، ليمارسوا أدوارهم فيما يتعلّق بتبليغ رسالة السماء إلى النّاس.

وقد حاور النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ القبائل العربيّة مرتين؛ الأولى: نقل لهم فيها الأحكام والمسائل الإسلامية. الثّانية: عندما كمن له المشركون وأرادوا قتله في مكة والمدينة، فطلب النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ من قبائل العرب أن يجيروه.

لفتة نظر

وفق فتاوى معظم الفقهاء أنّ من شروط وجوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر أن يحتمل الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر تأثّر المخاطب بالشكل الإيجابي لقوله أو عمله، أمّا إذا لم يحتمل التأثير ينتفي وجوب الأمر بالمعروف

= نصير الطوسي. وهو من تلامذة جده وأبيه، وكذلك السّيد فخار بن معد الموسوي والسّيد ابن زهرة. من جملة تصانيفه: (استحباب التياسر لأهل العراق) و(تلخيص الفهرست) و(شرائع الإسلام من مسائل الحلال والحرام) و(نهج الوصول إلى علم الأصول).

(١) شرائع الإسلام: ج٢ ص٣١٩ـ٣٢٠.

(٢) محمد حسن بن باقر شريف الأصفهاني المتوفى (١٢٦٤ أو١٢٦٨ق) من كبار علماء الإمامية، ومن تلامذة السّيد جواد موسى كاشف الغطاء، عُرف بنسبة كتاب (جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام) إليه كنسبة موسوعة (بحار الأنوار) إلى العلامة المجلسي. ذكر في (جواهره) الفروع الفقهية لأحكام أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مع أدلتها. استمر في تأليفه مدّة ثلاثين عاماً. راجع ريحانة الأدب: ج٣ ص٣٥٧ـ٣٥٨.

(٣) جواهر الكلام: ج٢٩ ص٢١.

والنّهي عن المنكـر..[١] وقد ذكرت هـذه الفتوى في كتـب علماء الشّـيعة الفقهية منذ الكتب القديمة ومنها كتاب (المقنعة) للشيخ المفيد.

وبالنّسبة للشرط المشار إليه هناك قضيتان لا بد من توضيحهما:

الأولى: إنّ كبـار فقهاء الشّـيعة أمثـال النراقي رحمه الله في كتاب (مسـتند الشّـيعة)، والشهيد الثّاني رحمه الله في (شرح اللمعة)، والطباطبائي رحمه الله[٢] في (الرياض) لم يذكروا دليلاً خاصّاً عليه، إذ لم يرد دليل شرعي على اشتراط احتمال التأثير أو تجويز التأثير، وليس الدليل عليه سـوى إرشـاد العقل، فمن علم بوجوب الأمر بالصّلاة، ولم يحتمل التأثير في تاركها لو أمره بها، فله أن يرجّح ما يشـير إليه العقل، وهو عدم لـزوم الأمر بهذا الصدد، فحيث لا تأثير للأمر بالمعروف، فإنّ العمل به غير لازم من النّاحية العقلية.

الثّانية: نفى الشّـيخ عباس عليّ إسـلامي رحمه الله[٣] في أحد كتبه بشدّة وجود دليل شـرعي على تجويز التأثير في وجوب الأمر بالمعروف والنّهي عـن المنكر، مؤكداً أنّ الدليل الوحيد على هذا الشرط هو الدليل العقلي..

---

(١) راجع كشف الغطاء: ج٤ ص٤٢٩.

(٢) السّيد علي ابن السّيد محمد علي الطباطبائي الأصفهاني، سـاكن كربلاء. ووالده السّيد محمد علي ابن السّـيد أبي المعالي الصغير ابن السّـيد أبي المعالي الكبير صهر المـلّا صالح بن أحمد المازندراني. ولد في الكاظميـين في الثّاني عشر من ربيع الأوّل، وكان سـيد الأسـانيد ومرجع الرواة والأسـاتيذ والوحيد في علم المنقول وفي التقرير كان مفضيـاً وكتابته في غاية الفصاحة والبلاغة والتسديد، وفضل تلامذته شـاهد على وفرة علمه. كانت أصوله أكثر من فقهه وسلّم له الجميع في ديـار العرب والعجم، لـه تأليفات قيمة أشـهرها كتاب رياض المسـائل. راجع قصص العلماء للتنكابني، ص١٩١ ـ ١٩٣.

(٣) عبـاس عـلي إسـلامي (١٣١٤هـ/ ١٨٩٧ـ١٩٨٤م) عالـم دين، عامـل في الميدانين السـياسي والتربوي، خطيب بارز، مصنّف بالفارسـية. وُلد في سـبزوار شـمال إيران. درس الأوّليات في مسقط رأسه. ارتحل إلى مشـهد وفيها حضر الفقه وأصوله على السّـيد حسن القمّي ومحمد آقازاده الخراسـاني وغيرهما. اتجه إلى النّجف واسـتقرّ فيهـا زمناً يحضر بحث السّـيد أبي الحسـن الأصفهاني. عاد إلى وطنه وسـكن طهران، وصحب السّـيد أبا القاسـم الكاشـاني، وكان مـن أعوانه البارزين حين خـاض معركة إنقاذ الثّـروة النفطية في إيران من السـيطرة الاسـتعمارية. اهتم بتأسـيس المدارس الأهليّة الابتدائية والثانوية، خرّجـت المئات من الطّلاب والطالبات، كما أسـس ورأس جامعة تعليمات إسـلامي. توفي في طهران ودفـن في قم. راجع تربت باكان قم، ج٢، ص٨٥٩.

وعلى أيّة حال؛ فإنّ الواجب هو إتمام الحجّة على الجميع عن طريق الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.. ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ وإتمام الحجّة قضية مهمّة بمفردها لأنّ الله أراد ذلك، وإن لم نولها الأهمية اللازمة..

فإنّ القضية الأكثر أهمية هي تمسّك النّاس بالدّين، وقد أصبح الدّين اليوم ضعيفاً جرّاء الدعايات الشّيطانيّة من الشرق والغرب.. فالبعض من النّاس يؤمن بوجوب الصّلاة مثلاً، ولكنّه يمتنع عن أدائها.. فتزلزلت أسس الإيمان في قلوبهم.. وبإقامة فريضتي الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر يمكن تقوية هذه الأسس..

ولا يخفى أنّ المصاعب التي واجهها النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في عصره لم تعد موجودة في العصر الراهن.. فإذا ما واجه المؤمنون اليوم مصاعب ومشاكل في هذا الطريق، عليهم الاقتداء والتأسّي برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الذي جسّد بحق المصداق الأوّل للصالحين على الأرض، وهو الذي عانى وتحمّل ألوان العذاب والبلاء، ولم يتنازل قيد أنملة عن حقّه وواجبه في أداء مسؤولياته الرّبانية..

الصّبر في السلوك الإنساني

هناك أكثر من آية أكد فيها على الصبر في تبليغ الإسلام ومنها قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[١] وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾[٢]، وقوله عزّ من قائل: ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾[٣].

فقد كُذّبَ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والرّسل من قبله وأُوذوا من أجل الحق... ولذا استخدم الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ حرف «إن» قبل فعل «سرّكم» وهو حرف شرط جزاؤه الفاء

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٤.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣٤.

«فتدبّروا»، أي إذا سرّكم أمر الله في أنبيائه، فعليكم أن تتدبروه وتعقلوه، ولا تكونوا فيه من السفهاء..

وقد ذكّر الإمام الصّادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المؤمنين ـ من خلال بعض الآيات ـ بصبر أولي العزم من الأنبياء لدى التبليغ وأمرهم بترك التهرّب من المسؤوليّة.. لأنّ التهرّب منها يستوجب العذاب الإلهي في نهاية المطاف.

ولذا ينبغي لنا التأمّل في قصصهم والاطلاع على سيرتهم وما تحمّلوه من المصاعب والمصائب الجمّة في سبيل الدعوة والإرشاد، لنعرف حقيقة صبرهم ومدى تحمّلهم لأعدائهم الحاقدين وأتباعهم الجهلة.

كما أمر الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ شيعته بالابتعاد عن الجهل... بالطّبع المراد بالجهل هنا هو السفه، إذ إنّ السفيه هو من يعلم الشيء ولا يعمل به.. وإرادة السفه من كلمة «الجهل» أمر معمول به، ومما يشهد له قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1].

فبالرّغم من أنّ المخاطب الظاهري هو نبيّ الله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما سأل تعالى في ابنه، إلّا أنّ حقيقة الخطاب يشمل كل عالم لا يعمل بعلمه، فإنّه ينظر إلى من لا ينتفع بعلمه كما ينظر إلى السفيه، ولا ريب أنّ التعبير القُرآني على نحو «إياك أعني واسمعي يا جارة»[2] وكذا الأمر في قوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾[3].

وهناك الكثير من الآيات القُرآنية عبّرت عن السفه بالجهل، وقد أشار الشّيخ الأنصاري رحمه الله إلى ذلك في كتابه (الرسائل)[4]..

بالطّبع لا طاقة لنا بصبر الأنبياء، ولكن لنا أن نقتدي بهم بقدر وسعنا لأنّ

(١) سورة هود، الآية: ٤٦.
(٢) مثل عربي معروف.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ٦.
(٤) راجع فرائد الأصول، ج١ مبحث وقوع التعبّد بالظّن ص ١٧١.

الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ عبّر عن الصبر في إطار التبليغ والدعوة ضد الأعداء بالفرض.

التمسك بالصبر

لا يخفى أنّ الأحكام الخمسة ـ من وجوب وحرمة ومكروه ومستحب ومباح ـ تختلف حسب المناسبات والمقامات، ففي بعض الأحيان يكون الصبر واجباً من باب وجوب المقدمة الوجودية، كالصبر مقابل الأعداء، ومقابل البلاءات الواردة على الإنسان أثناء التبليغ.

وكذا الصبر مقابل الأصدقاء الجهلة الذين عادةً ما يعيقون مسيرة الدعوة والإرشاد، فإذا لم يتّخذ المرء الصبر شعاراً ودينـاً ـ طبقاً لوصيّة الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ يكون قد خرج عن دين الله.. إذ إنّ الصبر ركن أساسي في الدّين كما هو شأن الصّلاة والحج والخمس.. وترك مثل هذا الصبر ذنب، يستوجب الغضب الإلهي، وإلى ذلك يشير الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: «**فأكبّه الله على وجهه في النار**».

وفي الخبر عن العامّة والخاصّة: إنّ إحدى زوجات الرّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ اختلقت نزاعاً معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فبلغ بها الأمر إلى رفع صوتها بغضب قائلة له: «أنت الذي تزعم أنّك رسول الله»[1] فما كان منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مقابل سوء أدبها وتماديها إلّا أن اختار الصّمت، ولم يستفد من حقّه تجاهها، رغم أنّه كان يعرف جيداً قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾[2] لأنّ الآية نزلت عليه أولًا، بل لم يصدر منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عنف تجاهها..

هكذا صارت الأخلاق المحمّدية والصبر النبوي العظيم مصدر إعجاب البشرية ومحط اقتداء إلى يوم القيامة..

فإنّ الصبر لإتمام الحجّة هو الخصلة المشهورة من بين الخصال الأخلاقيّة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وهو القدوة الحسنة للمسلمين.

---

(١) تفسير روح المعاني: ج٢٢ ص٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ٣٤.

من صبر النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

وردت القصّة التّالية في كتب التفسير والحديث، وهي جديرة بالتأمّل ومطالعتها بشكل تفصيلي من مصادرها.. لأنّ فيها ما يصور حقيقة شخصيّة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وعظيم أخلاقه وورعه..

فلما فرغ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ من معركة بدر وبينما هو يقسّم الغنائم بين المسلمين وكعادته أن لا يدّخر لنفسه شيئاً[١] فقدت قطيفة حمراء، فأشاع أحد المسلمين ـ وكان يأتم برسول الله في صلاته ويحضر مجالسه ـ أنّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ سرق القطيفة واحتجزها لنفسه.. فأحدثت الإشاعة نوعاً من الجدل والفوضى بين المسلمين حتى انقسموا إلى فريقين.. ولكن النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رغم علمه بمروّج الإشاعة لم يعمد إلى فضحه واكتفى بتبرئة نفسه بالدليل القاطع[٢].

الصبر مفتاح النصر

من أخلاقيات رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ ولعلها الأبرز من بين الخصوصيات النبوية ـ أنّه كان لا يكلّ ولا ييأس من أداء مسؤولياته، وقد نقل أحد المسلمين[٣]: أنّ إسلامه كان لشديد إصرار النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ودعوته إياه إلى الإسلام، ممّا دعاه إلى الحياء منه وإعلان إسلامه في نهاية الأمر.

وكان النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يعرض على أحدهم الإسلام فيستجيب له سراعاً، ومنهم من كان يدعوه كراراً ومراراً فيصد عنه، ومنهم من كان يكتفي بإظهار الإسلام رغم المساعي الحثيثة التي كان يبذلها النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لدعوته.. فالأشخاص إزاء هذه القضية متفاوتون، وقد جعل الله تعالى ذلك لامتحان النّاس ليثبتوا جدارتهم في استحقاق إنسانيتهم واستحقاق الأجر الأخروي الجزيل.

---

(١) كان من عادة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أن لا يأخذ شيئاً من غنائم الحرب لنفسه.
(٢) بحار الأنوار: ج١٩ ص٢٠٢.
(٣) عثمان بن مظعون.

ومن المعلـوم أنّه بالصبـر والتحمّل ينال النصـر.. وكذا تزكية النّفـس فهي منوطة بالصبر، ومن ييأس عن تزكية نفسه إنّما ييأس لعدم تحلّيه بالصبر...

وبالرّغم من أنّ الخصال الأخلاقيّة الحميدة لا تتأتّى بالممارسـة البسيطة العاجلة، إلّا أنّها تتأتّى بالتكرار والصبر والطموح والسلوك المبني على الهدفية في الحياة.. فقد كان علماؤنا الأعلام يعانون المصاعب في القراءة والتحقيق والكتابة، لتصل جهودهم العلميّة إلينا ومن يلينا.

وقد قرأت الكثير من قصص العلمـاء التي تحكي الصّعوبة التـي تحملها علماؤنا السالفون..

قصة في الصبر

كان الشّـيخ محمّد جواد البلاغي رحمه الله[1] من أساتذة السّيد الوالد رحمه الله، وكان من كبار علماء المسـلمين، وله العديد من المؤلفات النفيسـة والقيمة، منها كتابا (الرحلة

(١) الشّـيخ محمد جواد ابن الشّيخ حسـن طالب البلاغي النّجفي الربعي (نسـبة إلى ربيعة القبيلة المشهورة) (١٢٨٢ ـ ١٣٥٢هـ). من مشـاهير علماء الشّيعة في عصره، علامة جليل ومجاهد كبير ومؤلف قدير. كان من بيت علم وفضـل وأدب (آل البلاغي)، معروف بالصّـلاح والتقوى، ولد في مدينة النّجف الأشرف ونشأ بها، فأخذ المقدمات عن الأعلام الأفاضل فيها، وحضر دروس الخارج على الشّـيخ محمّد طه نجف والخراساني والشّـيخ آقا رضا الهمذاني وحضر على الميرزا محمد تقي الشيرازي عشر سـنين، له مؤلفات رائعة ونادرة وقف بها قبال النصارى وأمام تيار الغرب الجارف حينذاك فمثل لهم تفوّق الإسـلام على جميع الملل والأديـان. كان معروفاً بخلوص النيّة وإخلاص العمل إلى اللّه حتى أنّه كان لا يرضى أن يوضع اسـمه على مؤلفاته عند طبعها. من أشهر آثاره المطبوعة: (الهدى إلى دين المصطفى صلى اللّه عليه وآله) في الرد على عبدة الثالوث، و(أنوار الهدى) في إبطال بعض الشُّـبه الإلحادية، و(الرحلة المدرسية) في الرد على الملل الخاطئة وقد ترجم إلى الفارسـية، و(نصائح الهدى) في الرد على البابية، و(أعاجيـب الأكاذيب) في بيان مفتريات النصارى، و(التوحيد والتثليث) في الرد على النصارى أيضاً، و(إبطال فتوى الوهابيين) في هدم قبور البقيع، وغيرها من الآثـار الجليلة، تناهز (٤٢) مصنفاً، وقد ترجمت بعض مؤلفاته إلى الإنجليزية للاستفادة من مضامينها الراقية. عرف عنه أنّه كان يجيد اللّغة العبرانية والفارسية والإنجليزية. توفي ليلة الاثنين في (٢٢ شـعبان سـنة ١٣٥٢هـ) في النّجف الأشرف فشـيع تشييعاً عظيماً يليق بمقامه الرفيع، ودفن في الحجرة الثالثة الجنوبيـة من الصحن الشّريف. انظر نقباء البشر في القرن الرابع عشر، القسم الأوّل من ج١، ص٣٢٣، بالرقم٦٦٣.

المدرسية) و(الهدى إلى دين المصطفى) في ردّ اليهودية والمسيحية، وهما من أفضل ما كتب في هذا الباب، حيث عالج فيهما تحريفات التّوراة والإنجيل، وعرض التناقضات بين هذين الكتابين واختلاف النسخ المحرفة المتداولة بين الأيدي وَقارنها بالتّوراة والإنجيل الأصليين. ولهذين الكتابين قيمة علمية كبيرة جداً، ولعل صفحة واحدة منهما تكفي لإقناع يهودي أو مسيحي بأحقيّة الإسلام..

وكان الشّيخ البلاغي رحمه الله فقيراً جداً، وقد تحمّل لتوفير معيشته مصاعب جمة إلى أن توفّي بمرض السل، ومن قصصه الجديرة بالتأمّل والاعتبار ما نقله السّيد الوالد رحمه الله، قال: إنّ الشّيخ البلاغي رحمه الله اضطر لتأليف كتابه (الرحلة المدرسية) إلى تعلّم اللّغة العبرية رغم ما فيها من التعقيد، لأنّ كتابي التّوراة والإنجيل مدوّنان باللّغة العبرية، ولم تكن في العراق آنذاك جامعة لتعلّم اللغات، كما لم تكن هناك جهة معنيّة بترجمة هذين الكتابين ترجمة دقيقة..

ولكي يتأكد الشّيخ البلاغي رحمه الله من مطابقة النسخ المترجمة إلى اللغتين العربيّة والفارسية مع النسخة الأصلية المحررة باللّغة العبرية، قرر رحمه الله أن يتعلّم اللّغة العبرية برمتها..

ولم يكن آنذاك الكيان الصهيوني موجوداً، بل كان اليهود متناثرين في مختلف دول العالم بما في ذلك مدينة سامراء المقدسة، وكان فيها سوق يُدعى بـ (سوق اليهود) يتحدّث فيه اليهود وأولادهم بالعبرية.

على كل فقد حاول الشّيخ البلاغي رحمه الله تعلّم اللّغة العبرية على أيدي بعض علماء اليهود، ولكنّهم رفضوا ذلك لعلمهم بهدفه، كما امتنع كسبة وتجّار اليهود عن تعليمه، لذا كان في بعض الأحيان ولكي يعرف معنى كلمة واحدة يذهب إلى محلّة اليهود في حر الظهيرة الشّديد ـ عندما يلجأ النّاس إلى السراديب هرباً من الحر ويخلو حرم العسكريين عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ من الزائرين حتى أنّ أحداً ما كان يستطيع تقبيل الضريح الشّريف، فكان البعض لئلا تُلذع شفتاه يضع عباءته على الضريح الشريف ويقبّله من

خلف العباءة، ففي مثل هذا الجوّ الهجير كان الشّيخ البلاغي يبتاع بعض الحلوى، ويضحّي بغدائه أو عشائه، ويقدمها لبعض أطفال اليهود الذين يلعبون في أزقة محلتهم، مقابل أن يفسروا له كلمة من كتاب التّوراة.

فكان الشّيخ البلاغي رحمه الله يخرج من بيته في مثل تلك الأجواء متأبطاً كتابي التّوراة والإنجيل اللذين يعدلان ضعفي القُرآن الكَريم من حيث الحجم، ويسأل أطفال اليهود عن لغتهم إلى أن أتقنها بهذا الجهد المضني..

ولم يبحث الشّيخ البلاغي رحمه الله لنفسه عن تبرير، مثل عدم إتقانه للعبرية، أو عدم توفر المال الكافي لديه، أو عدم تمكنه من تحمّل الحر، بل حقّق هدفه مستعيناً بالتعقّل والتدبر لما قاله الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وبالرّغم من فقره تمكن من تعلم هذه اللّغة عبر أطفال اليهود.. وهي لغة صعبة التعلّم.. فكم من الصبر والسّعي يجب أن يبذلهما الإنسان لتعلّم لغة على يد الصغار؟.. وهل لنا أن نقارن صبرنا بصبر هذا العملاق في عالم الأخلاق والمعرفة؟ إنّها لقسمة ضيزى..

وقد قرأت عشرات الكتب حول التّوراة والإنجيل المحرفين، إلّا أنّ كتابي الشّيخ البلاغي رحمه الله بهذا الشأن يعدان مرجعين أساسيين للمحقّقين، ولمن أرد التأليف حول اليهودية والمسيحية..

هذا مصداق حي في الصبر أثناء التبليغ والإرشاد.. فإذا عرفنا كل ذلك، عرفنا حقيقة منزلتنا بالنّسبة للشيخ البلاغي رحمه الله في يوم القيامة.

عاقبة عدم الصبر

هناك أكثر من آية قُرآنية تدل على أنّ الأنبياء من أولي العزم قبل النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قد كُذّبوا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ

فَصَبَرُواْ﴾[١]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾[٢].

ولا يخفى أنّ الجمع المحلى بأل من أظهر صيغ العموم، بل فيه من الدلالة على العموم أكثر من غيره، ما يكشف عن أنّ جميع الرّسل دون استثناء لما تعرّضوا للتكذيب صبروا.

وكما تقدّم فإنّ كثيراً من الخطاب القُرآني إلى الرّسول الأعظم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ من باب: «إياكِ أعني واسمعي يا جارة» لأنّ المخاطب الحقيقي هم جميع النّاس، فإذا ما عزم الإنسان على أمرٍ وصبر من أجل تحقيقه، نال مبتغاه، ولكنّه إذا تقاعس عن الصبر، فإنه سيعرّض نفسه للضرر، فضلاً عن عدم نيله مبتغاه..

وفي التبليغ والإرشاد لا بد من التحلّي بالصبر لإتمام الحجة على الآخرين، إذ لا يُرتجى من الكافر الجاهل الذي ملأ ذهنه بالأباطيل أن يستجيب لدعوة واحدة.

وكان الأنبياء والأئمّة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ والصالحون والعلماء والأتقياء السّابقون يؤكّدون في بعض الأحيان على قضية واحدة مرات عديدة، وكذا هو القُرآن الكَريم كثيراً ما ذكّر بموضوع واحد مرات عدة ليتسنّى للمتلقّي مقاومة الحواجز الفكرية والنّفسية المتكرسة في أعماقه، فإذا اقتنع بالدعوة نال المبلّغ المرشد بغيته، وإن امتنع عن الاقتناع نال المبلغ بغيته أيضاً، لأنّه أتم الحجّة عليه ورفع التكليف عن نفسه..

أُسلوب المبلّغ

لا شكّ أنّ قضية الإقناع في التبليغ من الأمور المهمّة جداً، إذ ينبغي للمبلّغ أن يستفيد من الأساليب ما يجعل المخاطَب على مفترق طريقين، ويعي ما يقال له حقّاً، فيوصله إلى المساحة الفكرية والنّفسية التي صوّرها القُرآن الكَريم بوصفه للكفار:

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٤.
(٢) سورة ص، الآية: ١٤.

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[١] فإذا أُلقيت الحجّة وتمت، فرغ المبلّغ من المسؤوليّة، ولكي يتجسد هذا الواقع، ينبغي للمبلّغ أن يضاعف من جهوده، ويعدد أساليبه، ويلين في خطابه، ويلتزم بقاعدة الحكمة والموعظة الحسنة.

وهناك الكثير من الخطباء الناجحين يعملون فكرهم ويبحثون عن أنجح أساليب الخطاب ليجد حديثهم موقعاً أحسن في قلوب المستمعين فيكون مؤثّراً جيّداً فتراهم كثيراً ما يمعنون النّظر في نقطة البداية من حديثهم، فهل يقدمون الآية القُرآنية أم الحديث أم القصّة؟ وفي أيّ مقاطع الخطاب يذكر القصّة؟ وكيف يرتّب فصول حديثه؟

وقد نقل لي أحدهم أنّ أحد الوعاظ في مدينة كربلاء المقدسة قبل أربعين سنة تحدث عن صلاة اللّيل مدّة عشر ليالٍ..

يقول الناقل: لاحظت كيف شرع أهل المجلس بإقامة صلاة اللّيل بعد انقضاء الليالي العشر.. وليس هذا بالأمر المستغرب إذا ما لاحظنا الآيات والرّوايات والقصص المؤكدة على صلاة اللّيل، فإذا لم يترك المجلس الأوّل أثراً إيجابياً في نفوس المستمعين، وتبعه في ذلك المجلس الثّاني أو الثالث أو الرابع، فإنّ ما سيليه سيحيي في القلوب العزم على أداء هذه الصّلاة..

فلا بدّ للإنسان أن يعتبر الصبر جزاءً أصيلاً في حياته؛ الصبر مع الأب والأم والزوجة والأولاد، ومع الأخ والأخت والصّديق والشريك والعدو وغيرهم، لأنّ الصبر من لوازم الحياة الناجحة ودعائمها..

وليعلم أنّ أعداء الدّين غالباً ما يواجهون المؤمنين بالاستهزاء والسخرية والتلاعب والإهانة، والحال أنّه ينبغي الصبر على كل ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[٢].

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٢) سورة يس، الآية: ٣٠.

وقد جعل الله تعالى في النّاس القدرة والاستهزاء بالرّسل، ولكنّه في مقام التشريع نهى عن ذلك، وأمر الرّسل وأتباعهم بالصبر والتحمّل..

آثارُ الدّعاء

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أكثروا من أن تدعوا الله، فإن الله يحبّ من عباده المؤمنين أن يدعوه، وقد وعد عباده المؤمنين بالاستجابة، والله مصيّر دعاء المؤمنين يوم القيامة عملاً يزيدهم به في الجنة**».

الدّعاء والسّعي طريقان للوصول إلى الأهداف والآمال، وليس لأحدهما أرجحية على الآخر، وهما معاً يبلغان المرء ما يرجو، كالسلكين اللذين يوقدان المصباح معاً، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، وقال عزّ من قائل: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[1]. وفي آيةٍ أخرى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[2].

ولا ريب أن أيّاً من هذين الأمرين لا يُؤتي أُكله دون اقترانه بالآخر، إذ لا استغناء بأحدهما عن الآخر، فكما لا يثمر السّعي دون الدّعاء، كذلك الدّعاء، فلا فائدة ترجى منه دون السّعي، وقد اقتضت إرادة الله عزّ وجلّ الاقتران الأبدي بين هذين العاملين لتحقّق أهداف الإنسان في الدّنيا والآخرة.. ولم نجد في سيرة أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ما يشير إلى أنهم أوصوا بواحد منهما دون التأكيد على الآخر..

وكان النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الذي وصفه الباري تعالى بقوله: «لولاك لما خلقت الأفلاك»[3] رغم لجوئه الدائم إلى الدّعاء والتضرع لا يفتأ عن السّعي وأداء مسؤولياته الجسام من دعوة إلى الإسلام وإعداد المسلمين للوقوف بوجه المشركين..

من هنا حثّ الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ الشّيعة ودعاهم إلى الإكثار من الدّعاء

(١) سورة النجم، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.
(٣) بحار الأنوار: ج١٦ ص٤٠٥.

ومواصلة الطلب والرجاء من ربهم، إذ على المؤمن أن يتقدّم بالدّعاء في كل أموره، وأن يكون هذا الدّعاء متواصلاً..

وفي قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أكثروا من أن تدعوا الله» حذف المتعلّق وهو يفيد العموم، أي: ينبغي الدّعاء لطلب كل شيء، والأمر الوحيد الذي لا ينبغي الدّعاء له هو الدّعاء للمحرمات، أمّا غير ذلك فإنّ الدّعاء له أمر محمود ومطلوب.

والمقصود من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فإنّ الله يحبّ من عباده المؤمنين..» إنّ الله يحبّ من بين أعمال عباده المؤمنين الدّعاء، ولا يعني ذلك أنّ محبة الله مقتصرة على العبد الداعي، رغم أنّ ظاهر العبارة يوحي بذلك، إذ لا منافاة بين أن يحبّ الله عزّ وجلّ الأعمال الصالحة الأخرى من عباده، ولكنّه يجعل دعاء المؤمنين من الشواخص الدالة على منزلة العبد من ربه.. ويكفي أن يقال: إنّ الله سبحانه وتعالى يحبّ الدّعاء من عباده المؤمنين..

كيف يستجاب الدّعاء؟

أكد الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الفقرة على أنّ الأدعية التي لا تستجاب في الدّنيا لن تذهب سدًى وأنها ستنفع الإنسان يوم القيامة، فالله يحفظ للمؤمنين هذا النوع من الدّعاء، وسيتكرم عليهم بأكثر وأعظم ممّا توقعوه، وذلك في عالم الآخرة.

ولعل خير مثال لذلك أن يطلب شخص من آخر أن يقرضه مالاً لحاجة ضروريّة مع علم صاحب المال أنّ حاجة الرّجل إلى المال ليست ماسة بحيث تهدّد حياته، فيمتنع عن مساعدته، ولكنّه في الوقت ذاته يدخر له المال المطلوب، دون أن يسلّمه إياه مباشرة، على أن يقدّمه له في وقت الحاجة الأكثر إلحاحاً.. ولا شكّ أنّ المال سيتضاعف له إلى حين تسليمه، ثم يقدّمه إليه قائلاً: حفظت لك ما طلبت تحسباً لهذا اليوم..

فقد يطلب الإنسان من الله عزّ وجلّ أن يهيئ له أسباب سفرة ليسعد ويرفّه عن نفسه.. ولا يحظى الدّعاء بالإجابة، ولكن بدلاً عن ذلك، سيدخر الله تعالى له جزاء

أوفى، حيث ينعم عليه بألف سنة في الجنة الأبدية.. وفي الرواية: إنّ الأدعية غير المستجابة في دار الدّنيا تستجاب في الآخرة بحيث يتمنّى الداعي لو أنّ أيّاً من أدعيته لم يستجب له في الدّنيا.. وأتباع أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يؤمنون بهذه الحقيقة، إلّا أنّ استيعاب ذلك من الأهمية القصوى بمكان.

وفي الخبر: «**فيما أوحى الله إلى داود: من انقطع إليّ كفيته، ومن سألني أعطيته، ومن دعاني أجبته، وإنما أؤخّر دعوته وهي معلّقة، وقد استجبتها له حتى يتم قضائي، فإذا تم قضائي أنفذت ما سأل. قل للمظلوم: إنّما أؤخّر دعوتك وقد استجبتها لك على من ظلمك لضروب كثيرة غابت عنك، وأنا أحكم الحاكمين. إمّا أن تكون قد ظلمت رجلاً فدعا عليك، فتكون هذه بهذه، لا لك ولا عليك**»[١].

فقد يكون الإنسان مظلوماً ولكنّه في الوقت نفسه ظالم لمن هو تحت سلطته، ومع ذلك يتوجّه بالدّعاء على من ظلمه.

وقد نُقل أنّ بعض المؤمنين انشغلوا بالدّعاء سائلين الله أن يعينهم على من ظلمهم، إلّا أنّ دعاءهم لم يستجب، فرأى أحد الزهاد في عالم المكاشفة أحد المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وهو يقول له: «**سبقتكم دعوة مستجابة**» أي إنّكم ارتكبتم ظلماً من قبل، وقد سبقكم المظلوم بالدّعاء عليكم، ولذا لم تُستجب دعوتكم.

لذا ينبغي للإنسان أن يحذر من ارتكاب الظلم في حياته.. فالأستاذ مثلاً لا يظلم تلميذه، والوالدان لا يظلمان أولادهم.. وهكذا تسري القاعدة على مختلف أنواع العلاقات بكل دقّة، كالدّقة في التعامل بالمال والثّروة.. كما يجب الحذر من الظّلم في العلاقات الاجتماعية، لئلّا يمنع الظلم من استجابة الدعوات..

وكما في الرواية السّابقة: «**وإما أن تكون لك درجة في الجنة لا تبلغها عندي إلّا بظلمه لك**»[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ج١٤ ص٤٢.
(٢) بحار الأنوار: ج١٤ ص٤٢.

ولا يخفى أنّ بعض درجات الجنة تُنال بالصّلاة والصوم والعبادة، بينما المقدار الأكبر منها يُنال بالتحمّل ومقاومة المصاعب في الدّنيا..

وعلى سبيل المثال: لو كانت منزلة المؤمن في الجنة بمقدار ألف وثمان مئة درجة، فقد تكون خمسمائة درجة منها لأداء العبادة، ومئة أخرى منها لفعل الخيرات، ومئتان منها عائدة إلى حُسن الخلق، أمّا الألف درجة الأخرى فتُعطى لتحمّل الإنسان الظلم ومقاومته له في دار الدّنيا.

شروط استجابة الدّعاء

عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**كان بين قوله: قد أجيبت دعوتكما وبين أن أخذ فرعون أربعون سنة**»(١).

فقد بُشّر نبيّ الله موسى وأخوه هارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ باستجابة دعائهما على فرعون، ولكن استغرق الأمر حتى اُستجيبت هذه الدعوة أربعين سنة من سنيّ الدّنيا، وهي غير ذات بالٍ أبداً في حساب الله عزّ اسمه.

وفي الخبر: «**أنّ رجلاً أتى النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فقال: ادعُ الله أن يستجيب دعائي، فقال: إذا أردت ذلك؛ فأطبْ كسبك**»(٢).

فمن شروط استجابة الدّعاء طيب الكسب، ولذا ينبغي لمن أراد لدعائه الإجابة أن لا يغشّ في المعاملة أو يأكل المال الحرام.

وفي الخبر: أنّ نبيّ الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رأى رجلاً يتضرّع تضرعاً عظيماً ويدعو رافعاً يديه ويبتهل(٣)، فأوحى الله إلى النبيّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لو فعل كذا وكذا لما

(١) بحار الأنوار: ج١٣ ص١٤٠.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٥ ص٢١٧.
(٣) للابتهال أنواع: منها أن يرفع الداعي يديه إلى اللّه، مفرّقاً بينهما.

استجبت دعاءه، لأنّ في بطنه حراماً، وعلى ظهره حراماً، وفي بيته حراماً»[١] فمن يأكل الحرام ويلبس الحرام وبيته مُقام على الحرام، كيف تدخل عليه رحمة الله وعنايته؟!

ومن شروط استجابة الدّعاء أيضاً الإلحاح به، وقد نُقل عن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قوله: «**إنّ الله يحبّ السائل اللحوح**»[٢] فهو تبارك وتعالى يختلف شأنه عن عبيده الذين لا يحبون إصرار الآخرين.. فلا بد للعبد أن لا يكلّ أو يملّ من الدّعاء والمسألة إلى الله تعالى، ولو كلّفه ذلك التكرار مرات ومرات، لأنّ الإلحاح من شروط استجابة الدّعاء، وعن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**والله! لا يلح عبد مؤمن على الله في حاجة إلّا قضاها له**»[٣].

موانع استجابة الدّعاء

بينما كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يخطب في المسلمين، انبرى إليه رجل وسأله عن قول الله تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٤] فقال: ما بالنا ندعو فلا يجاب؟

فأجابه الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بجواب جامع لموانع استجابة الدّعاء، وذلك ضمن ثمانية أسباب، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إن قلوبكم خانت بثماني خصال**»:

أولها: إنّكم عرفتم الله فلم تؤدّها حقّه كما أوجب عليكم، فما أغنتْ معرفتكم شيئاً[٥].

إذ إنّ البعض يرى نفسه مديناً لأخيه الذي أحسن إليه، ويسعى حثيثاً إلى ردّ إحسانه بمثله، والحال أنّ الله عزّ وجلّ أحسن إليه كثيراً وكل ما عنده منه، لذا ينبغي أن يسعى المرء بقدر وسعه إلى جبر إحسانه.. الأمر الذي يتطلب كثيراً من التأمّل والتدبر،

(١) مستدرك الوسائل: ج١٣ ص١٤٠.
(٢) وسائل الشّيعة: ج٧ ص٦٠.
(٣) مستدرك الوسائل: ج٥ ص١٩٣.
(٤) سورة غافر، الآية: ٦٠.
(٥) مستدرك الوسائل: ج٥ ص٢٦٨.

وقد أكد على ذلك في كثير من الآيات ومنها قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾[١] و﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢] و﴿أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾[٣].

الثّانية: إنّكم آمنتم برسوله ثم خالفتم سنّته وأمتّم شريعته، فأين ثمرة إيمانكم؟.

لأنّ النّاس مطالبون بالعمل بسنّة نبيّ الإسلام صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ويتأكدوا من التزامهم بذلك..

الثالثة: إنّكم قرأتم كتابه المنزل عليكم فلم تعملوا به، وقلتم سمعنا وأطعنا ثم خالفتم.

الرابعة: قلتم: إنّكم تخافون من النار وأنتم في كل وقت تقدمون إليها بمعاصيكم، فأين خوفكم؟!.

الخامسة: إنّكم قلتم: إنّكم ترغبون في الجنة وأنتم في كل وقت تفعلون ما يباعدكم منها، فأين رغبتكم فيها؟!.

فمثل طالب العلم لو ضيّع أكثر وقته، فهو ـ في حقيقته ـ لا يريد أن يصبح عالماً، كذا الكاسب الذي لا يقعد للبيع والشراء سوى ربع ساعة في اليوم، فهو ليس بكاسب، ولا يريد أن يتكسب أصلاً.

ومن هنا فمن يدّعي الرّغبة في الجنة ولا يسعى لها سعيها، فإنه يرغب عن الوصول إليها..

السادسة: إنّكم أكلتم نعمة المولى، ولم تشكروا عليها.

لأنّ النّعم الإلهيّة تحيط بالإنسان من كل جانب وتتنزّل عليه باستمرار، ومنها نعمة اللسان والأُذن واليد والرّجل وغير ذلك، وكثير من النّاس غافلون عنها، ولا يلتفتون إلى وجودها وعظيم فضلها إلّا حينما يفقدونها، فمن يفتقر إلى اللسان يعجز عن التعبير عما يريد بشكل تام، والأصم لا يستطيع إدراك ما يقال له.

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.
(٣) سورة يس، الآية: ٦٨.

وقد ورد في الرّوايات عن أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أنّ من قلّة التفكير وضعف البصيرة أن يقتصر نظر الإنسان على النّعم الإلهيّة الظاهرية فقط..

السابعة: إنّ الله أمركم بعداوة الشّيطان وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[1] فعاديتموه بالقول، ووالیتموه بالمخالفة.

الثامنة: إنّكم جعلتم عيوب النّاس نصبَ عيونكم، وعيوبكم وراء ظهوركم، تلومون من أنتم أحق باللوم منه، فأي دعاء يستجاب لكم مع هذا؛ وقد سددتم أبوابه وطرقه؟!.

من عاب على غيره عيباً واحداً فقط يصعب استجابة دعائه، فما بالك بالمنكبِّ على عيوب الآخرين.. وكذا من كان منغمساً في الذنوب والخطايا..

ثم بيّن الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كيفية رفع موانع استجابة الدّعاء، فقال:

«**فاتقوا الله، وأصلحوا أعمالكم، وأخلصوا سرائركم، وأمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، فيستجيب الله لكم دعاءكم**»[2].

وللإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ رواية أخرى أشار فيها إلى موانع استجابة الدّعاء، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «...**التي ترد الدّعاء وتُظْلِمُ الهواء: عقوق الوالدين**»[3].

والعقوق لغةً: هي الترك، ولذلك قيل لما يذبح عند ولادة الطفل: «عقيقة» وذلك لإبعاده عمّا يتعرّض له من البلاء والضرر.

بالطّبع عقوق الوالدين غير مقتصر على تصريح الوالدين بعقِّ ولدهما فحسب، وإنما هو بمجرد ممارسة الولد سلوكاً لا يتفق مع رغباتهما، فيكون ذلك مانعاً من استجابة دعاء الولد، ولذلك كان احترام الوالدين وتلبية رغباتهما أمرين مهمين للغاية، قال عزّ من قائل: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا

(١) سورة فاطر: ٦.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٥ ص٢٦٩.
(٣) الكافي: ج٢ ص٤٤٨.

وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[١] وحيث «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[٢] فإنّ طاعة الوالدين من حيث الأخلاق والشرع أمر لازم، باستثناء ما يؤدي إلى معصية الخالق..

وفي الخبرعن نوفٍ: أنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «**إنّ الله أوصى إلى عيسى بن مريم... قل لهم: اعلموا أنّي غير مستجيب لأحدٍ منكم دعوة ولأحدٍ من خلقي قبله مظلمة**» ثم قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**يا نوف! إياك أن تكون عشّاراً، أو شاعراً، أو شرطياً، أو عريفاً!**»[٣].

فالعشّار هو: الذي يأخذ أموال النّاس غصباً ليسلمها إلى السلطان الجائر.

والشاعر هو: المتقوّل بغير الحق، ومَن يقصدهم الظلمة والغاوون له ليصوروا للناس سيئات أعمالهم حسنات، فيخدعوهم بعذب الكلام، الذين قال الله تعالى عنهم ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾[٤] وإلّا فإنّ الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ كانوا يعدّون الشعر والبلاغة من السمات الممدوحة حتى أنهم عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وصفوا أكثر من مرة بعض الشعراء بأنّ روح القدس قد نطق على ألسنتهم[٥] لتعبيرهم عن الحقّ ومدى التصاقهم به..

كما كانوا عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ يرغّبون في قول الشعراء ويقدّمون لهم الهدايا القيّمة، ومن ذلك أنّ الكميت[٦] جاء إلى الإمام الكاظم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فسأله الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أنت

(١) سورة لقمان، الآية:١٥.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ج٢ ص٦٢١.
(٣) بحار الأنوار: ج٧٤ ص٤٠١.
(٤) سورة الشّعراء، الآيه ٢٢٤.
(٥) عيون أخبار الرّضا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ج١ ص ٢٩٧.
(٦) أبو المستهل الكميت بن زيد بن خنيس بن مجالد الأسدي الكوفي، كان من أكابر الشعراء، وأماجد البلغاء، معدوداً من سفراء مولانا الباقر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وخاصّته، مذكوراً بكل خير عند الطائفة، كان ذا ولاء كبير لأهْل البَيت عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ولد في سنة (٦٠) قيل في حقّه ما جمع أحد من العرب من مناقبها ومعرفة أنسابها ما جمع الكميت، فمن صحح الكميت نسبه صح،

الذي تقول:

فـــالآن صِـــرتُ إلـــى أمـــيّـــةَ والأمـــــــور إلـــــى مـصـائـر

وهو بيت من قصيدة مطولة امتدح فيها الكميت بني أمية، فأجاب الكميت رحمه الله الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: «قد قلت ذلك، فوالله ما رجعت عن إيماني، وإنّي لكم لموالٍ، ولكني قلته على التقية»[1].

ومنه يظهر أنّ دعاء الشاعر الذي يركع للباطل وللمال الحرام غير مستجاب.

والمراد بالشرطي: الخادم في سلك الحكام الظلمة، والذي يجلب النّاس إلى الظّلمة.

والعريف هو: الذي يعرّف للظالم مناوئيه، ولعله المسؤول عن قسم من أقسام النظام الظالم..

وفي الخبر أنّ نبيّ الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ خرج ذات ليلة، فنظر إلى السماء، فقال: إنّها السّاعة التي لا تردّ فيها دعوة إلّا دعوة عريف أو دعوة شاعر أو دعوة عاشر»[2].

والحاصل: أنّ الدّعاء لا بد أن يكون مقروناً بالعمل، ولا فائدة لأيّ منهما دون الاقتران. وإن للدعاء منزلة سامقة قد أنعم الله تعالى بها على الإنسان.. وعلى خلاف طبع كثير من النّاس أنّهم لمّا تتضاعف ثروتهم أو يكثر علمهم، أو تشتد قوتهم يتعالون على النّاس، لكن الله جلّ وعلا وهو مالك الملك، أجاز لعبده أن يخاطبه ويدنو منه، ولا يمكن تصور قيمة للإنسان دون هذه الإجازة وهذه النّعمة، ولكي تأخذ هذه

ومن طعن فيه وهن، وكانت في الكميت عشر خصال لم تكن في شاعر قبله: كان خطيب أسد، وفقيه الشّيعة، وحافظ القُرآن، وثابت الجنان، وكان كاتباً حسن الخط، وكان نسابةً وكان جدلاً، وهو ممن ناظر في التشيّع، وكان رامياً ماهراً، لم يكن في أسد أرمى منه، وكان فارساً وشجاعاً، وكان سخياً ديّناً، استشهد في الكوفة في عهد مروان سنة (١٢٦هـ).

(١) مستدرك الوسائل، ج٢ ص ١٢٧.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٤ ص٤٠١.

المنزلة العظيمة للدعاء مصداقيتها هناك شروط عديدة، ولا يخفى أنّ هذه الشّروط صعبة التحقق ولكنّها غير مستحيلة، وقد أوضح الإسلام هذه الشروط والسبل الكفيلة بتحقّقها ضمن آيات وروايات جمة[١]..

وفي نهاية المطاف نذكر ما أشار إليه السّيد ابن طاووس رحمه الله فيما يتعلّق بشروط استجابة الدّعاء، ولعلّه من أهمها، فقال: «أن لا يكون عاذراً لظالم على ظلمه»[٢] ما يدل على نقاء السريرة ونزاهة النّفس التي ترفض العيب على جميع الأصعدة..

(١) راجع بحار الأنوار، ج٩٠ ص ٣٥٤.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٤ ص٤٠١.

الإحسان إلى الأنفس

قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**وأحسنوا إلى أنفسكم ما استطعتم، فإن أحسنتم، أحسنتم لأنفسكم، وإن أسأتم، فلها، وجاملوا النّاس**».

هناك اصطلاح في كتب البلاغة يسمّى (تقابل الجمع)، ومفاده أنّ للجملة ظهوراً في كل الأفراد، فإذا قيل مثلاً: «باع القوم دوابّهم» فهو يعني أنّ كلًّا منهم قد باع دابته منفرداً وليس أنّهم باعوا دوابهم مجتمعين.

وقول الإمام الصّادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**وأحسنوا إلى...**» مصداق لتقابل الجمع، أي: إنّ كل شيعي مكلّف بالإحسان إلى نفسه بشكل مستقل، فأحسن (أنا) إلى نفسي، وتحسن (أنت) إلى نفسك، ويحسن (هو) إلى نفسه، منفردين.. إلى أن يشمل الأمر جميع النّاس ويكون ذلك بمثابة الأساس لتثبيت حالة أخلاقيّة تعم المجتمع فيما بعد.

ولكن ما هو المقصود بالإحسان؟

فقد يتصور البعض أنّه واضح وغني عن التعريف.. إلّا أنّ الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عضد كلامه بقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1] ليوضح مقصوده من الإحسان شيئاً ما.

فهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقبل الاستدلال بالآية أكد على ضرورة الإحسان إلى الذّات بحدود وسع النّفس وطاقتها، فقال: «ما استطعتم».

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧.

وقفة مع الكلمات

عندما نراجع الآيات المباركة والرّوايات الشّريفة نجد أنّ بعضها علّقت إتيان العمل بـ(استطعت) بينما عبّر في بعضها بـ(شئت)علماً أنّ للتعبيرين معاني ومداليل متفاوتة، وتستعملان في موارد مختلفة.

فكلمة (استطعت) تقرن بالأمور الواجبة المهمّة، فإذا وردت فهي تعني ضرورة إنجاز المهمّة على قدر الاستطاعة، قال عزّ وجلّ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[١] أي: التزموا بالتّقوى ما كان لكم من القوّة والمكنة، مع استثناء موارد العجز عن ذلك، وهذا الاستثناء منفصل عن الأمر بوجوب التزام التّقوى..

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[٢]

وفي المقابل تستعمل كلمة (شئت) في موارد التخيير في كيفية تطبيق الحكم.

ومثال ذلك ما أورده الشّيخ الأنصاري رحمه الله في كتابه (المكاسب) عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال: «أخوك دينك، فاحتط لدينك بما شئت»[٣].

فالماء المشكوك الذي لا يُعلم كونه طاهراً أو نجساً، فالأرجح تركه.

إذن كلمة (شئت) لا تتضمن أمراً لازماً، بل تفيد التخيير في إتيان العمل على قدر المشيئة.

وفي هذا القسم من الرّسالة استخدم الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كلمة (استطعت) المتضمنة أمراً واجباً لازماً، لأنّ (القدرة) شرط التّكليف، وبالطّبع هذا القانون يفيد الوجوب في الأمور الاقتضائية، أمّا الأمور غير الاقتضائية فهو يفيد فيها الاستحباب للأدلّة العامّة..

(١) سورة التغابن، الآية: ١٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.
(٣) وسائل الشّيعة: ج٢٧ ص١٦٧.

وعلى أيّة حال، فإنّ الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يخيّر الشّيعة بالتزام الإحسان، بل عدّه أمراً لازماً لا يسع الإنسان الامتناع أو الغفلة عنه.

وقد استشهد عَلَيْهِ السَّلَامُ بآية قُرآنية كَريمة لتوضيح كلامه مشيراً إلى أنّ من يحسن فهو يحسن لنفسه، وكما روت الخاصّة والعامّة في كتب التفسير والحديث والتّاريخ عن أَمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه» وتلا قوله تعالى﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1]، بمعنى أنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ إن أحسن إلى أحد فقد أحسن إلى نفسه، وإن أساء إليه شخص فقد أساء ذلك الشخص إلى نفسه[2].

لذا ينبغي للإنسان أن يلقّن نفسه بأنه حينما يحسن إلى الآخرين، فهو في الواقع يحسن لها، رغم أنهم استفادوا من إحسانه، إلّا أنّ الفائدة الكبرى تعود إليه قبل غيره.

فإنّ ظاهر الأمر أنّ الفائدة مقتصرة على المحسَن إليه.. غير أنّ الثّواب الذي يناله المحسنون أكثر بكثير لأنّ الآخرة أكثر فائدة على المحسن ممّا يقدمه في دار الدّنيا، فمن واجه سوء أخلاق أخيه المؤمن بالصبر والمداراة والصفح، لم يحسن إليه بقدر إحسانه لنفسه.

وينبغي أن يصبح الإحسان إلى الآخرين ملكة في ذات الإنسان ترافقه في مختلف الأحوال، في الغنى والفاقة، في اليسر والعسر، في الفرح والحزن..

وقد نُقل عن السّيد البروجردي رحمه الله الذي كان زعيماً للحوزة العلميّة أنّه رغم عظيم مسؤولياته وكثرة الأزمات والمشاكل التي كان يواجهها، قال: إنّ يديّ تكلّان من كثرة قبض الأموال وإمضاء الوصولات من أول الشهر إلى آخره.. والحال أنّه

(١) سورة الإسراء، الآية:٧.

(٢) انظر تفسير جوامع الجامع للشّيخ الطّوسي، ج٢ ص ٣٦١، وتفسير الكشّاف للزّمخشري، ج٢ ص ٤٣٩، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج٦ ص٢٣٦، وتفسير روح المعاني للآلوسي، ج١٥ ص ١٩ وغيرها.

من المفترض أن يُسرَّ لتقديم رواتب الطّلاب الشهرية، لأنّه لو لم يتسلّم الأموال من النّاس، لاضطر إلى الاقتراض أو تحمّل مختلف المصاعب والمشاكل..

وكان رحمه الله كما نُقل عنه ـ يقول: «إنّ إعطاء المال أيسر عليّ من تسلّمها، لأنّ من يتسلّم الأموال يصبح مسؤولاً عنها، ولكنّه إن أعطاه ـ ضمن قواعد شرعية محدّدة ـ يكون قد أفرغ ذمته من مسؤوليّة حفظه.. ».

ولعل خير مصاديق الإحسان إلى الآخرين هو أن يتعامل الإنسان معهم بالأخلاق الفاضلة التي تعود بالدرجة الأولى على صاحبها قبل الآخرين.

ذخيرة الآخرة

ورد في العديد من الرّوايات أنّ الذي يجد من يحمل له زاده إلى الآخرة بتقديم المساعدة الدّنيويّة إليه، فعليه المبادرة إلى ذلك.. وما زاد الآخرة إلّا الأخلاق الحميدة، وإعطاء الصدقة، وممارسة الخير، والخطابة والتدريس، وتقديم الهدية، وخدمة النّاس، وقضاء حاجات الآخرين.

فإنّ للمال تأثيراً كبيراً على النّاس خاصّة الأغنياء.. لأنّ صاحب المال يستغني عن مد يد الحاجة للآخرين في وقت الأزمة.. والعقل لا ينكر هذه الحقيقة المنطقية.. ولكن في مقابل كل ذلك على الإنسان أن يلقّن نفسه أنّه إذا قضى حاجات الآخرين يكون كمن ادخر لنفسه ثروة طائلة في عالم الآخرة.

فمن يقضي حاجة مؤمن في الدّنيا تقضى له مئات الحوائج في الآخرة.. وهذا هو معنى الإحسان للذات، وليس أن يأكل الإنسان أو ينام جيداً.. فقيمة الغنى الحقيقيّة هي ما يبذل منه لضمان الآخرة، حيث يأخذ بيد الآخرين ويلبي حاجاتهم ويساهم في حل معضلاتهم..

وفي بعض الكتب القديمة: أنّ أحدهم كان يوجر النار تحت إبريق الشاي بالعملات الورقية.. ما يدل على سفاهة العمل وجهالة القائم به؛ لأنّ بوسعه أن يبتاع لنفسه بهذا المال مئات الأقداح من الشاي إن لم نقل الآلاف..

وكذا هو العمر الذي يُتلف في اللغو وتوافه الحياة، والحال أنّ قيمته بما يُستثمر منه لدار الآخرة، أمّا غير ذلك من الأوقات فسيندم الإنسان عليها في الآخرة..

ولعل تضييع فرصة من العمر أكبر ضرراً من إحراق الأموال؛ لأنّ المال يمكن تعويضه، أمّا فرص العمر فهي الثّروة الحقيقيّة التي تمر مرّ السحاب، ولا يمكن إعادة عقارب العمر إلى الوراء.. ولعمري إنّ من يتلف عمره وشبابه أجهل وأشد سفهاً ممّن يتلف أمواله ويحرقها لإشعال النار تحت إبريق الشاي بأضعاف لا تعد ولا تحصى..

بالطّبع الاستطاعة في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وأحسنوا إلى أنفسكم ما استطعتم**» تعني القدرة، وهي شرط عقلي وليس شرعيّاً..

ولعل خير مثال لذلك: من يمرض أحد أقربائه وليس لديه من المال ما يعالجه به ولكنّه قادر على الاقتراض وتأمين ما يحتاجه قريبه المريض ومع ذلك لم يقترض حتى توفّي قريبه، فلو سُئل: ألم تكن قادراً على اقتراض المال فتعالجه به؟

فليس له سوى الإقرار بقدرته على ذلك.. وهذا هو معنى الاستطاعة الواقعية..

خلاصة القول: إنّ المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أرادوا منّا إعمار آخرتنا بما استطعنا من العمل والإحسان في حياتنا الأولى..

اقترض وتصدّق

روي أنّ رجلاً جاء إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وقال له: إنّي فقير ولا أملك شيئاً، فقال له النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: تصدّق! فقال الرّجل متعجباً: ليس لي ما أتصدق به يا رسول الله. فقال له النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: اقترض وتصدّق.. ففعل الرّجل ذلك، وبهذا العمل يكون قد حل مشكلة دنيوية واكتسب ثواباً لآخرته..

ولا ريب أنّ أعمال الخير ينبغي أن لا يشوبها منٌّ لأنّه يحبط العمل، فمن يدخر ماله في مصرف من المصارف ليس من الصحيح أو المتوقع أن يمنّ بذلك على

الآخرين، فإنّ منّه بذلك يدعو للضحك. وكذا الذي يخدم الآخرين ثم يلحق ذلك بالمنّ، فهو يعرّض نفسه للضحك والسخرية.

بالطّبع كما يلزم التكرار في الممارسة حتى تتحقّق الملكة في ذات الإنسان، كذا يلزم تسليط المزيد من الضغط على النّفس لتنقاد إلى ذلك، لأنها ليست سهلة الانقياد، فقد تتمرّد بعد تأهيلها.. ممّا يستدعي الكثير من الضغط والمراقبة والمحاسبة وعدم الغفلة عن هذه المهمّة الشائكة..

الاستجابة السريعة للدعاء

نقل لي أحدهم بانفعال بالغ كيف قُضيت حاجته بسرعة بالغة، فقال:

كانت لي حاجة ملحة ذات يوم فانشغلت بالدّعاء والتوسل، فاستجيبت توسلاتي على الفور.. وكان ذلك مدعاةً لسروره وسعادته..

أقول: إنّ استجابة الدّعاء السريعة أمر جيد.. إلّا أنّ كثيراً من العلماء والعباد يحذرون من مغبة ذلك، فقد يكون ذلك نوعاً من الاستدراج..

عن سنان بن طريف قال: قلت لأبي عبدالله عَلَيْهِ السَّلَامُ: خشيت أن أكون مستدرجاً، قال: وَلِمَ؟ قلت: لأني دعوت الله أن يرزقني داراً فرزقني، ودعوت الله أن يرزقني ألف درهم فرزقني ألفاً، ودعوته أن يرزقني خادماً فرزقني خادماً، قال: فأيّ شيء تقول؟ قال: أقول: الحمد لله، قال: فما أُعطيت أفضل ممّا أعطيت[1].

وفي بعض الرّوايات أنّ الله تعالى إذا لم يحبّ أحداً ولم يرد له أن يكون مع الأولياء والصّالحين في الدار الآخرة استدرجه[2]، أي: سخّر له الأسباب وامتحنه شيئاً فشيئاً، والاستدراج هو التنقل بالتفضل بنعمة بعد أخرى.. كما يقال للسلّم درجاً، أي: فيه درجات متتالية..

(١) مستدرك الوسائل، ج٥ ص ٣١٠.
(٢) راجع بحار الأنوار، ج٧٣ ص ٣٧٧.

ومن هنا يحذر أولياء الله من الاستجابة السريعة لأدعيتهم، خشية أن يكون ذلك نوعاً من الاستدراج.

أجل ينبغي للإنسان أن ينشغل بما لديه فيحمد الله تعالى على ما تفضّل عليه من النّعم، لا أن يشغل باله بما في أيدي النّاس؛ لأنّ الحاجات الأخرويّة أكثر من الحاجات الدّنيويّة..

حقّاً! لولا أقوال وأفعال المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لما أبصر الإنسان موطىء قدمه، ولبقي متعثراً بين المتاهات.. ففي سيرتهم المضيئة كل الخير، وعنهم يصدر النّور، ومنهم ينبع الصّلاح.

هكذا يكون الإحسان

كان الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ يحبّ العنب، وذات يوم مرّ أحد خدمه في السوق، فرأى عنباً جيداً وجديداً، فابتاع منه شيئاً من ماله الخاصّ دون أن يخبر الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بذلك، ولما حان وقت الإفطار وضع منه قسماً أمام الإمام، فتبسّم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما مدّ يده ليتناول منه طرق الباب فقير، وقال: أنا فقير جائع وقد حان وقت الإفطار، فأطعموني ممّا لديكم، فقال الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ للخادم: خذ العنب وأعطه إيّاه. فقال الخادم: ولكن الفقير لا يحتاج كل هذا العنب يا بن رسول الله، فلو أعطيناه قسماً منه، لتتناول منه ما تحب.

فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ناوله إيّاه كلّه، فامتثل الخادم أمر الإمام، ثم تناول عَلَيْهِ السَّلَامُ إفطاره.

وفي اليوم التّالي كان الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ صائماً أيضاً، فقصد الخادم السوق واشترى من العنب نفسه مرة أخرى، وقدّمه للإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ وقت الإفطار، فسرّ الإمام أيضاً، ولمّا هَمَّ بتناول شيءٍ منه، طرق الباب فقير آخر طالباً شيئاً من الطعام، فناول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ الخادم جميع العنب ليحمله إلى الفقير..

وحدث ذلك مرّة ثالثة... وفي اليوم الرابع تناول الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ العنب حيث لم يقصده فقير آخر[١].

هذا هو مصداق الإحسان للذات في القُرآن الكَريم والرّوايات الشّريفة، وهو بحاجة إلى عزم ودعاء، لأنّنا لا نملك من القدرة إلّا القليل، ونعجز عن تزكية نفوسنا إلّا بدعم رباني يسندنا في هذه المهمّة العظيمة.. فكما ندعو الله عزّ وجلّ لأمور دنيانا ينبغي أن نطلب المدد منه تعالى لأمور آخرتنا.

والكثير من النّاس لكي تقضى حوائجهم الدّنيويّة يواظبون على قراءة (زيارة عاشوراء) مدّة أربعين يوماً، بإقبال وحضور قلبي، ولكنّهم يغفلون عن ذلك في الأمور الأخرويّة كتزكية النّفس، علماً أنّ مشاكل الدّنيا مهما كانت فهي محدودة، ولا يمكن مقارنتها بمشاكل وعقبات الآخرة.

وقد نقل أحد مراجع التقليد السّابقين قائلاً: كنت قليل الاختلاط بالنّاس قبل أن أتصدى للمرجعيّة، وحينما أصبحت مرجعاً دينياً للتقليد آليت على نفسي أن لا أعتب أحداً في أمر ولا أتوقع من أحد شيئاً، وهذه لعمري قضية صعبة لأنّ سكوته كان يسوقه إلى الغضب، فهو مهما روّض نفسه يبقى إنساناً..

يبقى القول: إنّ من يخدم الآخرين إنّما يملأ قائمة أعماله بالصالحات، ولذا يلزمه العزم على تكرار العمل ليتحوّل إلى ملكة ذاتية.. وليعلم أنّه ما لم ينل شرف هذه المرتبة فمن الصعب عليه إدراك آفاقها وأبعادها واللذة المعنوية الموجودة فيها..

(١) الكافي: ج٦ ص٣٥٠.

الرّضا بصنيع الرب

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**اعلموا أنّه لنْ يؤمنَ عبدٌ من عبيده حتى يرضى عن الله؛ فيما صنعَ الله إليه، وصنعَ بهِ، على ما أحبَّ وكره. ولنْ يصنعَ الله بمنْ صبرَ ورضيَ عنِ الله إلّا ما هوَ أهلُه، وهو خيرٌ له ممّا أحبَّ وكرِهَ**».

لا يكتمل إيمان العبد ما لم يرضَ بقدر الله عزّ وجلّ.. والمقصود بالإيمان هنا الدّرجات الأسمى منه، لأنّ للإيمان درجات ومراتب، فإن لم يرضَ الإنسان بالمقدرات الإلهيّة لن يرقى إلى أعلى الدّرجات، ويكون إيمانه كاملاً.

وكلمة (العبيد) هي ذاتها كلمة (العباد) إلّا أنّ الأولى تستعمل في البعد السلبي، خلافاً للثانية فهي تستعمل في البعد السلبي والإيجابي.

وفي المقام استعمل الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أداة (لن) للإشارة إلى انتفاء الإيمان عنهم انتفاءً أبديّاً، ما لم يرضوا بقدر الله.

ففي الدّنيا الفانية يتعرّض الإنسان إلى حالات متعددة ومتفاوتة، إذ إنّ الجميع يرغبون في العلم وطول العمر، والثّروة والزوجة والذرية، والمنزلة الاجتماعية المرموقة والنّجاح، وفي مقابل ذلك ثمّة أمور لا يرغب بها النّاس كالفقر والمرض والمظلومية..

والإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يؤكد أنّ بين هذا وذاك هناك حقيقة ثابتة وغير قابلة للتبديل والتحويل، وهي أنّ الإنسان ما لم يرضَ بجميع هذه الأحوال ـ الراحة والسّلامة

والغنى، أو الفقر والمرض والبؤس ـ ويسلّم لله تعالى في تقديرها وتثبيتها أو تغييرها لا ينال الإيمان الحقيقي.

الجدير بالتأمّل تأكيد الآية الكَريمة الواضح على أنّ تقلبات الدّنيا السيئة إنّما هي لممارسات الإنسان الخاطئة، فتحدو به إلى الانحدار سواء كان قاصراً في ذلك أم مقصّراً، ففي الحالتين لا يصدر الخطأ والسوء إلّا منه.

نكات لغوية

من خصائص اللّغة العربيّة أنّها تحتوي على لطائف ومميزات كثيرة ودقيقة للغاية، ومن ذلك: أنّ إضافة حرف واحد إلى فعل أو حذفه يغير من معناه.

وفي هذا القسم من الرواية الشّريفة دخل فعل (صنع) مرّة على حرف (إلى) وأخرى على حرف (ب) ليكون متعديّاً.

فإذا تعدّت مادة (صنع) بحرف (إلى) دلّت على معنى إيجابي وصالح، ولكنّها إن اقترنت بحرف (ب) تعدّت واستعملت في المعنى السلبي والأمر غير السار.

فإن وهب الله السّلامة لأحد، قيل: «صنع الله إليه العافية»..

أمّا إذا سلبه إياها وعرضه للمرض، قيل: «صنع الله به المرض»..

وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فيما صنع الله إليه وصنع به على ما أحب وكرِه» من قبيل اللّف والنشر، فإنّ: «صنع الله إليه» متعلّقة بـ: «ما أحب»، و«صنع به» عائدة على ما: «كرِهَ»..

فمن المفترض للإنسان أن يتأقلم مع التقادير الإلهيّة ويقنع بكل الأحوال ولو كان مستاءً من بعض الأمور، ففي هكذا مواقف لا بد أن يخاطب نفسه: إنّ الله قدّر لي ذلك، ولا بد لي من الرّضا برضاه وقدره، ولو أنّ هذه الظروف لا تلائمني، ولكنني أرضى بها تسليماً لإرادة الله تعالى، لأنّ كل ما يصدر عن الله العادل الرحيم سيصب في مصلحتي في نهاية المطاف إن أحسنت الموقف والتصرف تجاهه..

الرّضا بقدر الله عزّ وجلّ

من أشد المصائب التي وقعت في تاريخ البشرية هي مصيبة سيد الشهداء عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلما كانت مصلحة الإمام الحسين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بل وعموم أهْل البَيت عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وأتباع الحقّ على امتداد التّاريخ في هذا النوع من البلاء، شاءت إرادة الله تعالى أن ينزل هذا البلاء...

ولا يخفى أنّ مصلحة الإنسان لا تعني الراحة الصرفة في الدّنيا، وإنّما تكون مصلحته بعد تقييم دقيق لأحواله في دنياه وآخرته.. والإنسان غير غافل عن هذه الحقيقة في أموره الدّنيويّة، فمن يدخر مبلغاً كبيراً من المال لأمر هام كالزواج، فهو لا يصرف ما ادخره في الأمور التافهة..

وأفعال الله عزّ وجلّ على هذا الأساس أيضاً حيث يعامل كل عبد من عباده طبقاً لمصلحته.. وما يتعرض له العباد يصب في مصلحتهم دون أدنى شك، سواء رضوا بذلك أم رفضوه.. فالله عزّ وجلّ يسوق الجميع باتجاه مصالحهم.. ولذا ينبغي لهم أن يلتزموا بالصبر في البلاء فيرضون برضا الله في كل الأحوال..

تفاوت الصبر والرّضا

هناك فرق بين الصبر والرّضا، ولكل منهما درجات متفاوتة.

فلما يشكو العبد ربّه.. ويعترض على تقدير معين لا يقال له: عبد صابر أو راضٍ..

ولما لا يعترض العبد على خالقه فيسكت لتعقّله وتحمّله، ولكنّه في الوقت نفسه غير راضٍ، يقال له: عبد صابر...

وهناك مرحلة أرفع من الصبر أشار إليها الإمام الصّادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في وصيّته لشيعته وهي أن لا يعترض العبد على فعل ربه، ويشكره على كل حال.. وهذه هي مرحلة الرّضا المرجوة، فيقال لهذا العبد آنذاك: صابر راضٍ.

يقول أحد الأشخاص: أصبت بفقر شديد صعب عليّ تحمله، ومع ذلك حاولت أن أحفظ كرامتي وحرصت على أن لا يعرف أحد بما بي من الفقر.

وفي أحد الأيام حملت القُرآن الكَريم وقصدت حرم الإمام أَمير المؤمِنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ووقفت أمام الضريح وفتحت القُرآن دون أن ألقي السّلام أو أقرأ الزيارة، وقلت: يا أَمير المؤمِنين! إنك تسمع وتعلم، ثم تلوت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[1] ثم خاطبت الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قائلًا: أقسم بالله يا أَمير المؤمِنين أنني لا أدرك مفهوم هذه الآية (!) قلت ذلك وخرجت.. وإذا بي ألقى شخصاً في الصحن الطاهر فأعطاني مقداراً من المال.. ومنذ ذلك الحين وحتى الآن لم أحتج لأيّ مال..

لم يطق ذلك الرّجل ما نزل به، ولكن من الممكن أن تجد شخصاً آخر يتعرض للموقف نفسه غير راضٍ بما أصيب، ولكنّه لا يُقدم على ما أقدم عليه صاحب القصّة.

ونقل أحدهم، فقال: كنت أقرأ دعاء أبي حمزة الثمالي، ولما بلغت قوله: «ورضّني من العيش بما قسمتَ لي» تحاشيت قراءتها لعلمي بصعوبة درك كنهها، أو تطبيقها والتلبس بها...

فإنّ الإنسان الصابر الراضي لا يفتأ يشكر ويحمد وإن نزلت به أنواع المصائب.. وما ذلك إلّا لرضاه القلبي بذلك.. ومن هنا أكد الإمام الصّادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على تفعيل حالة الرّضا.

بالطّبع الارتقاء إلى منزلة الرّضا ليس بالأمر السهل أبداً، ولا يسع المرء بلوغها بيسر: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[2] ولكن كما ينبغي للإنسان أن يسعى لتوفير طعامه ورفع مشاكله المادية، كذلك لا بد له من السّعي لتحقيق الأمور المعنوية..

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٨.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

الرّضا بالمصالح الإلهيّة

استفاد الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا القسم من رسالته الكَريمة من أداة (لن) الدالة على النفي المؤبد مرتين:

الأولى: بالنّسبة لعبيد الله تعالى.

الثّانية: بالنّسبة لله عزّ اسمه.

أمّا فيما يخص الرب قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولن يصنع الله بمن صبر ورضي عن الله إلّا ما هو أهله، وهو خيرٌ له مما أحبّ وكره».

فقد يهب الله عزّ وجلّ لأحدِهم ـ طبقاً للمصلحة ـ الذرية الكثيرة بحيث يعجز عن نفقتها، ويمنع عن آخر الولدَ.. وليس من شك في وجود مصلحة في الهبة والمنع للشخصين..

قال لي أحد العلماء: كنت أعيل أسرة كبيرة، وقد تعرضت لضيق مالي شديد.. فكنت في كثير من الأيام أشتري ما أحتاجه ديناً.

وذات يوم أردت أن أشتري لأولادي طعاماً، فتناولت الزنبيل وخرجت من البيت ولم تكن في تلك الأيام ثلاجة لوضع الطعام، وإنما كان شراء الطعام يومياً...

فبلغت منتصف الزقاق وأنا أبحث عمّن يمكنني الشراء منه، فلم أجد أحداً إلّا وقد اقترضت منه ممّا قادني إلى الخجل والحياء أن أقترض مرة أخرى، علماً أنّ أحداً لم يطالبني بتسديد ما عليَّ من الديون.

فقلت في نفسي: لأذهب إلى أصدقائي لأقترض من أحدهم، ولكني تذكرت أنّي قد اقترضت منهم ولم أعد قادراً على الاقتراض من أحدهم ثانيةً.. فمضت مدّة وأنا حائر بأمري في وسط الزقاق، إذ عجزت عن التوصل إلى حل لمشكلتي.. وفجأة

خطر ببالي الحديث الشّريف: «إنّ الله تعالى قد تكفّل لطالب العلم برزقه»[١]. فرمقت السماء بعيني وقلت: إلهي! اقترضت ما استطعت، وقضيت الأيام بالدّين.. وها أنا ذا حائر في أمري.. قلت ذلك وتناولت الزنبيل وقصدت المدرسة، وانشغلت بالقراءة..

ولم تمض برهة على ذلك وإذا بخادم المدرسة يناديني قائلاً: هناك امرأة قدمت من بيتك تسأل عنك.. فاضطربت لذلك أيما اضطراب، إذ ليس من عادة نسائنا أن يأتين إلى المدرسة إلّا لأمرٍ جلل.. فخشيت أن يكون حادث خطير قد وقع لبعض أسرتي.. فتوجهت نحو باب المدرسة وأنا شارد البال مشغول الفكر.. فرأيت امرأة كانت تأتي بيتنا في بعض الأحيان لمساعدة أولادي..

فقالت: إنّ جارتكم الفلانيّة تريد رؤيتك على عجل لأمر من الأمور..

فتنهدت رويداً وشكرت الله تعالى بأنه لم يكن أمراً ذا بال.. وتناولت زنبيلي الفارغ مرة أخرى واتجهت إلى بيتي، فاستقبلني أولادي وهم يسألونني قائلين: لماذا لم تشتر لنا طعاماً؟ فقلت لهم: سأشتري ذلك لاحقاً.. ثم ذهبت إلى جارتي..

فوجدتها تريد السفر ـ وكان متعارفاً في تلك الأيام أن يضع من يريد السفر أمواله لدى شخص أمين يعرفه ـ وقالت: أريد أن أسافر، ولعل سفري يستغرق ستّة أشهر، وأريد أن أأتمنك على أموالي، ثم سلمتني إياها، فأخذتها وقلت لها: هل تسمحين لي بالتصرف ببعضها إذا مستني الحاجة لذلك؟

فقالت: لا ضير في ذلك، فأنت رجل أمين ولن تفرّط في أموالي..

فودعتها.. ثم عمدت إلى بعض الروبيات، وأديت بها جميع ديوني، واشتريت لأسرتي طعاماً جيداً وعدتُ إلى منزلي...

كان ذلك العالم صابراً وراضياً، ولم يكن كالذي حمل القُرآن إلى ضريح أَمير المؤمِنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..!

(١) منية المريد: ص١٦٠.

بالتأكيد بلوغ هذه الدرجة ليس بالأمر الهيّن، وهو بحاجة ماسة إلى أن يكبح الإنسان جماح نفسه ويتحلى بالصبر رغم قدرته على الشكوى والتشكّي.. وهذا لا يكون من دون إعانة ربانية.. لأنّ الكثير من الأمور لا تؤتي أكلها من دون الاستعانة بالله عزّ وجلّ رغم السّعي وبذل الجهد.

فقد يصل عالم إلى مرتبة الاجتهاد أو المرجعية بعد أربعين أوخمسين سنةٍ من السّعي والجهد، ولكنّه في نهاية المطاف يعجز عن تشخيص حكم من أحكام الله..! وأين الاستغناء عن الله تعالى وأهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من فهم واستنباط حكم الله سبحانه؟!

مقام الراضين والصابرين

نقلت إحدى نسائنا ـ وكانت امرأة صالحة مؤمنة ـ فقالت: عشت مع أم زوجي في بيت واحد دون أن تحدث بيننا مشكلة ـ ومن المهم جداً أن تعيش المرأة مع أم زوجها في بيت واحد، ثم تدخلان الجنة لصالح رفقتهما ـ فتوفيت تلك المرأة الصالحة قبل حوالي أربعين عاماً، فرأيتها في المنام وسألتها عن حالها، فقالت: إنّها جيّدة، فسألت عن أم زوجها وما إذا كانت تراها؟ فقالت: نعم أراها، وهي في منزلة أسمى من منزلتي في الجنة، فهي تزورني في بعض الأوقات، ولكنني لا أستطيع زيارتها في مرتبتها في الجنة، لأنّها في درجة (الراضين بقضاء الله)، وأنا في درجة (الصابرين).

الجدير ذكره أنّ الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أورد الصبر والرّضا تباعاً، فقال: «بمن صبر ورضي».. وكما قال العلماء: إنّ الواو تدل على الإثنينية، أي: إنّ المعطوف والمعطوف عليه شيئان في كل الأحوال، وليسا شيئاً واحداً، لذا فإنّ (الواو) تشير هنا إلى أنّ الرّضا غير الصبر..

ويبدو من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولن يصنعَ الله بمن صبر ورضي عن الله إلّا ما هو أهله» أنّ «هو» في العبارة تعود على «من» يستيقظ في الأسحار ويهجر مضجعه

ويحرم نفسه النوم القرير، وينهض للوضوء والانشغال في العبادة والتبتّل، ولا شكّ أنّ مقامه يختلف عمّن ينام ولا يتعبّد، فإنّ جزاء كل منهما يختلف عند الله تعالى.

معرفة أسباب البلاء

من عادة الإنسان أنّه لا يعير أسباب المصاعب أهمية، فتراه ـ لدى البلاء ـ لا يعرف السبب في ذلك، والحال أنّ أي أمر يتعرض له الإنسان لا يخلو عن سبب، ولذلك تراه لا يصمد أمامها أو يعالجها بالعلاج المطلوب، ولو جمعت الأحاديث الخاصّة في ذلك لكانت كتاباً كبير الحجم..

ومن عادة الأنبياء والأولياء والصدّيقين حين البلاء أن يلجأوا إلى الله عزّ وجلّ بالسؤال عن السبب، وغالباً ما يكون البلاء النازل بالمؤمنين جرّاء تقصيرهم.

فقد كان ضياع نبيّ الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ شديداً على أبيه يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لشدّة حبّه إياه، وقد بكى عليه كثيراً حتى ابيضّت عيناه، ولعل سبب كل ذلك لردّ نبيّ الله يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقيراً جائعاً[1]..

ومن الحريّ بالنّاس خاصّة المؤمنين منهم أن يعرفوا أسباب البلاء الذي يحل بهم، والفرق بين النّاس العاديين والأنبياء أنهم ليس لديهم علم الأنبياء، ولا يعلمون أسباب نزول البلاء بهم.. وهناك العديد من الأدلة الدالة على أنّ البلاء الذي يحل بالإنسان جرّاء أعماله، قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾[2].

وكما في الأخبار الشّريفة أنّ المقياس في ذلك أنّ الإنسان ولو كان ملتزماً بوظائفه وابتلي ـ كأن يصاب بالفقر ـ فإنّ مردّ ذلك يُعزى إلى سلوكه.

ففي الحديث إنّ الله تعالى لا يستجيب دعاء شخصين:

---

(١) راجع تفسير نور الثقلين: ج٣ ص٣٣٧.
(٢) النساء: ٧٩.

أحدهما: الذي يطلب الرّزق من الله دون أن يكلف نفسه عناء تحصيله..

الثّاني: المريض الذي لا يسعى لدوائه ويطلب من الله الشفاء.

وفي الخبر ما مضمونه عن كليم الله موسى بن عمران -على نبيّنا وآله وعليه السّلام- مرض، فقال: لا أتداوى حتى يكون الذي أمرضني هو الذي يشفيني، فأوحى الله إليه: لا أشفيك حتى تتداوى[١].

فلو دعونا الله تعالى وقصدنا الطبيب ولم نشفَ، لنا ـ آنذاك ـ أن نطلب العلاج من الله تعالى... هذا هو القانون الإلهي..

ومن يقدر على ردّ الظلم ويتقاعس لا ينبغي له أن يطمع في استجابة دعائه بالنصرة، نعم قضية أمير المؤمنين والصّديقة الزهراء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ استثنائية ولها دليلها الخاصّ.. فهما عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قد تحملا كل المصائب التي تعرضا لها لحفظ الإسلام.. وإلّا فإنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قادراً على الردّ المناسب.. وكان من قضاء الله المبرم أن يُمتحن الذين بايعوا أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في واقعة الغدير وغيرها..

وقد دلّ الكثير من الرّوايات ـ من طرق الشّيعة والعامة ـ على أنّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ اعتبر الإمام عليّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ كميزان للحق وامتحان للأمة.[٢]

من دسائس أبي سفيان

بعد أن غُصبت الخلافة من الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وصارجليس الدار، جاءه أبو سفيان[٣] ذات يوم وقرأ هذين البيتين:

---

(١) جامع السّعادات، ج٣ ص ١٨٣.

(٢) راجع ميزان الاعتدال: ج٢ ص٤١٧.

(٣) أبو سفيان صخر بن حرب بن أُمية بن عبد شمس، عداوته لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أشهر من أن تذكر، حكي أنّه قال في محضر عثمان: يا بني أمية، تلقفوها (أي الخلافة) تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان مازلت أرجوها لكم فما هناك جنّة ولا نار. مات في دمشق عند ولده معاويَة سنة ٣١ عن ثمان وثمانين سنة. الغدير، ج٨ ص ٢٧٨.

ولا يقيم على ضيمٍ يراد به إلّا الأذلّان عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمّته وذا يشجّ فلا يرثي له أحدُ

وكان عرب الجاهلية إذا ما أرادوا إثارة نوازع الغيرة لدى أحدٍ قرأوا عليه هذين البيتين، والمقصود من بعير الحي: الدابة المربوطة فهي لا تستطيع حراكاً لذلّها، وبوسع كل إنسان أن يمتطيها، بخلاف الدابة التي لا يركبها إلّا صاحبها أو من يأذن له في ذلك.

وبعد أن قرأ أبو سفيان هذين البيتين استنهض أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قائلاً: «لأملأنّها لك خيلاً ورجلاً» فانهض وامشق سيفك ودافع عن حقك يا عليّ!

وكان الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلم أنّ الجيش ليس رهن إشارته، وإنما هو رهن إشارة أبي سفيان، ومن الممكن أن يصدر أبو سفيان أوامره بقتل أبي بكر والإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ معاً في حين واحد إذا ما اشتد الضراب، ليجلس هو على سدة الرّئاسة، ويدعو النّاس إلى عبادة الأصنام من جديد ويحملهم على الكفر.. ولذا ورد في التاريخ أنّ الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ زجر أبا سفيان وقال له: والله ما أردت بهذا إلّا الفتنة وإنّك طالما بغيت للإسلام شراً[1].

في تلك الفترة الحرجة كانت للإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مسؤوليّة محدّدة ضمن عهد عهده إليه النبيّ الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وهي أن يلزم الصّمت، لتبقى ظواهر الإسلام ويصل الدّين إلى الأجيال اللاحقة..

ولو أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ اختار غير ذلك لدمر ما شُيّد من الدّين.. تماماً كما لحق بمصير الأديان السّابقة حيث لم يبق للكثير منها حتى أسماء أنبيائها..

ويؤيد ذلك قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ للصديقة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ والأذان

(١) الكامل لابن الأثير، ج٢ ص ١٣٥.

يؤذّن: أيما أحب إليك: ذكر أبيك هكذا إلى يوم القيامة أم تعود جاهلية؟[١].

على كل فقد اختار الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الصبر للمسؤوليّة الخاصّة التي أنيطت بهم، وكانوا راضين بذلك من دون ريب.. ولا يخفى أنّ الرّضا بما قسم الله تعالى لا يعني التقاعس عن أداء المسؤوليّة..

التسليم بتقدير الله

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولن يصنعَ الله بمن صبرَ ورضيَ عن الله إلّا ما هو أهلُهُ، وهو خيرٌ له مما أحبَّ وكرِه».

تقدّم القول: إنّ الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ حث شيعته على الصبر والرّضا بما قدّر الله، إذ إنّ المقدرات التي يقدرها الله تعالى للصابر المحتسب والراضي أفضل بكثير من الأمور التي يحبّها أو يكرهها.

ولعل من مصاديق الرّضا والصبر على القضاء، قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[٢].

ولن يرتقي المؤمنون إلى الدّرجات العليا من الإيمان إلّا إذا رضوا ـ ظاهرياً وباطنياً ـ وسلموا بما يحكم به الرّسول الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فيما اختلفوا فيه سواء أنّه حكم في صالحهم أو ضدهم.

صعوبة نيل الرّضا

بالرّغم أنّ الوصول إلى الرّضا ليس بالأمر اليسير إلّا أنّه لا مندوحة للإنسان منه؛ لأنّ بالرّضا يضمن الإنسان السعادة في الآخرة.

---

(١) كتاب الأربعين للماحوزي:ص١٣١.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٥.

فالجزاء الـذي يعطى للمصلّـي إنّما يعطى بمسـتوى رضـاه، والمقام الـذي يناله صاحب الأخلاق الحسنة إنّما يناله بقدر التزامه ورضاه.. ممّا يشير إلى لزوم الرّضا بما قسم الله عزّ وجلّ في جميع الأحوال.

وقد خاطب أَمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: «**واعلم يا بني أن الدهر ذو صروف**»[1] وهذا الخطاب العظيم موجّه في حقيقته إلى جميع النّاس.

الفرقُ بين القسمة والتقدير

تتفـاوت خصائص النّـاس وروحياتهم، فمـن الممكن أن يصـاب أحدهم بالأرق طيلة اللّيل لسـماع كلمة بذيئة واحدة، فيما ينام آخر قرير العين وإن سـبّه الآخرون مئة سبّة.. لأن خصائص كل إنسـان تختلف عن غيرها.... وكما يختلف النّاس في أبدانهم وأحجامهم المادية، كذلك هم متفاوتون في ميزاتهم النّفسـية والفكريـة والرّوحية.... ولذا ينبغي لكل منهم اختيار الصبر على الاعتراض والرّضا دون السخط..

نُقل أنّ أحـد الزهاد رُئي في المنام[2] بعد موته، فسـئل عن حالـه ووضعه.. فقال: أوضاعي جيّدة، ولكنني قلت ذات يوم: إنّ اليوم يومٌ جيد.. فتعرضت لمحاسـبة دقيقة وملامة طويلة، حيـث قيل لـي: وأي أيام الله كانت ليسـت بجيّدة حتـى وصفت ذلك اليوم بأنه جيد؟

إنّ الملائكة وعمّال الآخرة يعون معاني الأحاديث والأقوال جيداً..

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٧ ص٢١٠.

(٢) ليس للرّؤيا حجية شرعية ما لم تتطابق مع الواقع، أو تكون مطابقة للأدلّة الشرّعية وموافقة لأقوال الذين يعلمون - بإذن الله تعالى- الغيب. فمن رأى مالاً يصله، أو حجاً يسعى إليه، ثم وصله المال أو ذهب للحج حقاً، فلا شـكّ أن رؤياه صادقة، لأنها طابقـت الواقع. أو أن يرى أحدهم قاتل الحسـين عَلَيْهِ السَّلَامُ في النار، أو أن أبـا ذر في الجنة، فكل منهمـا صادقة، لأنهما تُطابقـان ما ورد مـن الأدلّة الشرعيّة مـن القرآن الحكيـم والأحاديث الشّريفـة. وغير ذلك لا حجية له، اللّهم إلّا رؤيا المعصوم الذي يعد نومه ويقظته أمراً واحداً. وقد أشـير في القُرآن إلى الرؤيا الصّادقة وغير الصّادقة.

بالطّبع فإنّ توجيه مثل هـذه الملامة خاصّ بأصحاب الدّرجـات العلى والمراتب السّامية بين النّاس، ومن الممكن أن لا يوجَّه هكذا سؤال لي ولأمثالي، لأنّ المحاسبة ستكون وفق حال كل شخص وطبيعة وعيه وإدراكه.

أمّا الأسـئلة التي توجّه للناس في يوم القيامة فهي توجَّه إليهم حسـب مقاماتهم.. ولا شـك أن جميع هذه المقامـات أمور اكتسـابية، وهـي متاحة للجميـع.. فصاحب المرتبة الدانية له أن يرتقي بنفسه شيئاً فشيئاً..

وقد نقل المؤرّخون عن أبي ذر الغفاري عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه لم يكن قبل إسـلامه سـوى لصٍّ وقاطع طريق بسـيط.. لكنّه طـوى مراحل السـمو تدريجياً حتى أصبـح من أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بالطّبع ليس المراد عصمة أبي ذر وإنّما هو تأكيد على عظيم المحبة والاحترام الذي يكنّـه أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لأبي ذر، لما علموا فيه من سـمو الإيمان والطاعة والإخلاص والدرجة الرّفيعة.

وقد أوصـاه النبيّ الأكـرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بوصيّة مطوّلـة حوت على بعـض الأمور العقائدية والأخلاقيّة ما يـدل على عظمة احترام الرّسـول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لهذا الصّحابي الجليل الذي أثبـت قولاً وفعـلاً قدرة الإنسـان ـ مهمـا كان ماضيه ـ على السـمو إلى أعلى درجـات النّجاح ومراتـب الفلاح، الملفـت للانتباه أنّ النبـيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كرّر في الوصيّة اسـم أبي ذر مئة وخمسـين مرّة، ومـن ضمن مـا ورد فيها أنّ أبـا ذر قال: قصدت المسـجد ذات يوم، فلم أرَ فيه غير النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وعليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقلت: عظني يا رسـول الله، فوعظني النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ جملة من المواعـظ، ومن بين ما قاله النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لي: «**يا أبا ذر إنك منّا أهْل البَيت**»[1]، وقد شـرح العلامة المجلسي رحمه الله مقاطع منها[2].

(١) أمالي الطوسي: ص٥٢٥.
(٢) راجع كتاب عين الحياة للعلاّمة المجلسي رحمه اللّه.

تسليم السّيدة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ

كانت حياة الصّديقة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ تعج بالمشاكل.. لأنّ الأعداء اجتهدوا في التنكيل بها.. وقد عانت من كسر ضلعها طيلة أربعين يوماً على بعض الرّوايات.. إلى أن التحقت بربها صابرة محتسبة...

ولا يكاد المرء يجد في حياتها عَلَيْهَا السَّلَامُ كلمة واحدة تنم عن عدم الرّضا رغم عظيم المصائب التي تعرضت لها..

وفي خطبتها الخالدة لم تنطق إلّا بحمد الله عزّ وجلّ.. وإتمام الحجة على أبي بكر وعمر، ونساء المهاجرين والأنصار، وكأنها أرادت بذلك تعليم المسلمين حمدَ الله تعالى والثّناء عليه حين المصاعب والمصائب..

وهناك الكثير من الرّوايات المتواترة عن الرّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنّه قال:

«يا فاطمة! إنّ الله تبارك وتعالى ليغضب لغضبك ويرضى لرضاك»[1].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«واعلم يا علي أنّي راضٍ عمّن رضيَتْ عنه ابنتي فاطمة»[2].

ومن هذه الأحاديث يظهر أنّ على الجميع أن يرضوا بتقدير الله تعالى، الذي قرن رضاه برضا السّيدة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ.. وهي الوحيدة التي قرن رضاها برضا الله تعالى، بل أُنيط رضا الرب برضاها وغضبه بغضبها..

فإنّ الله هو الخالق ولا يمكن مقارنة المخلوق بالخالق، ولكنّه قرن رضاه برضا أحد مخلوقاته، حيث قرن رضاه برضا الصّديقة البتول.. وليس هناك آية أو رواية تشير إلى أنّ الله يرضى لرضا الأنبياء رغم ما هم عليه من المقام المحمود.

---

(١) أمالي الصدوق: ص٤٦٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٤٨٥.

وبعد استشهاد النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ خاطبت اللذين آذاياها قائلة: أُشهد الله وملائكته أنّكما أسخطتماني وما أرضيتماني[١].. وفيما قالت لأحدهما: لأدعونّ عليك في كل صلاة.

وهنا ينبغي أن نتساءل، فنقول: هل إنّ السّيدة الزهراء عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ راضية عنّا حتى يرضى الله عنا أم لا؟!

لذا علينا أن نشخص ما يرضي الزهراء عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ ويسخطها.. ولو تتبعنا خطبتها الشّريفة كلمة بكلمة لاتضحت الأمور التي ترضيها..

الرّضا عن الله عزّ وجلّ

روي أنّ الإمام الحسن عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قال لعبد الله بن جعفر في حديث له: ... **وأنا الضّامن لمن لم يهجس في قلبه..إلّا الرّضا أن يدعو الله فيستجاب له**[٢].

ومن الواضح أنّ هذا الرّضا غير مختص بالمعصومين عَلَيْهِمٱلسَّلَامُ، بل هو متاح للآخرين أيضاً، ولكن نيله أمر مشكل.. فقد يطمح البعض بنيل مقام الرّضا عن الله ولكن لكي تستجاب أدعيته، بينما المنزلة الأعلى من ذلك هي منزلة الرّضا عن الله الخالصة.

وقد نُقل أنّ أمير المؤمنين والصّديقة الزهراء والحسنين عَلَيْهِمٱلسَّلَامُ لم يتناولوا شيئاً من الطعام طيلة ثلاثة أيام بعد أن تصدّقوا بما لديهم.. وفي اليوم الثالث مرّ عليهم النبيّ الأعظم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، فقالت له السّيدة الزهراء عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ: يا رسول الله! إنّ أهل هذا البيت لم يتناولوا طعاماً من ثلاثة أيام.. فقال النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: بنيّة! إنّ أباك لم يطعم شيئاً من ثلاثة أيام..

فصلّت ركعتين ثم دعت الله عزّ وجلّ قائلة: اللهم إنك تعلم أنّ هذا محمّد

(١) الإمامة والسياسة: ج١ ص٣١.
(٢) وسائل الشّيعة: ج٢ ص ٨٩٩.

رسولك، وأنّ هذا صهره عليّ وليك، وأنّ هذين الحسن والحسين سبطا نبيّك، وأنّي فاطمة بنت نبيّك، وقد نزل بي من الأمر ما أنت أعلم به منّي، اللهم فأنزل علينا مائدة من السماء كما أنزلتها على بني إسرائيل، اللهم إنّ بني إسرائيل كفروا بها وإنّا لا نكفر بها[1].

لقد صام أفضل عباد الله على الإطلاق ثلاثة أيام بلا انقطاع، وتحمّلوا الجوع، ولكنّهم لم يطلبوا من الله شيئاً.. في حين أنهم لو طلبوا ذلك لاستجاب الله لهم..

خلاصة القول: إنّ الرّضا عن الله تعالى منزلة عظيمة ينبغي للإنسان الطموح والسّعي إليها، لأنها تصب في صالحه سواء كان من أهل الآخرة، أو من أهل الدّنيا، فهي مفيدة في الدارين.. رغم أنّ اكتساب الرّضا للدنيا هو كبيع المتاع الثمين بقيمة حقيرة، أو كإحراق العملة النقدية لغلي إبريق الشاي!!

(١) شرح الأخبار: ج٣ ص٢٦.

الطريق إلى اللّه عزّ وجلّ

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**واعلموا أنّه ليس بين الله وبين أحد من خلقه ملكٌ مقرّبٌ ولا نبيٌّ مرسل ولا من دون ذلك من خلقه كلهم إلّا طاعتهم له، فاجتهدوا في طاعة الله إن سرّكم أن تكونوا مؤمنين حقاً حقاً ولا قوّة إلّا بالله**».

يشير الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع من الرّسالة إلى طريق متصل بين المخلوق والخالق ألا وهو طاعة الله عزّ وجلّ.. ولا فرق في ذلك بين ملك مقرّب أو نبيّ مرسل، أو أيّ مخلوق آخر، سواء كان عالماً أو جاهلاً، أو واعظاً أو أستاذاً أو تلميذاً..

ومع الالتفات إلى قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**ليس بين الله وبين أحد من خلقه**» يظهر عدم الاستثناء في هذه القاعدة، إذ لا مناص للجميع من السير في طريق طاعة الله عزّ وجلّ حتى طاعة النبيّ والإمام عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إنّما شرّعت لأنّها مستقاة من طاعة الله عزّ اسمه، فليس أمام المؤمن الحقيقي إلّا اختيار طريق طاعة الباري تعالى..

ومن قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**ولا قوة إلّا بالله**» يظهر أنّ التّوفيق للطاعة منوط بالاستعانة بالله تعالى... حتى الأنبياء والأولياء ـ مع طاعتهم المطلقة ـ كانوا يخافون الله واليوم الآخر وذلك لعلمهم التام بعدم وجود وسيلة إلى الله تعالى إلّا وسيلة الطاعة.

في رحاب أشهر الطاعة

تميزت الأشهر الثلاثة ـ رجب وشعبان ورمضان ـ على الأشهر الأخرى.. وقد حثَّ أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في أحاديثهم على الإكثار من العبادة في هذه الأشهر المباركة.. إذ يتيّسر فيها الارتقاء الرّوحي والتزوّد لبقية أشهر السّنة.

ففي هذه الأشهر فرصة رائعة للعبادة وبناء الذّات أكثر منها في الأشهر الأخرى، فالطاعة وممارسة العبادة مطلوبة ومحمودة في جميع الأوقات، وهي غير مختصة بوقت خاصّ، ولكنّها ـ العبادة ـ أكثر روحانية في هذه الأشهر.. كما هي التّجارة حيث يلقى البيع والشراء إقبالاً أكبر في بعض فترات السّنة، وبالتّالي تحقّق فيها أرباحاً كثيرة..

وقد أشير إلى فضائل هذه الأشهر في موسوعة (بحار الأنوار) وكتب عديدة أخرى، كما بحث الأعلام أيّ شهر منها أفضل.

ففي الأحاديث عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: أنّ العبادة في شهر رجب الأصب تمتاز عن سائر الشهور. وفي عدة أخبار: أنّ شهر رمضان الكَريم هو الأفضل والأرجح على سائر أشهر السّنة..[1]

وعلى كل ينبغي للإنسان أن يغتنم فرصة هذه الأشهر الثلاثة بالعبادة.. علماً أنّ ذلك ليس بالأمر السهل لتوقّفه على العديد من المقدمات والتحلّي بإرادة وروحية قوية..

رفقةٌ إلى باب جهنم!

نُقل في أحوال أحد مراجع التقليد: أنّ شخصاً طلب منه أمراً غير شرعي، فقال له: إنني رفيقك إلى باب جهنم، ولن أدخلها معك أبداً..

.. فالشّيطان ـ لعنه الله يبذل قصارى جهده لسوق الإنسان سوقاً إلى جهنم..

(١) راجع: وسائل الشّيعة: ج١٠ ص٣١٣.

ففي بعض الأحيان يلقي بروعه الملل عن العبادة، بل ويشغله أحياناً بالمستحبات والمكروهات ليشغله عن الواجبات.. والطريقان معاً ينتهيان به إلى النار والعذاب الخالد.

وقد نُقل عن أحد العلماء أنّه ما كان يرفض طلباً لأحد، ولكنّه في الوقت نفسه لا يعمل عملاً لا يعتقد به.. ومثل هذا جدير باتخاذ النّاس منه أسوة حسنة.. إذ ينبغي لهم عدم الاغترار بالدّنيا أو الرّئاسة واستبدالها بالجنة، لأنّ امتلاك الدّنيا برمتها لا يعادل دخول جهنم والعياذ بالله..

الهمّة العالية

جاء أحد الشّيعة الواعين إلى أحد الأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وقال له: يابن رسول الله! إنني أتبعك منذ سنين مديدة، ولم أطلب منك حاجة أبداً، فقال له الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: سلْ حاجتك. فقال: سأنظر ماذا أطلب منك.

وبعد مدّة عاد إلى الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال: يابن رسول الله! أريد منك أن تضمن لي الجنة.. فتأمّل الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ هنيئة وقال: لقد ضمنت لك الجنة، ثم عاود الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ السؤال منه قائلاً: هل لك حاجة أخرى؟ فقال: يابن رسول الله! لقد أطلتُ الفكرة في حاجتي، فرأيت لو أنني طلبت مالاً، فإنني لا محالة ميّت، وسأتركه لغيري، ولو أنني سألتك طول العمر، فإنّ الموت سيدركني كما يدرك غيري.. ولذلك سألتك أن تضمن لي الجنة....

التأمل في الجواب

من عادة العلماء أنهم إذا اطلعوا على رواية تأمّل المعصوم عَلَيْهِ السَّلَامُ في جواب السائل.. فإنهم يولونها مزيداً من الاهتمام، ويضعون أكثر من احتمال في تفسيرهم إيّاها.. فلا شكّ أنّ الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلم كل شيء ويحيط معرفةً بجميع الأمور والمسائل.. ممّا يوحي أنّ لسكوته عَلَيْهِ السَّلَامُ وتأمله معنًى مقصوداً.

وقد روي ما مضمونه أن شخصاً سأل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قائلاً: كيف تعجل في الجواب عن كل سؤال تُسأل عنه بلا تردّد؟

فأبرز الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ كفّه وقال له: **كم هذا؟**

فقال الرّجل: خمسٌ. فسأله الإمام: عجلت في الجواب؟ فقال الرّجل: إنّ الجواب واضح يا أمير المؤمنين.. فقال الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: **الأمور كلّها جلية لي كعدد أصابع اليد**[١].

وبالمقابل ورد أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ سئل ذات يوم عن مسألة، فتأمّل برهة ثم أجاب، فسئل عن السبب في عدم الإجابة مباشرة، فرد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قائلاً: **توقيراً للحكمة**[٢].

سؤال وجوابان!

خلق الله عزّ وجلّ المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قبل النّاس، وعرّضهم لامتحانات كثيرة حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الدّرجات العلى.. فهم ليسوا كالشّمس أو القمر المخلوقين لأداء مهمة واحدة مثلاً، بل إنهم مكلّفون بأنواع التكاليف ويتحمّلون شتى المسؤوليات.. ولذلك يتعاملون مع كل إنسان حسب مستواه وطبق حاله..

وفي الخبر عن معاويَة بن عمار، قال: قلت لأبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: أقضي صلاة النهار باللّيل في السفر؟ قال: نعم، فقال له إسماعيل بن جابر: أقضي صلاة النهار باللّيل في السفر؟ فقال: لا. فقال: إنك قلت نعم، فقال: إنّ ذلك يطيق وأنت لا تطيق[٣].

قال الشّيخ الطوسي رحمه الله: كان إسماعيل بن جابر يريد قضاء نوافل نهاره في

(١) بحار الأنوار: ج٤٠ ص١٤٧.
(٢) الأنوار البهيّة للشّيخ عبّاس القمّي ج١ ص ١٥٦.
(٣) الاستبصار: ج١ ص٢٢١.

اللّيل، وهو الأمر الذي كان يعيقه لدى أداء فرائضه، وقد حذّره الإمام من ذلك[١].

مصاعب عصر الغيبة

كان كل من يقصد الأئمّة الطاهرين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بمسألة يعود بجواب قطعي شافٍ لأنّهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أدلة النّور، كما كانوا محيطين علماً بعالم الغيب، فتراهم يوضحون لمن يسألهم التوضيح الكافي.

أمّا في عصر غيبة إمام الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشّريف فقد أصبح الأمر مختلفاً.. فلو سئل مراجع التقليد العظام، أمثال صاحب الجواهر والشّيخ الأنصاري والسّيد بحر العلوم، عمّا إذا كانت فتاواهم تحكي عن الأحكام الواقعية للشارع المقدس أو لا؟ لأجابوا قائلين: إنما فتاوانا وفق اجتهادنا.. فإن عمل السائل بالفتوى واتضح فيما بعد مطابقتها للواقع فبها ونعمت، وإن تبيّن معارضتها للحكم الواقعي، فهو معذور، وليس له خيار غير ذلك.. وكل ذلك يُعزى إلى فقد الأمة لإمام زمانها عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي من شؤون التقدير الإلهي.

موعظة قيّمة

كان أحد الخطباء البارعين رحمه الله قبل حوالي أربعين عاماً يقصد مدينة كربلاء المقدسة للزّيارة ويدعى للمجالس الحسينيّة، وكنت أحضر مجالسه وأستفيد ممّا يقول.

وذات ليلة قال وهو على المنبر في (المدرسة السّليميّة) التّابعة للحوزة العلميّة المقدّسة: لا تأسفوا كثيراً على أنّكم تعيشون في عصر الغيبة، رغم أنّكم قد فقدتم نعمة كبيرة جداً.. ففي هذا العصر لكم أن تقصدوا مراجع التقليد لحل مشاكلكم ومسائلكم الدّينيّة.. وهم بدورهم سيقولون لكم: نحن لا نعلم علم اليقين حقيقة تطابق ما نستنبط من الأحكام مع الواقع، وإنما نستفيد من الحجج الشّرعيّة. ونعمل بواجبنا ونؤدي

(١) تهذيب الأحكام: ج٢ ص١٦.

مسؤوليتنا الملقاة على عواتقنا فقط.. ولكنكم لو كنتم في عهد المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وقصرتم في مسؤوليتكم لأصبحتم عرضة لفتن كبيرة جداً، فإنّ الذين لم يستفيدوا من وجود المعصوم بين ظهرانيهم خلقوا لأنفسهم وضعاً لا يحسدون عليه، وأصبحوا أمثولة معيبة عبر التّاريخ، وهم أسوأ حالاً ممّن يعيش في عصر الغيبة ويرتكب معصية ويخالف العالم الدّيني...

من لوازم الطاعة

من لوازم الطاعة هي معرفة الله عزّ وجلّ والنبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، وينبغي إحراز هذه المعرفة وتحقيقها حتى عن طريق الدّعاء والزيارة.. وقد ورد في كتب الرّوايات والأحاديث الشّريفة أنّ لوازم إطاعة الله تعالى ثلاثة: معرفة الله، ومعرفة الرّسول، ومعرفة الإمام، وكذا إصابة السُّنّة..

والمقصود من المعرفة والعرفان هو المذكور في الرّوايات، وليس ما يطلق عليه هنا وهناك بالعرفان.. فالعرفان اصطلاح فنّي، كما هي بقية الفنون، ولكن مع فارق واحد وهو أنّ سائر الفنون تحرّف عن معانيها ومواردها، أمّا العرفان المذكور هنا وهناك فقد تسبّب في إضلال كثير من النّاس، لأنّه لم يقم أساساً على بصائر أهْل البَيت عَلَيْهِ السَّلَامُ.. والحال أنّ المراد بالعرفان في أحاديث أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هي المعرفة بهدي أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ واتّباعهم وتصحيح المعتقدات، إذ إنّ الأعمال وفق العقيدة السليمة من أهم العبادات والقربات إلى الله عزّ وجلّ، والأدعية المأثورة عن المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، خاصّة الواردة في الأشهر الثلاثة ـ رجب وشعبان ورمضان ـ وسائل إعداد للإنسان كي يلتزم بالفرائض والطاعة...

ولا ريب أنّ تصحيح المعتقد بحاجة إلى دعم.. ومن جملة وسائل الدعم هي الأدعية الواردة عن أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «خاب الوافدون على غيرك، وخسر المتعرّضون إلّا لك»[1].

(١) بحار الأنوار: ج٩٥ ص٣٨٩.

بالطّبع لا قربة بالنوافل إذا أضرت بالفرائض، وإلى ذلك يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**لا قربةَ بالنوافل إذا أضرّتْ بالفرائض**»[١].

وفي رواية أخرى قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إذا أضرّت النوافل بالفرائض، فارفضوها**»[٢].

الملفت للانتباه أنّ القسم الأعظم من العقائد والرّوايات وأدلّة الواجبات والمحرّمات وردتنا عن المشايخ الثلاثة ـ الشّيخ الصدوق[٣] والشّيخ الكُليني والشّيخ الطوسي.. ولو أنّ الشّيخ الطوسي رحمه الله كان يعمّر مئات السّنين ويأتي بصلاة اللّيل كل ليلة ويترك تأليف تلكم الكتب القيّمة، لم يكن يكتسب من الأجر والثّواب بمقدار ما اكتسبه من تأليفها.. ولا أعني بذلك استصغار ثواب صلاة اللّيل، فيكفيها من الفضيلة قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٤] علماً أنّ من أهم أحكام صلاة اللّيل وردتنا عن طريق هؤلاء الأعلام الثلاثة، كما لا يخفى أنّ صلاة اللّيل - كغيرها من المستحبّات- قد تكون واجبة عينيّة (بالعنوان الثّانوي) إذا كانت مقدّمة وجود للتّقوى الواجبة.

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة٣٩.

(٢) المصدر نفسه: الحكمة٢٧٩.

(٣) الشّيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي، المعروف بالشّيخ الصدوق قدس سره (٣٠٥ـ٣٨١هـ) ولد سنة ٣٠٥ هـ في مدينة قمّ في أسرة علمية من أهل التقوى. يذكر الشّيخ الطوسي في شأن ولادته: إن علي بن بابويه كان قد تزوج من ابنة عمه. ولكنه لم يخلف منها. وقد طلب في رسالة للشيخ أبي القاسم الحسين بن روح أن يسأل الإمام صاحب الزمان عجّل اللّه تعالى فرجه الشّريف أن يدعو له ليرزقه اللّه أولاداً صالحين فقهاء فدعا له الإمام بذلك. يعد الشّيخ الصدوق من أكبر الشخصيات العلميّة في العالم الإسلامي، ومن أبرز الوجوه اللامعة في العلم والفضل. ولقد أسدى للإسلام والتشيّع خدمات جليلة يقل نظيرها، حيث كان يعيش في عصر قريب من الأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فجمع الكثير من روايات أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وألفها في كتب قيمة. أدرك الشّيخ الصدوق ٢٠ سنة من حياة والده، وقد اكتسب في هذه المدّة العلم والحكمة من والده وسائر علماء ومحدّثي مدينة قم المقدّسة. من مؤلفاته: من لا يحضره الفقيه، مدينة العلم، كمال الدّين وتمام النّعمة، التوحيد، الخصال، معاني الأخبار، عيون أخبار الرّضا عَلَيْهِ السَّلَامُ، الأمالي، المقنع في الفقه، الهداية بالخير.

(٤) سورة السجدة، الآية: ١٧.

لندقّق في الأعمال

يظهر من بعض أخبار المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أنّ كثيراً من (الأعمال الحسنة) التي يقترفها الإنسان في الدّنيا لن يرى لها أثراً في كتابه الذي سينشر أمامه يوم القيامة.. فلعله قد أخرج الخمس من ماله، أو أدى من الصّلاة كثيراً، ولكنّه سيفاجيء بقائمة أعماله..

ولعل خير مثال لذلك من يعزم على السفر دون أن يحمل معه المال، ثم يتنبه أنّه غفل عن ذلك وهو لا يعرف أحداً.. لا شكّ أنّ حاله سيكون صعباً جداً..

فما أروع المرء أن يراعي الدقة في أعماله، فإن كان مقلِّداً؛ فالرّسالة العمليّة في الأحكام في متناول يديه، وإن كان مجتهداً يراجع أدلة الأحكام ويتمسّك بها.. وقد كان الشّيخ عبد الرحيم القمّي رحمه الله يقول: حذارِ من أن يكون علم العالِم مقتصراً على نقل الألسن، أو محفوظات الصّدور، أي: مجرد نقل بلا تحقيق ومطالعة ومراجعة!!

ولو أمعنا النّظر جيداً لتأكّد لنا العديد من الأخطاء فيما تعلمناه.. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾[1].

لنكن أسوة للآخرين

كثير من النّاس يتصور أنّ أمر الأسرة بالمعروف ونهيها عن المنكر مقتصر على اللسان فحسب، والحال أنّ الله تعالى يقول: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[2]، أي: ينبغي لربّ الأسرة أن يكون له دور في صلاح من يعيل، ولعل جزءاً من هذه المسؤوليّة تتأتّى عبر الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، بينما الجزء الأكبر في ذلك يتأتى بالممارسة والعمل، ما يدل على أهمية العمل الصالح، فإذا تجنّب الإنسان الكذب، فإنّ ذلك سينعكس على عياله، ولا ريب أنّ الله سبحانه وتعالى لا يكلّف الإنسان ما لا يطيق لكي ينجو من النار، لذا زوّده بالقدرة الكافية على السّعي وبذل الجهد.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢، سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.

مثال من الواقع

ينبغي للمؤمن أن يتعلّم من الكسبة في الحياة، فهم يغدون إلى متاجرهم دون أن يعلموا أنهم سيخسرون أو يربحون.

ولو قيل لهم: لماذا تخرجون إلى التكسّب ما دمتم تحتملون الخسارة؟

فإنهم يقولون: لا بديل عن ذلك، ففي عالم التّجارة يوم تربح ويوم تخسر.

وكذا هي التّربية الأسريّة، فقد لا يجد الإنسان تأثيراً من النّصيحة لولده، ولكنّه لو استمر عليها فإنّها ستؤثر يوماً ما.

وهناك عبارة معروفة ومتداولة في الكتب الحوزوية، وهي: «ما من عامٍّ إلّا وقد خُصَّ» وفي كتاب (المعالم) أنّ هذه العبارة العامة لها ما يخصصها أيضاً، لأنّ من العام ما هو آبٍ عن التخصيص، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[1] فهو حقيقة عامّة لم تخصّص..

وتأكيد الإمام الصّادق عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في المقام على أهمية العبادة من هذا القبيل، فهو عام يشمل النّاس كافة بما فيهم الأنبياء والأولياء والملائكة.. وهو من العمومات الآبية عن تخصيص..

السّعي ومقام الطاعة

من لوازم الطاعة المهمّة التحقيق والسّعي، فمن عزم على السفر أو عقد صفقة تجارية، تراه يسأل الكثير ليتعلّم منهم، وليس الهدف من السؤال إلّا دفع الضرر عن نفسه.

والمسائل الشرعية غير مستثناة من هذه القاعدة، ولذلك كان تعلّم المسائل مورد الابتلاء واجباً وذلك لدفع الضرر الأخروي.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠.

الاحتياط علامة الإيمان

قيل للإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنّ عيسى بن أعين يشك في الصّلاة فيعيدها، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**هل يشكّ في الزكاة فيعطيها مرتين؟!**»[١].

وكان أحد المؤمنين الصّالحين يعطي خمس ماله أكثر من مرة إذا شك في حسابه، ولم يكن رجلاً ثرياً بل كان خمسه آنذاك لا يتعدى المئة فلس...

التأمّل في الأدعية

أكد أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في روايتهم المباركة على قراءة دعاء: (يا من أرجوه لكل خير...) في الصباح والمساء وبعد الصلوات[٢]، ومن الجدير بالإنسان قراءته ليلياً مرّة مع التأمّل والتدبر ليعرف المراد من كلمة (مَنْ) الواردة في الدّعاء، وهل أنّ رجاءنا متعلّق بالله حقّاً، أم بالمال والأسرة والأستاذ والرئيس و....؟!

فلو كان رجاؤنا بغير الله تعالى ينبغي لنا السّعي في إصلاح أنفسنا والاستعانة بالله تعالى على ذلك، علماً أنّ التأمّل في هذا الدّعاء مقدمة للتزكية التي هي واجب عيني، بالطّبع مجرد قراءة الدّعاء أمر مستحب في جميع الأحوال.

من مطبّات الشّيطان

من الأمور التي أكد عليها في القُرآن الكَريم هي الحذر من دخول النار إلّا أنّ الالتزام بمفادها يستلزم الآلاف من الأعمال لأنّ الكثير من الشياطين يحولون دون ذلك، وفي بعض الأخبار أنّ كل إنسان يلازمه خمسة وعشرون شيطاناً وملكاً..

وليس للشياطين همّ غير إضلاله، وهو مشغول بالكثير من الهموم، لذا فإنّ النجاة

(١) وسائل الشّيعة: ج٨ ص٢٤٨.
(٢) بحار الأنوار: ج٩٥ ص٣٩٠.

من الشّيطان مهمّة شاقة للغاية، قال تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[١] و﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢]..

وكثير ما يلقي الشّيطان في روع الإنسان الأفكار ليثقله بالشك والشبهات.

وقد رأيت بنفسي أحد الأشخاص أدخل يده أكثر من سبعين مرة في حوض الماء ليغسل يده ظناً منه أنّه يراعي الدّقة، دون أن يعلم أنّه صار فريسة للشّيطان الذي ساقه إلى وساوسه.

وقد وصف الله عزّ وجلّ أمثال هؤلاء أنهم: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[٣] و: ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾[٤].

ولا يخفى أنّ (أل) التّعريف إذا اقترنت بأفعل التفضيل أفادت كثرة العموم كما في كلمة (أخسرين) في الآية، فإنّ الأخسرين أناس مثلنا، وقد نكون منهم والعياذ بالله..

فإنّ الكثير ممّن جلسوا تحت منبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ طيلة ثلاثة وعشرين عاماً وصلّوا خلفه وحاربوا إلى جانبه أصبحوا من الأخسرين أعمالاً في نهاية المطاف..

أليس أنّ شمر بن ذي الجوشن ـ قاتل الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ ممّن حارب تحت لواء أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في معركتي الجمل وصفين؟!

ولكن كانت عاقبته أن يقتل ريحانة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بتلك الكيفية الفجيعة.

حذارِ من الغفلة

لا شك أنّ (الأخسرين) درجات ومراتب، ولعلّ بعضهم أسوأ من غيرهم، فمن

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٧.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.
(٤) سورة الكهف، الآية: ١٠٣.

طبيعة الإنسان إذا ما وقعت عينه على جسد ميت أن يتأثّر، أمّا مغسّل الأموات فالنّظر للميت عاديّ لديه لأنّه اعتاد على ذلك، وهذا ليس إهانة لمغسلّي الأموات لأنهم يؤدّون عملاً واجباً.

وكذا الحال لو اعتاد النّاس على سماع المواعظ، فهو أشبه شيء برؤية الغسّال إلى الأموات..

خلاصة القول: إنّ أساس التزكية هي الأدعية والزيارات التي ينبغي أن يقرأها المؤمن بتأمل عميق، دون الاكتفاء بالقراءة العابرة..

ففي إحدى زيارات سيّد الشّهداء عَلَيْهِ السَّلَامُ نقول: «واجعل سريرتي خيراً من علانيتي»[1] حقّاً! ما أروع النّفائس التي تحويها نصوص الزّيارات الشّريفة..

(١) تهذيب الأحكام: ج٦ ص٦٩.

التّسليم في الدّين

قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**واعلموا أن الإسلام هو التسليم، والتسليم هو الإسلام، فمن سلّم فقد أسلَمَ، ومن لم يسلّم فلا إسلامَ له**».

ليس هناك شك أنّ ضمير الفصل (هو) يفيد الحصر، فإذا قيل: «زيد هو الشاعر»، فإنّ مفاده أنّه وحده الشاعر[1].

وفي هذا القسم من الرّسالة قال الإمام الصّادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «الإسلام هو التسليم» ولو أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: «إنّ الإسلام التسليم» لاختلف مفاد الكلام وصار كبقية الأسماء وأخبارها.

وحيث إنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أورد ضمير الفصل (هو) بين الكلمتين ينحصر الإسلام في التسليم، أي: إنه لا فائدة من العمل بأحكام الإسلام المجرد عن التسليم، وهو إسلام غير تامّ.

ثم واصل الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حديثه، قائلاً: «والتسليم هو الإسلام».. مؤكداً ذلك بتأكيد آخر وهو: «فمن سلّم فقد أسلم»، إذ إنّ كل من يسلّم للأحكام التكوينية والتشريعية الرّبانية، فهو مسلم: «ومن لم يسلّم فلا إسلامَ له» أي: من لم تتكرس أحكام الله وتشريعاته في قلبه لا إسلام له.

ولا يخفى أنّ الإسلام غير منحصر في أداء عمل خاصّ، بل له أجزاء وشروط

---

(١) كما الوارد في سورة التوحيد المباركة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حيث تم حصر الأحدية باللّه تعالى.

وموانع عديدة، وهي بمجموعها تكوّن الإسلام، فالصّلاة ركن في الإسلام، وكذا هو الصوم والحج والجهاد، فهي لا تمثّل جميع الإسلام.

ففي يوم عاشوراء معظم الذين قتلوا الإمام الحسين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانوا من المصلين والصائمين والحاجّين، بل إنّ كثيراً منهم ـ كشمر بن ذي الجوشن ـ ممّن قاتلوا تحت لواء أَمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في معارك الجمل وصفين، ولعل العديد منهم كانوا أشد حرصاً من غيرهم على أداء الصّلاة أو قراءة القُرآن...

وقد نقل العياشي في ذيل قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[1] رواية عن أبي أيوب الخزاز، وهي:

«لو أنّ قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له، وأقاموا الصّلاةَ وآتوا الزكاة وحجّوا البيت، وصاموا شهر رمضان، ثم قالوا لشيءٍ صنعه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: لوضع كذا وكذا خلاف الذي صنع، لكانوا بذلك مشركين»[2] [3].

إذ لا يقال مشرك للملحد فقط، وإنّما الكفر والإلحاد أحد مراتب الشرك.. فمن كان يعتقد بوجود الله ووحدانيته ولكنّه يعبد عمليّاً غيره، كأن يعبد النّفس والمال والمرأة والولد والبيت، فهو مرتبة نازلة من مراتب الشرك أيضاً.

وقد قصدني أحدهم وقال: ابتعت بيتاً من فلان، ثم اتضح لي أنّ البيت كان مغصوباً وقد فرّ البائع. فقلت له: هل كنت تعلم أنّ البائع غاصب؟ فقال: نعم أعلم. فقلت له: عليك أن تعيد البيت إلى مالكه الحقيقي.. فأخذ يكرر القول: إذن فماذا سيكون مصير المال؟!

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٥.
(٢) اعترضوا ولم ترضَ قلوبهم.
(٣) تفسير العياشي، ج١ ص ٢٥٥.

أناس باعوا دينهم..

هناك مقولة متداولة بين عامّة النّاس حيث يقال: فلان باع دينه.. ولهذه التسمية حقيقة ومصداق، فإنّ البعض من النّاس يبيعون دينهم.. وتختلف أثمان ما يبيعونه حسب حالة البائعين.

فقد باع سمرة بن جندب دينه بأربعمئة ألف درهم أو دينار[1]، ولو كان البيع بالدرهم، لعادل حوالي مئة وخمسين كيلو من الذهب، أمّا لو كان بالدّينار، لعادل حوالي طنّ ونصف من الذهب الخالص..

وقد باع دينه مقابل أن يكذب كذبة على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.. فقدّم إليه معاويَة بن أبي سفيان هذا المبلغ، فاشترى به بيتاً وبستاناً وأرضاً.

ولكن! هل كان هذا المبلغ يستحق أن يبيع الإنسان به دينه ويخسر الآخرة؟

فقد يؤمّن هذا المال للإنسان عيشة رغيدة.. إلّا أنّه محكوم بالنفاد والفناء في يوم ما.. وحتى سمرة بن جندب هلك وفني.. ومنذ اللّحظة الأولى من موته إلى يوم القيامة هو يعذّب ويهان بعد أن أصبح لعنة التاريخ والأجيال فضلاً عن العذاب الشّديد المعد له في جهنم وساءت مصيراً.

صعوبة التسليم

لا شكّ أنّ التسليم مهمة صعبة ولكن لا مناص من إنجازها، فمن يريد أن يكون مع الأنبياء والأولياء في الآخرة ليس أمامه سوى طريق التسليم لله تعالى.

وفي الخبر أنّ الإمام الرّضا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان ينصح رجلاً، فقال له الرّجل: كنت صديقاً لأبيك موسى بن جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ، وليس من المعقول أن ينساني في يوم القيامة.

فقال الإمام الرّضا عَلَيْهِ السَّلَامُ له: هل تظن النجاة في الآخرة لمجرد صداقتك لأبي؟ فبظنك هذا تظلم أبي عَلَيْهِ السَّلَامُ...

---

(١) راجع شرح النّهج لابن أبي الحديد، ج٤ ص ٧٣.

ولعل خير مثال لذلك أنّ رجلاً محترماً يعيش في بيت طاهر نظيف وكبير جداً.. فيأتيه رجل مليء بالأوساخ ويعرض عليه ودّه وصداقته.. فهل يعقل أن تعقد مثل هذه الصداقة المزعومة؟

فلو أراد ودّه وصداقته، لراعى النظافة والطهارة ليسمح له بدخول البيت.

لذا ينبغي للإنسان أن يسلّم إزاء التكوين والتشريع.. فمن كان يفتقر إلى المال؛ فهو في حلٍّ من التسليم لأحكام الخمس والزكاة، ولكن من يملك المال الوفير عليه أن يسلّم لأحكام هاتين الفريضتين، وكلما كانت ثروته أكبر كان مطالباً بارتقاء درجات التسليم أكثر من غيره، بل وكان التسليم أصعب عليه..

وقد قيل لأحد الأثرياء: عليك أن تسدّد ما في ذمتك من الخمس. فردّ قائلاً: هل تعون ما تقولون؟

لو أنني أخرجت خمس أموالي، للزم أن أخرج كمية من ضخمة من المال.. حقيقة إنّ التسليم لفريضة الخمس والزكاة أمر صعب.

وأما تسليم العالم ومرجع الدّين؛ فيتمثل في أن لا يحل حراماً أو يحرم حلالاً، حتى وإن عرضت عليه الدّنيا برمّتها..

لولا التسليم..

كان عليّ بن أبي حمزة البطائني[1] عالماً دينياً ومفتياً ووكيلًا للإمامين الصّادق والكاظم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

(١) علي بن أبي حمزة البطائني قائد أبي بصير يحيى بن أبي القاسم واقفي، قال له أبو الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنت وأصحابك أشباه الحمير. وقال الرّضا عَلَيْهِ السَّلَامُ: سئل علي بن أبي حمزة في قبره عني فوقف فضرب على رأسه ضربة فامتلأ قبره ناراً وقال (عنه) أبو الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ: (أما استبان لكم كذبه؟ أليس هو الذي يروي أن رأس المهديّ يهدى إلى عيسى ابن مريم؟) وهو صاحب الشيباني أحد عمد الواقفة لعنه اللّه هو أشد الخلق عداوة للمولى بعد أبي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. رجال ابن داود ص٢٥٩.

وخلال فترة وجود الإمام الكاظم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تجمعت لديه آلاف الدّراهم والدنانير، وثلاثون جارية، وعدد من الأغنام والإبل من الوجوه الشرعية، وحينما استشهد الإمام الكاظم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يقبل أن يسلّم هذه الوجوه الشرعية إلى الإمام الرّضا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.. حتى انتهى به الأمر إلى إنكار إمامة الإمام الرّضا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واصطنع لنفسه مذهباً باسم (الواقفية) أضلَّ به عباداً كثيراً، وقد سمّى الإمام الرّضا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الواقفية بـ(الكلاب الممطورة)[1] تشبيهاً لهم بالكلاب التي يزيد تساقط المطر عليها من نجاستها، بخلاف بقية الأشياء فإنّ هطول المطر عليها مطهّر لها.. فترى البعض يمر سريعاً من جانب الكلاب الممطورة حذراً أن تنجّسه.

وكذا هو ابن أبي العزاقر[2] الذي كان معروفاً بولائه وتسليمه لله تعالى، ولكنّه لدى الامتحان انزلق وهوى، حتى لعنه صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشّريف، وقد ورد بحق أحد أهل البدع: «احذروا الصوفيَّ المتصنّع»[3].

هكذا أمر الله تعالى بالتسليم وعدم إبداء الشكوى والرّضا بما يحكم به الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ..

الهلع من الذنب

نقل أنّ رجلاً بلغ من العمر ستين عاماً، ففكر ذات مرّة أنّه لو اقترف في كل يوم من عمره ذنباً واحداً فقط، لكان مسؤولاً عن عشرين ألف ذنب.. ثم أخذ يفكر أنّه ماذا أعدّ جواباً لمثل التركة الثقيلة من الذنوب.. فأصيب بالسكتة وفاضت روحه..

علماً أنّ الكثير من النّاس يصابون بالسكتة.. إمّا لسماعهم نبأ ارتفاع أو انخفاض

(١) كمال الدّين: ص٩٣.

(٢) محمد بن علي الشلمغاني يعرف بابن أبي العزاقر له كتب وروايات، وكان مستقيم الطريقة متقدماً في أصحابنا فحمله الحسد للشيخ أبي القاسم بن روح على ترك المذهب والدخول في المذاهب الرديّة. فتغير وظهرت عنه مقالات منكرة حتى خرجت فيه توقيعات فأخذه السلطان وقتله وصلبه ببغداد. الكنى والألقاب، ج٢، ص٣٥٩.

(٣) مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٣١٨.

أسعار ما يتاجرون به، أو لاختلاف عائلي شديد، أو لدى تقسيم الإرث.. بينما صعق همّام[١] المؤمن الجليل وفاضت روحه لسماعه خطبة المتقين، حيث طلب من أَمير المؤمِنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بإلحاح شديد أن يبيّن له صفات المتقين.

وذات مرة جاءني أحد الأصدقاء بنبأ وفاة أحد الأشخاص، فسألت عن سبب موته، فأجابني بأنه لم يكن مصاباً بمرض أو يعاني داءً، ولكنّه كان قد ساعد في أيام حياته بمبلغ من المال في تشييد بيته، وحينما مات أبوه، قال للوارث الآخر بأن يعطيه ما يعادل ذلك المبلغ ـ سهمه من الإرث ـ فانجرّ ذلك إلى مشادة لفظية، انتهت بموته بسكتة..

(١) ابن أخي ربيع بن خثيم، في الخبر الذي تقدّم في نوف قال: وكان - يعني همّام - من أصحاب البرانس. إلى أن قال: فقام همّام بن عبادة وكان عابداً مجتهداً. إلى أن قال: فوضع أَمير المؤمِنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يده على منكب همّام بن عبادة فقال. وذكر الخبر بطوله، وفي آخره: فصاح همّام بن عبادة صيحة عظيمة وقع مغشيّاً عليه، فحركوه فإذا هو فارق الدّنيا (رحمة اللّه عليه)، فاستعبر الربيع باكياً وقال: لأسرع ما أردت موعظتك يا أَمير المؤمِنين بابن أخي! ولوددت لو أنّي بمكانه، فقال أَمير المؤمِنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها، أما واللّه لقد كنت أخافها عليه. إلى أن قال: فصلّى عليه أَمير المؤمِنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عشيّة ذلك اليوم وشهد جنازته ونحن معه، الخبر. راجع خاتمة المستدرك، ج٩، ص١٩٠.

الإحسان إلى النّفس

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «.. **ومَن سرَّه أن يبلغَ إلى نفسه في الإحسان، فليطعِ اللهَ، فإنه مَن أطاعَ اللهَ؛ فقد أبلغَ إلى نفسهِ في الإحسان، وإياكم ومعاصي الله أنْ تركبوها، فإنه مَنِ انتهك معاصيَ الله فركبها؛ فقد أبلغ في الإساءة إلى نفسه، وليس بين الإحسان والإساءة منزلةٌ، فلأهلِ الإحسان عند ربهم الجنةُ، ولأهلِ الإساءة عند ربهم النار**».

بالرّغم أنّ مراتب الإحسان إلى النّفس متفاوتة إلّا أنّ الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ يؤكد هنا على أنّ إطاعة الله عزّ وجلّ هي أرقى مراتب الإحسان للنفس، وأنّ اقتراف المعاصي هي أسوأ أنواع ظلم النّفس.

وقد تكررت جملة: «فقد أبلغ إلى نفسه في الإحسان» في كلام الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ مرّتين؛ للتأكيد على أنّ طاعة الله عزّ وجلّ هي أفضل وسيلة لراحة النّفس.. وأنّ صرف العمر بالفقر والشدائد لا يعدل شيئاً مقابل نيل نعم الآخرة الخالدة..

وحتى الإحسان إلى النّفس في الدّنيا كاكتساب المال الحلال، وتحصيل العزّة بالولد والعشيرة وغير ذلك فهي تنتهي بموت الإنسان، بينما لو أراد الإنسان العزة والراحة في الآخرة فضلاً عن الدّنيا، فلا مناص له من سلوك طريق الطاعة.. ولا ريب أنّ ذلك بحاجة إلى شيءٍ من التأمّل والتفكر ليصل الإنسان إلى هذه الحقيقة والقناعة..

الغفلة عن الطاعة

هناك الكثير من العقبات التي تحول بين الإنسان وبين الانشغال بالطاعة، والعاقل

وحده يطيع الله تعالى على أيّة حال.. ولذا تراه دائماً يسعى إلى توفير الراحة الأخرويّة التي لا تقرن براحة الدّنيا.

ولا علم لنا بنعم الآخرة إلّا بقدر ما بلغنا من الآيات والرّوايات المأثورة.. ففي الحديث الشّريف: «**ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ**»[١] حيث لا يعي الإنسان حقيقة الآخرة إلّا في الآخرة، كالرّجل الصحيح الذي لا يعرف قدر ما يتمتّع به من العافية إلّا بعد رؤية المرضى... وقد زرت ذات مرة أحد المرضى، فسألته عن حاله، فقال: أصبت بداء يقودني إلى تحمّل العطش إلى آخر يوم من حياتي، لأنّ بدني صار عاجزاً عن دفع السوائل، فإذا شربت الماء احتجت إلى تناول الأدوية ليدفع بدني السموم، ولذا أضطر لتحمل العطش وجفاف اللسان..

حقائق معقولة

من الأمور التي تقود الإنسان إلى السقوط في الهاوية هي الغفلة.. وعلى سبيل المثال: غاسل الأموات لا يعتبر بما يراه، لأنّه اعتاد على ذلك إلّا أن يلقّن نفسه بضرورة دحض الغفلة.

ولو أنّ غاسلي الأموات سمعوا حديث الموتى لاعتبروا وكفّوا عن التغسيل.. وكما عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**لو عاينتم ما قد عاين من مات منكم، لجزعتم ووهلتم**»[٢].

ونقل في أحوال السّيد جمال الدّين الكلبايكاني رحمه الله - من مراجع التقليد المعاصرين للسّيد الوالد - أنّه كان يقضي في أيّام شبابه بعضاً من لياليه في المقبرة إلى الصباح في مدينة أصفهان، أنّه رأى بعض العجائب في عالم المكاشفة.

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج١ ص٢٩٥.
(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٢٠.

حسرة الآخرة

عندما ينتبه الإنسان في عالم الآخرة إلى عظيم مخاطر ذلك العالم تغمره حسرة أبدية، حيث تكشف له الحقائق ويرى مصيره السرمدي، مع عجزه المطلق واطلاعه على أنّه لم يدخر لنفسه شيئاً..

والمؤلم حقاً أنّ فهم هذه الحقيقة وإدراكها من الصّعوبة بمكان في دار الدّنيا.. وهو أشبه شيء بصكوك المليارات بيد طفل صغير حيث لايعجبه منها إلّا ألوانها، دون قيمتها الباهظة.

ولو ضيّع طفل جوهرة ثمينة فلا لوم عليه لقصوره وجهله بقيمتها، ولكنّه إن كبر وعرف أنّه ضيّع تلك الجوهرة التي تعدل قيمتها الملايين، فإنه سيتحسّر ويندم إلى آخر عمره حتى لو أُخبر بعدم تقصيره في ذلك، لأنّه يدرك عظيم ما اقترفته يداه جهلاً وقصوراً، فتراه يتحسر على ضياع تلك الجوهرة ويتمنى أنّه لو لم يضيعها.

هكذا حال النّاس، فهم لا يتنبهون من غفلتهم إلّا عندما يموتون.. قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**النّاس نيامٌ، فإذا ماتوا، انتبهوا**»[1] وآنذاك تنعدم الفرصة في الإصلاح، ولن يكون أمامهم سوى العذاب والألم الأبدي، أو النعيم والخير الأبدي..

وفي الرواية عن المعصوم عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنّ الله جلّ وعلا سيسلب من أهل الجنة قوة الإدراك في جانب معيّن، لئلا يتطلع ذوي الرتب الدانية إلى مراتب الذين هم أعلى منهم، فلا تأخذهم الحسرة أو يؤذيهم الكمد والندم، فيتسبب له ذلك بالألم والعذاب.. فتكون الدّرجات العلى لهم كنسبة الطعام اللذيذ المقوي الذي لا يطمع به البعض حتى لو قدم إليهم بالمجان..

---

(١) بحار الأنوار: ج٤ ص٤٣.

لذّة الرّوح

كما يتلذذ الإنسان بالطعام اللذيذ، والمال الوفير، والراحة.. وكثير من الأشياء.. كذلك هي الرّوح.. فهي تلتذ بكثير من الأمور منها طاعة الله تعالى..

وكما أنّ الأحكام تتبع الأسماء والموضوعات كذلك الطاعة، فهي تتفاوت بتفاوت الأفراد، فالفرد السليم يطيع بهيئة تختلف عن طاعة المريض، وطاعة الغني تختلف عن طاعة الفقير، وطاعة العالم تتفاوت مع طاعة الجاهل وهكذا دواليك..

محور الطاعة

محور الكثير من الأعمال التي تعتبر من مظاهر الإيمان هو القلب.. وفي الصلوات الشعبانية، نقول: «واعمر قلبي بطاعتك»[1] فقد تقطع رجلا الإنسان ويبقى حياً، ولكن إن تعرّض قلبه لأبسط خطر، فإنّ حياته قد تتعرض للدمار..

والقلب هو أصل جميع المعارف والطاعات.. ومن لم تستقر الطاعة في قلبه كان كالفاكهة العفنة لا يمكن تناولها بحال من الأحوال..

وقد تقدّم عن الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّ الطاعة تمثل أسمى درجات الإحسان للنفس.. فإذا ما تكرس الوعي في عقل الإنسان بضرورة الطاعة تيسرت له، وإن عزم القلب على شيءٍ، سعى له بمستوى قدرته، حتى إنك لترى العازم على السفر في الصباح لا يحس بملل الأرق اللّيلي ويستيقظ في الصباح نشطاً.. بخلاف ما لو كان مجبوراً على السفر، فعادة ما يستيقظ كسلاً حتى لو نام نوماً عميقاً..

طعام السماء

نُقل في أحوال الشّيخ هاشم القزويني[2] ـ أحد علماء مدينة مشهد المقدسة وكان

(١) بحار الأنوار: ج٨٤ ص٦٨.
(٢) أحد تلامذة الميرزا مهدي الأصفهاني رحمهما اللّه في مدينة مشهد المقدسة.

يدرس في مدينة أصفهان ـ أن فترة من الفترات عمّ القحط والمجاعة البلاد، وكان المال متوفراً لدى النّاس دون الطعام..

كان الشّيخ يبحث ساعات عمّا يسد به جوع بطنه، فبلغه أنّ قصاباً قد نحر بعيراً في إحدى ضواحي المدينة، فقصده واشترى لنفسه كمية قليلة من اللّحم.. وعاد إلى المدرسة فرحاً واضعاً اللّحم تحت عباءته..

وفي الطريق وقع نظره على رجل على جانب الطريق واضعاً رؤوس أطفاله على ركبتيه وقد بدت عليهم آثار الجوع الشّديد.. فطلب الرّجل شيئاً من الطعام لأولاده مشيراً بطرفه إلى السماء، وكأنه يريد تذكيره بالله تعالى فيهم.

فسارع الشّيخ القزويني رحمه الله إلى المدرسة وطبخ شيئاً من اللّحم وعاد إليهم، فأعطى اللّحم إلى الرّجل وأخذ يلقم الأطفال اللّحم لعجزهم حتى عن فتح أفواههم..

وبعد دقائق فتح الأطفال عيونهم وعادوا إلى وعيهم.. وقد فرح الشّيخ رحمه الله فرحاً بالغاً لما رأى حالهم، فحمد الله وشكره.. وعاد إلى مدرسته حاملاً جوعه الشّديد معه..

وفي طريقه إلى المدرسة رأى شيخاً كبيراً في السن لم يره من قبل وقد وضع صرّة أمامه على الأرض وقال له: هذه الصرّة لك.. فسأله: ومن أرسلها؟

فأشار بنظره إلى السماء، وكأنّه يقول له: إنّها من الله تعالى.. ثم ذهب.

ولما فتح الشّيخ القزويني رحمه الله الصرّة وجد فيها عدداً من أقراص الخبز الساخنةالمطليّة بالدهن.. فاقتسمها مع رفاقه، وكان الشّيخ رحمه الله يؤكد بأنه لم يأكل في عمره ألذ وأطيب من ذلك الخبز..

لا ريب أنّ هذه الحادثة حادثة استثنائية، لأنّ من سنن الله تعالى أن يثيب على الصالحات في الدار الآخرة ليمتحن النّاس، ولو أنّهم نالوا جزاءهم على الفور لانتفت -أو ضعفت- الحكمة في الامتحان.

اجتناب الذنوب

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**واعلموا أنّـه ليس يُغني عنكم من الله أحدٌ من خلقِهِ شـيئاً؛ لا مَلَكٌ مقرّبٌ ولا نبيٌّ مرسـلٌ ولا مَن دونَ ذلك، فمن سرَّه أن تنفعه شـفاعة الشافعين عند الله؛ فلْيطلبْ إلى الله أن يرضى عنه**»[١].

تكررت في هذه الفقرة والفقرة التي تليها من رسالة الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ كلمة (خلق) ما يؤكد على أنّ مقصود الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ غير مقتصر على الإنسـان فحسب بل يشمل جميع مخلوقات الله سبحانه وتعالى.

بالطّبع الطاعـة الحقيقيّة منحصرة بالله والرّسـول والأئمّة سـلام الله عليهم، وهم لا يريدون بهـا إلّا رضوان الله، فهـم يفعلون ما يأمرهـم به الرب، وينتهـون عما نهى، وليسـت الطاعة سـوى ذلك. ثم إنّ الطاعة بحاجة إلى العلم بالواجبات والمحرمات، ويليها الحاجة إلى العمل بها.. ليكون الرّضا الرباني منحصراً في الطاعة..

أفضل الأعمال في شهر رمضان

كان رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يسـتقبل شـهر رمضان المبارك في كل عام، فيرتقي المنبر خطيباً.

وفي إحدى الخطب النبويـة المروية عن أمير المؤمنيـن عَلَيْهِ السَّلَامُ وردت مواضيع كثيرة منها صلة الأرحام وإعانة الفقراء وغير ذلك.. وقد سـأل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ الرّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فقال[٢]:

---

(١) نص الرّسالة الشرّيفة.

(٢) قال النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما من علم إلاّ وقد أحصاه الله فيَّ، وكل علمٍ علّمنيه، قد علّمته عليـاً»، كتاب (اليقين)، للسـيّد ابن طاووس ص٣٥٠. ولذلك فإن السـؤال المطروح من قبل الإمام علي هو سؤال العارف الذي يقصد أن يُفهم الآخرين، ويستعان لذلك - لتقريب الذّهن - بأحد العلماء الذي يسـأل مرجع التقليد بحضور الآخرين، ليتعلّموا شـيئاً، مع علمه المسبق بجواب السؤال. (المؤلف).

«يا رسول الله! ما أفضل الأعمال في هذا الشهر»؟

فأجاب النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ قائلاً: **«الورع عن محارم الله»**[١].

وبالرّغم أنّ هذه الجملة حجمها صغير إلّا أنّ العمل بها يتطلّب دقة كثيرة.. وشهر رمضان المبارك هو خير فرصة لتحصيل هذا الاستعداد لتكريس الوعي والسّعي في بناء الذّات.

وقد أكد النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في خطبته المباركة أنّ الشياطين في هذا الشهر مغلولة، ودعا المؤمنين أن يطلبوا من ربهم أن لا يفك عنهم الأغلال.. وهذا الطلب لا يتحقّق إلّا بعمل دون القول..

وقد سمعت أنّ شخصاً سأل أحد العلماء عن مسألة، فأجابه باختصار، فقصد السائل عالماً آخر كان حاضراً، وسأله المسألة نفسها بحضور العالم الأوّل، فأجابه بالتفصيل، فالتفت العالم الأوّل إلى الثاني، وقال: لديك حافظة قوية بحيث تستطيع الإجابة على هذا النحو من التفصيل، فقال العالم الثّاني: إنّ ذلك بحاجة إلى جهد كبير، فضلاً عن الحافظة القوية!

ضحكة أورثت ندماً

نُقل في أحوال أحد العبّاد: أنّ شخصاً رآه راكعاً في الهواء البارد وكانت الثلوج تهطل عليه بقوة، وبعد أربع ساعات عاد الشخص فرآه على ركوعه وقد تراكمت الثلوج على ظهره..

وبالرّغم من ذلك قيل إنّه بقي طويلاً ينازع الموت حتى فاضت روحه.. وفي أحد المنامات رآه أحدهم، فسأله قائلاً: كنت رجلاً عابداً، فلماذا عانيت كل هذه الشدة والصّعوبة عند احتضارك؟ فأجاب سبب ذلك، كنت قد ضحكت بصوت عالٍ في حرم الإمام الرّضا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مرتين..

---

(١) وسائل الشّيعة: ج١٠ ص٣١٤.

فليس من الغريب أن يُحاسب العاقل البالغ على ما في أطراف ردائه من وسخ إذا ما دخل مجلساً محترماً.. بينما يغض الطرف عن الطفل القاصر حتى لو كانت كل أطراف بدنه متّسخة..

وقد عبّر الإمام الحسن المجتبى عَلَيْهِ السَّلَامُ عن لحظات الاحتضار التي تصعب على الكثير بقوله: «هول المطّلع»[١].

ولعل خير مثال لمحاربة الشّيطان هي التمارين التي يمارسها الأبطال من ربط أنفسهم بالسيارات وجرها أو منعها من الحركة.. علماً أنّ الشّيطان أقوى من السيارات بلا شكّ وهو لا يجامل أحداً، ولذا لو يتمرس الإنسان على التمارين الصعبة فإنّ الشّيطان يهوي به إلى قعر جهنم.

مقياس أهل الدّنيا

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**اتّخذوا الشّيطان لأمرهم مِلاكاً**»[٢] أي: إنّ أهل الدّنيا اتخذوا من أفكار الشّيطان مقياساً لحياتهم وطريقاً لسلوكهم، فكما أنّ لكل ذي حرفة ملاكاً، فالبعض ملاكه المالُ، والآخر العلمُ، والآخر الرّياضة... كذا هم عبّاد الدّنيا؛ فإنّ الشّيطان هو الشّيطان يحذون حذوه ويتبعون خطاه..

وأضاف الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّ الأمر يبلغ بالشّيطان ـ بعد أن يغويهم ـ أنّ يستعملهم فخّاً وطُعماً يغوي بهم الآخرين، فقال: «**واتخذهم له أشراكاً**» كما يفعل صائد الطيور، حيث يقيد رجل الطائر بحبل يمسك به ليخدع به الطيور المحلقة، فيحملها على الحط عنده..

وفي الختام يبين عَلَيْهِ السَّلَامُ المصير المرّ لمثل هؤلاء، فيقول: «**فرّخ في صدورهم، ودبَّ ودرج في حجورهم**»، أي: إنّ الشّيطان حوّل عقولهم وقلوبهم إلى مستوطنات

(١) وسائل الشّيعة: ج١١ ص١٣١.
(٢) نهج البلاغة: الخطبة رقم٧.

يبيض فيها ويفـرّخ.. والمؤلم حقاً أنّ هذا الأمر غير مقتصر على البسـطاء، بل يشـمل بعض أهل العلم ممّن يقعون في شراك الشّيطان..

عالمٌ أضلّه علمه!

كان أبو الخطّاب[١] أحـد تلامذة الإمـام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ ويبدو أنّـه حينما كثر علمه ـ ادّعى ربوبية الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنه مبعوث مـن قبله، وقد عرج معه إلى السماء، وكان قد اتبعه عدد من النّاس الهمج الذين يميلون مع كل ريح.

نقل في (بحار الأنوار) أنّه قيل للإمام الصّـادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنّ أبا الخطّاب يلبّي في الحج باسـمك، فبكى الإمام وأعلن براءته من ذلك، وقال: «**اللهم إنّي عبدك وكان أبي عبدك، وجميع أعضائي وجوارحي تصدح بالعبودية لك..**».

يقول زيد بن النرسـي: قال الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك وكانت دموعه تهطل.. حتى قال: لم تكن تلبية الأنبياء والمرسـلين كهـذه التلبية، ولم تكـن تلبيتي بذلـك، وإنما أقول: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شـريك لك» ثم قال: «**يا زيد! قلتُ لك ذلـك ـ البراءة من تلبيـة أبي الخطّاب ـ لاسـتقرّ في قبـري**»[٢] ولايخفـى أنّ الإمـام عَلَيْهِ السَّلَامُ لا علاقة له بما يقوله أبو الخطّاب أبداً، وهو يعـرف القُرآن الكَريم أفضل من غيـره، وقد قرأ قوله

(١) محمد بن مقلاص الأسـدي: الكوفي، أبو الخطّاب، ملعون غال، يكنى مقلاص أبا زينب البزاز البراد، من أصحاب الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ. لعنه اللّه أمره شـهير، وأرى ترك مـا يقول أصحابنا: حدثنا أبـو الخطّاب في أيام اسـتقامته، رجـال ابن الغضائـري. محمد بن أبي زينب اسـمه مقلاص أبو الخطّـاب البراد الأجدع الأسـدي، ويكنـى أيضا أبا إسـماعيل، ويكنـى أيضا أبا الطيبات. قال حمدويـه وإبراهيم ابنا نصير قالا: حدثنا الحسـين بن مـوسى، عن إبراهيم بن عبد الحميد، عن عيسى بن أبي منصور قال: سـمعت أبا عبد اللّه عَلَيْهِ السَّلَامُ وذكر أبا الخطّاب فقال: اللّهم العن أبا الخطّاب فإنه خوفني قائمـاً وقاعداً وعلى فراشي، اللّهم أذقه حر الحديد، رجال الكشي. ثم روى الكشي روايات كثيرة تدل على كفره ولعنه، لعنه اللّه. نقد الرّجال، ج٤، ص٣٢٨.

(٢) بحار الأنوار: ج٤٧ ص٣٧٨.

سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أفضل من غيره..[١]

أأنت قلت للناس؟

ذهب بعض النّاس إلى أنّ نبيّ الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ابن الله، وفي القُرآن الكَريم أنّ الله تعالى سيسأله في يوم الحساب قائلاً: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟[٢] فيجيب هذا النبيّ العظيم: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾.

الملفت للانتباه أنّ الله تعالى يسأل عيسى ابن مريم وهو يعلم أنّه لم يدّع ذلك، ولكنّه يريد دحض هذا الادعاء على مرآى ومسمع من عبدوه من دون الله وأشركوا به.. وكذا هو الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو ببكائه ناظر إلى الاستجواب يوم القيامة..

ولذا ينبغي لنا الاقتداء بأهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ولو أنّ من المستحيل بلوغ مراتبهم.. ولكن يكفينا قول الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أعينوني بورعٍ..**»[٣].

وشهر رمضان المبارك خير فرصة لنيل الورع، وأول مراحله ترك المحرمات وأداء الواجبات، وإحراز مقدمتهما، وهما؛ العلم والعمل معاً..

بالطّبع الوصول إلى ذلك بحاجة إلى الكثير من التّمرين.. فلكي ينزع الإنسان حب الدّنيا من قلبه لا بد أن يتمرن على ذلك...

فالدّنيا مطية عبور، وسيحشر الإنسان يوم القيامة حاملاً أعماله على ظهره.. فقد يكون كأبي الخطّاب الذي لعنه المعصوم عَلَيْهِ السَّلَامُ وتبرأ منه، أو يكون كولده؛ الحسين بن أبي الخطّاب الذي أصبح من الثقات وأركان التشيّع!

---

(١) تكررت هذه الآية في أربع سور قُرآنية مباركة: سورة الأنعام، الآية: ١٦٤، سورة الإسراء، الآية: ١٥، سورة فاطر، الآية: ١٨، سورة الزمر، الآية: ٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

(٣) نهج البلاغة: الرّسالة رقم٤٥.

اتّباع التعاليم الإلهيّة

قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**واعلموا أنّ أحداً من خلقِ الله لم يصبْ رضا الله إلّا بطاعته وطاعةِ رسولِهِ وطاعةِ ولاةِ أمرِهِ مِنْ آلِ محمدٍ عَلَيْهِمِ ٱلسَّلَامُ، ومعصيتَهم من معصية الله، ولم يُنكِرْ لهمْ فضلاً؛ عَظُمَ أو صَغُرَ**».(١)

إنّ كلمة (أحداً) نكرة في سياق النفي وهي تفيد العموم، ولم يطلها التخصيص والاستثناء...

ومعنى الفقرة: أنّه ليس لأحد نيل رضا الله تعالى من دون اتباع تعاليمه وتعاليم رسوله وتعاليم أولي الأمر وهم آل بيت الرّسول عَلَيْهِمِ ٱلسَّلَامُ.

فإذا اجتمعت هذه الخصائص الثلاث ـ طاعة الله وطاعة الرّسول وطاعة أهْل البَيت عَلَيْهِمِ ٱلسَّلَامُ ـ في أحد، فقد أصاب رضا الله تعالى، ولن ينال أحد رضا الله تعالى لو فقد إحدى هذه الخصائص الثلاث.

فلا يمكن القبول بالقُرآن الكَريم من دون الرّسول، ولا ثمرة للإيمان بالقُرآن وبالرّسول إذا كان منفكاً عن الإيمان بخلفائه وأوصيائه.. بالطّبع فإنّ تحصيل رضا الله تعالى يختلف عن مقام العفو الرباني، فلعل الله تبارك وتعالى يعفو عن أحد ولما يرضَ عنه.. إلّا أنّ السّعي إلى تحقيق رضا الله بحاجة إلى إحياء الخصائص الثلاث المذكورة في النّفس..

---

(١) نص الرّسالة الشرّيفة.

وكلمة (مِنْ) حرف إنشاء، أي: إنّ: «معصيتهم من معصية الله» تفيد أنّ معصية الرّسول وأولي الأمر هي معصية الله تقدست أسماؤه.

لنتبع تعاليم أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

أشار الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى شرط من شروط نيل رضا الله عزّ وجلّ، فقال: «لم ينكر لهم فضلاً؛ عظم أو صغر».

فإنّ نيل رضا الله موقوف على عدم إنكار فضائل أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فضلاً عن اتباع تعاليم الله ورسوله وأولي الأمر.

فمن يتبع أوامر الله ورسوله وأولي الأمر، ثم ينكر بعض فضائل أولي الأمر لن ينال رضا الله تعالى، ولا فرق في ذلك بين أن تكون هذه الفضائل صغيرة أو كبيرة.

فإنّ من الذنوب العظام الإصرار على الصغائر.. وإنكار فضائل الأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ذنب كبير ولو كانت صغيرة.. لأنّ نيل رضا الله تعالى متوقف على إحراز تلك الخصائص الثلاث، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1].

ووفق هذه الآية الكَريمة ـ منطوقاً ومفهوماً ـ فإنّ ما يأتي به النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فيه الخصوصيّة نفسها لما يأتي به القُرآن الكَريم.. ومن جملة ما جاء به الرّسول قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ المتواتر: «**علي مع الحقّ والحق مع علي**»[2] وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**إني تارك فيكم الثقلين؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي**»[3].

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٢) الغدير: ج٣ ص١٧٧.
(٣) الكافي: ج٢ ص٤١٥.

اعمل بما أمرناك

قرأ عبد الله بن سنان[١] على الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ دعاءً كان قد علّمه إياه، وبدلاً من أن يقول: «**يا مقلّب القلوبِ! ثبّت قلبي على دينك**» قال: يا مقلّبَ القلوب والأبصار... فاستنكر الإمام عليه، وقال: إنّ الله مقلّب القلوب والأبصار ولكن اعمل بما أمرناك[٢]...

فإنّ للإنسان أن يطلب حاجاته من الله بأي لسان أراد، ولكن التصرف والتغيير في ما ورد عن المعصومين عَلَيْهِ السَّلَامُ أمرٌ حرام كما عن الكثير من الفقهاء، بل إنّ بعض الفقهاء حرّم اختراع الأدعية مستدلّاً على ذلك بما ورد عن عبدالرحيم القصير، عن أبي عبدالله عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: قلت له عَلَيْهِ السَّلَامُ: إني اخترعت دعاءً، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «دعني من اختراعك»[٣].

ونُقل أنّ الحسين بن روح[٤] رضوان الله عليه كان يقرأ على الشّيعة دعاءً.. فعاده في اليوم الثّاني إبراهيم بن إسحاق وهو يقول في نفسه: أتراه ذكر ما ذكر لنا يوم أمس من عند نفسه؟!

فابتدأني فقال لي: يا محمّد بن إبراهيم لأن أخرّ من السماء، فتخطّفني الطير، أو

(١) نسبت الحادثة في بعض النصوص الروائية إلى عبد الرحيم قصير.
(٢) بحار الأنوار: ج٥٢ ص١٤٨.
(٣) بحار الأنوار: ج٤٤ ص٢٧٤.
(٤) الحسين بن روح: هو السفير الثالث للحجة المنتظر صلوات اللّه عليه، وبابه ونائبه، أبو القاسم الحسين بن روح النوبختي. كان قبل تشرفه بمقام السفارة وكيلاً للنائب الثّاني، أبي جعفر محمد بن عثمان العمري، فكان ينظر له في أملاكه سنين عديدة، ويلقى بأسراره الرؤساء من الشّيعة، وكان خصيصاً به. فحصل له في أنفس الشّيعة مقام جليل، لمعرفتهم باختصاصه بالعمري، وتوثيقه عندهم، ونشر فضله ودينه، فتمهدت له الحال في طول حياة العمري إلى أن انتهت الوصيّة إليه بالنص عليه، فلم تختلف الشّيعة في أمره. كان أبو القاسم رضوان اللّه عليه من أعقل النّاس عند المخالف والموافق، ويستعمل التقية، وكانت العامة أيضاً تعظمه. بقي نائباً أكثر من عشرين عاماً حتى وافته المنية سنة ٣٢٦هـ.

تهوي بي الريح في مكان سحيق، أحبّ إليّ من أن أقول في دين الله تعالى ذكرُهُ برأيي ومن عند نفسي، بل ذلك عن الأصل[١].

التلاعب بالأحكام

لعن الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أبا الخطّاب في أكثر من موقع منها لما بلغه أنّه يتلاعب في بيان الأحكام ومن ذلك قوله: «لقد قلت له: مسّوا بالمغرب قليلاً، ولكنّه قال: أخّروا صلاتكم حتى تشتبك النجوم»[٢].

ومن المعلوم أنّ الغروب يختلف عن المغرب، فالغروب يطلق على اختفاء الشّمس في الأفق، والمغرب هو ما يلي ذلك بدقائق قليلة حيث ترتفع الحمرة المشرقية.

والمشهور بين الفقهاء أنّ المغرب يختلف عن الغروب، وأنّ وقت أداء الصّلاة والإفطار هو المغرب. أما اشتباك النجوم فيكون بعد نصف ساعة من المغرب...

ومن المسلّم أنّ تأخير الصّلاة إلى هذا الوقت لا مانع منه من النّاحية الشرعية، إلّا أنّ الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لعن أبا الخطّاب لتغييره حكم الله وتعمد التّحريف في قول المعصوم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ففي الرواية: «أولُ الوقت أبداً أفضلُ»[٣] ولكن أبا الخطّاب غيّر الحكم الشرعي مدعياً أنّه ينبغي الانتظار لوقت الفريضة حتى تشتبك النجوم[٤]..

(١) تهذيب الأحكام: ج٢ ص٢٥٩.
(٢) الكافي: ج٣ ص٢٧٤.
(٣) الكافي: ج٣ ص٢٧٤.
(٤) ذكر العلامة في المختلف فقال: قال الشّيخ: هذا الخبر لا يعتبر به، والمراعى ما قدمناه من سقوط القرص، وعلامته زوال الحمرة من ناحية المشرق، وظهور ثلاثة أنجم كان يعتبره أصحاب أبي الخطّاب لعنه اللّه. مختلف الشّيعة، ج٣، ص٥٠٣.

الاستخفاف بالدّين

عن جابر عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: أتاه رجل، فقال له: وقعت فأرة في خابية فيها سمن أو زيت، فما ترى في أكله؟

قال: فقال له أبو جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ: لا تأكله.

قال: فقال له الرّجل: الفأرة أهون عليّ من أن أترك طعامي من أجلها.

قال: فقال له أبو جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنك لم تستخف بالفأرة، وإنما استخففت بدينك[1].

لا شكّ أنّ من الواجب على النّاس اتباع التعاليم الإلهيّة الواردة في القُرآن الكَريم، وما بلغنا عن الرّسول الأعظم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والأئمّة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والتسليم بها حتى لو كانت على خلاف مصالحنا ورغباتنا...

ولا بد أن يتعلّم المكلف الأحكام التي هي محل ابتلائه، فما من حادثة إلّا ولله فيها حكم.. ولعل مئات المسائل يتعرّض لها الإنسان يومياً... فلا بد له أن ينظر إلى الأحكام على أنّها تعاليم السماء فلا يستصغرها أو يستخف بها كما استخف ذلك الرّجل بنجاسة الفأرة فنسب إليه الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ الاستخفاف بالدّين.

تصبير النّفس

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**صبّروا النّفسَ على البلاء في الدّنيا، فإنّ تتابع البلاء فيها والشدة في طاعة الله وولايته وولاية من أمر بولايته خير عاقبة عند الله في الآخرة من مُلكِ الدّنيا؛ وإن طال تتابع نعيمها وزهرتها وغضارة عيشَها**»[2].

حثّ الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ الشّيعة في هذه الفقرة على تصبير النّفس مقابل بلايا

(١) الاستبصار، ج١، ص٢٤.
(٢) نص الرّسالة الشرّيفة.

الدّنيا، قائلاً: «صبّروا النّفسَ» وأنّ عملية التصبير هذه ينبغي أن تكون مستمرة وحقيقية.

ومن طبيعة النّفس لو خلّيت وطبعها أنّها لا تعرف الصبر، فهي كالشعلة الوقّادة لا يكبح جماحها غير العقل، فهو القادر على إيقافها.. وقد أهوت النّفس بملايين النّاس في جهنم، وحقاً هو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[1] وقوله: (أمّارة) صيغة مبالغة، واللام الواردة عليها للقسم، وحرف (إنّ) قبلها يفيد التأكيد.. وما لم يقيد العقل اندفاع النّفس وميولاتها لا ينبغي للإنسان أن يتوقّع غير الدمار والهلاك.

ولعل تأكيد الإمام الصّادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: (صبّروا النّفس) إيعاز إلى أنّ ضبط النّفس وتصبيرها ينبغي أن يكون مستمراً.

دار بالبلاء محفوفة

من حكم الله عزّ وجلّ أنّه لما خلق الإنسان أودع في حنايا نفسه شهوات ورغبات مختلفة حمّله مسؤوليّة تقنينها...

ومن عادة النّفس الإنسانية أنّها تميل إلى الشهوات، وتجزع في المصائب، وتخلد إلى ما يخالف الشرع، لذا ينبغي للإنسان أن يحد من رغباتها عبر اتباع تعاليم أهْل البَيت عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ والسير على نهجهم النير.

بالطّبع الدار التي يعيش فيها الإنسان محفوفة بالبلاء، والامتحان فيها متواصل.. ومع ذلك ينبغي للإنسان أن يروّض نفسه لتنصاع إلى ما دعا إليه الشارع المقدس.

ومن حكم الله تعالى أنّه أودع في الإنسان قوتين، وهما الجزع والصبر، وجعله قادراً على إدارة هاتين القوتين..

مقابل هذا الواقع أسلم البعض الزمام للنفس، والبعض أسلم العنان إلى العقل.. والطرفان يسيران نحو الآخرة.. ولكن مصير أحدهما النار والعذاب، والآخر الجنة والنعيم.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

فأمّا الذين أسلموا الزمام لأنفسهم؛ فتراهم يتخبطون بارتكاب المعاصي ممسوسين ليجدوا خلاصاً من البلايا...

وأمّا الذين رجوا لقاء الله والتنعّم برحمته، فقد اتخذوا من الصبر شعاراً ومسلكاً.. فتراهم يجهدون في طاعة الله وولاية أوليائه والتمسك بفضائل الأخلاق مع عبيده..

قيمة التسليم لله عزّ وجلّ

من أهم ما يتميّز به المؤمن هو تقديم رضا الله عزّ وجلّ على أهوائه ورغباته، لأنّه يعي جيداً أنّ للتسليم لله والصبر على بلائه قيمة باهظة جداً في الآخرة.. وأنّ تحمل المصاعب لأيام معدودات، يعقبه راحة أبدية...

فقد شيد هارون العباسي وفقاً لمقاييس ذلك الزمان ـ أكمل بيت لم يستطع أحد من المشاهدين ذكر عيب فيه، فالجميع امتدحوه وامتدحوا هارون على تشييده.. إلّا أنّ أحدهم أشار إلى عيب كبير جداً، فقال لهارون: إنّ هذا البيت معيب، فتعجّب هارون وقال: وأيّ عيب تقصد؟ فقال الرّجل: إمّا أنّك ستدخله وتموت فيه ولن تخرج منه حياً، أو أنّك ستخرج منه حياً، ثم تموت في مكان آخر، ولا يمكنك العودة إليه.. فهل لك أن ترفع هذا العيب الفظيع؟

العزم رمز النّجاح

قال الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وإن طال تتابع نعمها وزهرتها وغضارة عيشها**».

لا شكّ أنّ الدّنيا محكومة بالفناء يوماً ما، سواء كان ذلك بفناء أهلها أو لفنائها لما تقوم القيامة.. فهي فانية على كل حال.. ولذا ينبغي للإنسان أن يتمسك بالآخرة التي هي دار القرار الحقيقي.. وهذا التمسك متوقف على عزم أكيد، فهو رمز النّجاح والموفّقية في كل الأمور..

وقد رأيت العديد من النّاس امتلكوا داراً بقليل من الكسب، بينما يفتقر الكثير من

ذوي المكاسب الوافرة إلى دار صغيرة، وذلك لأنّ صاحب الكسب القليل عزم على امتلاك دار، ثم اقتصد في مصروفه ونظّم معيشته بناءً على عزمه وهدفه إلى أن نال مرامه..

وعلى العكس أصحاب المكاسب الوافرة، فإنّهم لم يعزموا أساساً على امتلاك دار، فضلاً عن بقية العوامل غرار التشاؤم من المستقبل أو التبذير في المال، أو قلة الذكاء في التخطيط..

رمز الموفّقية للمرجعية

نُقل أنّ عدة من كبار العلماء قصدوا الشّيخ مرتضى الأنصاري رحمه الله بعد وفاة صاحب (الجواهر) رحمه الله ليطلبوا منه التصدي للمرجعية الدّينيّة، ولكن الشّيخ الأنصاري رفض، فطالبوه بالوجه في ذلك، فقال: حينما كنت أدرس كان أحد زملائي أكثر فهماً للدروس وهو يعيش الآن في شمال إيران، فاقصدوه وحمّلوه هذه المسؤوليّة الخطيرة، فقصد العلماء ذلك العالم في شمال إيران، ولما قصّوا عليه الأمر، أجابهم بأنّ الشّيخ على حق، كنت أفضل منه في الدّروس، ولكنني تركت البحث والتحقيق العلمي منذ مدّة طويلة ولا شكّ أنني لم أعد أرتقي لمستوى الشّيخ، فاقصدوه وأخبروه بأنّ رداء المرجعية يليق له دوني، وليتحمل عبء هذه المسؤوليّة براحة ضمير..

وقد حدث مراراً أن يبدأ شخصان في طلب العلم، أحدهما من أسرة علمية كبيرة، والآخر من أسرة بسيطة، ولكن وبعد مدّة يتقدم الثّاني على الأوّل في طي المدارج العلميّة.. لأنّه استعان بالصبر والجهد والتّقوى ألزم نفسه التحمل..

الاستخفاف.. سبب التراجع

من الأمور التي تؤدي إلى الخسارة في الأمور الدّنيويّة فضلاً عن الآخرة هي الاستخفاف بالأعمال وترك الاستعداد...

تقول حميدة البربرية[١] إنّ الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أمر قبل لحظات من استشهاده أن يجتمع إليه ذووه ليوصيهم بوصاياه..

فأرسلنا إلى قرابى الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، فاجتمعوا عنده، وبينما الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في تلك الحال فتح عينيه ونظر إلى الحاضرين، وقال: «**لا ينال شفاعتنا من استخف بالصّلاة**»[٢] كانت هذه الجملة آخر ما تحدث به عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم فوّض روحه الطاهرة إلى ربه المتعال.

ولا يخفى أنّ أقارب الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ كانوا أناساً صالحين، بل إنّ الكثير منهم كانوا من أركان وعظماء الدّين، ولذا ـ وكما يبدو ـ أنّ خطاب الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ غير مقتصر على الحاضرين فقط، وإنما يشمل جميع شيعته ومحبّيه..

وعلى كل فإنّ الاستخفاف بالتعاليم الإلهيّة يقود الإنسان إلى الفشل الذريع والخسران المبين..

ينقل في أحوال أحد تلامذة الشّيخ ضياء الدّين العراقي[٣]، وكان قد تتلمذ عليه مدّة ثلاثة عشر عاماً لم يغب فيها عن درسه سوى مرة واحدة فقط.. علماً أنّ الدّروس آنذاك كانت تستمر طوال العام، وليس كما هو في هذه الأيام حيث تعطل الدّروس في الصيف..

ومن الطبيعي أنّ ذلك التلميذ المجد كان كسائر النّاس والطّلاب يتعرض

---

(١) حميدة البربرية هي إحدى النساء العالمات في زوجات المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهي والدة الإمام موسى بن جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) الكافي: ج٣ ص٢٧٠.

(٣) الشّيخ ضياء الدّين علي ابن الشّيخ محمّد العراقي (١٢٧٨هـ ـ ١٣٦١هـ) كانت بداية دراسته في بلده، ثمّ سافر إلى مدينة أصفهان لإكمال دراسته، ثمّ سافر إلى مدينة النّجف الأشرف لمواصلة دراساته العليا. ولد بمحافظة أراك في إيران، تتلمذ على علماء فطاحل أبرزهم: ١ـ الشّيخ فتح اللّه الأصفهاني، المعروف بشيخ الشريعة. ٢ـ الشّيخ محمّد كاظم الخراساني، المعروف بالآخوند. ٣ـ الشّيخ محمّد الكاشاني، المعروف بالآخوند الكاشي. ٤ـ السّيد محمّد كاظم الطباطبائي اليزدي. توفّي الشّيخ العراقي(قدس سره) في الثامن والعشرين من ذي القعدة ١٣٦١ هـ بمدينة النّجف الأشرف، ودفن في الصحن العلوي للإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

للمشاكل والأزمات من تحمل مسؤوليّة الأسـرة وغيرها، إلّا أنّه كان مثابراً في دراسته الدّينيّة ولم تحدوه كثرة المسؤوليات والأزمات إلى الاستخفاف بالدرس.

مراتب الاستخفاف بالصّلاة

قال الشّيخ عبد الرحيم القمّي رحمه الله[١]: قد ينظر الإنسان يوم القيامة إلى صحيفة أعماله، فلا يجد فيها أثـراً لركعتين كاملتين من الصّلاة، ذلك لأنّـه عجز في حياته عن أداء ركعتين بحضور قلبي كامل وتوجه حقيقي من تكبيرة الإحرام وإلى السّلام.

ولا شكّ أنّ الاستخفاف على مراتب ودرجات، والنّاس فيه مختلفون.. فقد يحزن إنسـان طيلة يومه لعدم اسـتيقاظه لصلاة الفجر، ويبقى يكابد الهمـوم والأحزان جرّاء ذلك.. بينما يحرص آخر كل الحرص على الوقوف في الصف الأوّل لصلاة الجماعة، ولكنّه ما أن يكبر تكبيرة الإحرام حتى يشرع بالتفكير بالقضايا الدّنيويّة..

وقد ورد في الأحاديث الشّـريفة أنّ بعض النّاس يرون فـي صحائف أعمالهم يوم القيامة أنهم قد صلّـوا صلاة الظهر ركعتيـن، وصلاة المغرب ركعة واحـدة، بل ولعل بعض صلواتهم لم يبـق منها إلّا سـجدة واحدة أو بسـملة، وذلك حسـب حضورهم القلبي وتركيزهم الذهني أثناء الصّلاة.. علماً أنّ الإنسـان في الآخـرة يأمل لو أنّ ثلث الصّلاة ـ مثـلاً ـ قد أثبت في صحيفة أعمالـه، ولكن ماذا لو نظر الإنسـان إلى كتابه في يوم القيامة فوجده خالياً من الصّلاة؟!

هكذا هي مراتب الاسـتخفاف، فالبرغم من أنّ عدم التوجه فـي الصّلاة لا يبطلها إلّا أنّ ذلك يمثل درجة دانية من الصّلاة على كل حال..

وفي الخبر أنّ الإمام زين العابديـن عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ كبقية المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ـ كان إذا توضأ للصلاة اصفر لون وجهه[٢].

---

(١) أحد تلامذة الميرزا مهدي الشـيرازي قدّس سّره، وابنه المرجع الراحل السّـيد محمد الشيرازي رضوان اللّه تعالى عليه.

(٢) الإرشاد: ج٢ ص١٤٢.

وبما أنّ: «لكل مأمومٍ إماماً يقتدي به» لذا ينبغي على المسلم أن يتدرج شيئاً فشيئاً في اجتناب الاستخفاف بتعاليم السماء، لكي تسمو أعماله خاصّة الصّلاة التي ورد في الرّوايات أنّها عمود الدّين إن قبلت قُبل ما سواها.. ومن المسلّم أنّه لا يبعث على قبول الصّلاة إلّا الجدية في الأداء والحرص على الصّلاة بحضور قلبي..

الصراع مع الشّيطان

تطلق كلمة (المحراب)في الثقافة الإسلامية على المحل الخاصّ بالصّلاة، وهي اسم مكان المقصود بها محل الحراب، لأنّ الشّيطان ينبري للإنسان حين الصّلاة، فيسدد إليه سهامه، ويسعى إلى شغل فكر المصلي أثناء الصّلاة في كل شيءٍ ما عدا الصّلاة؛ ليحرمه حضوره القلبي وتركيزه الذهني.. إلّا أنّ المؤمن يجهد بقدر ما وسعه إلى الوقوف بوجه إلقاءات الشّيطان والصّلاة بانقطاع إلى الله عزّ وجلّ.

السّعي في طريق طاعة اللّه

قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**وعليكم بهدى الصّالحين ووَقارهم وسكينتهم وحلمهم وتخشّعهم وورعهم عن محارم الله وصدقهم ووفائهم واجتهادهم لله في العمل بطاعته، فإنّكم إن لم تفعلوا ذلك، لم تنزلوا عند ربكم منزلة الصّالحين قبلكم**»[1].

المراد بهدى الصّالحين:أي سيرة وسلوك المؤمنين الثابتين على صلاتهم، فإنّ لكل جماعة أسلوباً وطريقاً يمشون فيه، وكذلك هم الصالحون وأولياء الله تعالى فإنّ لهم طريقاً خاصّاً بهم.

فمن خصائص الصّالحين: الورع والوَقار، والسّكينة والحلم، والخشوع والصدق، والوفاء والجد في طاعة الله سبحانه. وقد حث الإمام الصّادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المؤمنين على اقتفاء أثر الصّالحين والاقتداء بهم والتخلّق بأخلاقهم، وكما أشرنا أنّ الوَقار يختلف عن السّكينة، فالوَقار خاصّ بظاهر الإنسان، والسّكينة متعلقة بباطنه، ولذلك ذكر الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هاتين الخصيصتين منفصلتين..

وَقار الصّالحين

لكل إنسان وَقار يناسب حالته ومنزلته الاجتماعية.. فالملوك والتجار والعبّاد والمؤمنون لهم وَقار خاصّ بهم.. ويتجلى هذا الوَقار حسب حال كل منهم وطبيعة تفكره..

---

(١) نص الرّسالة الشرّيفة.

ولا بد من التذكير أنّ جميع أقوال وأفعال المؤمن نابعة من إيمانه وقائمة على أساس التعاليم الإلهيّة، ولذا فإنّ النّاس يتذكّرون الله تعالى إذا رأوا المؤمن.. تماماً كما قال النبيّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**تذكّركم الله رؤيته**»[١]، إذ إنّ حركات وسكنات المؤمن تختلف عن حركات وسكنات غيره.

بالطّبع هناك فارق كبير وبون شاسع بين الوَقار والتكبر.. والتمييز بينهما أمر مشكل لصعوبة التمييز بين المفاهيم، فرغم أنّ مفهوم الماء واضح جداً، إلّا أنّ هناك بحثاً بين الفقهاء في وجه الشبه أو التفاوت بين المياه الزاجية[٢] والمياه الكبريتية، وهل إنّهما يعتبران ماءً...

وقد ورد في سيرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنّه كان إذا أراد النّظر لأحد، التفت بكل وجهه إليه، وإذا ما أراد الإشارة لشخص، فهو لا يشير إليه بإصبعه، وإنما يشير إليه بكل يده.. وهذه من مظاهر الوَقار.. هذا الوَقار الذي يتمكن الإنسان به من السيطرة على انفعاله الداخلي، ويمنع به ظهور هذا الانفعال للعيان، وقد ورد: «**المؤمن بشره في وجهه، وحزنه في قلبه**»[٣].

الصبر والحلم

يقال لمن يتحمّل تقلبات الظروف كالفقر والمرض وغيرها من الأمور التي يعجز الإنسان عن التغيير فيها صابراً، بخلاف الحليم فهو يقال لمن يصبر على التصرفات السيئة القابلة للإصلاح كصبر الإنسان على سبّ الآخرين له.

روي أنّ أعرابياً قصد الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخذ ينال منه ومن أبيه، والإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ ساكت لا ينبس ببنت كلمة.

(١) بحار الأنوار: ج٩٧ ص٨٤.
(٢) مادة يُصقل بها الذهب، ويصطلح عليها بالماء، وهي نفسها مادة الأسيد نتريك.
(٣) بحار الأنوار: ج٦٤ ص٣٠٥.

ولما فرغ الأعرابي من سبابه التفت الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ إليه، وقال: «**إن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك**»[١].

وقيل: إنّ رجلاً من أهالي سامراء كتب للميرزا الشيرازي[٢] رحمه الله رسالة عنيفة، فأمر الميرزا خادماً له أن يشتري كمية من الرقي ويرسلها إليه، وقال: إنّ الرّجل قد انفعل شيئاً ما...

خشوع الصّالحين

إحدى معاني باب التفعّل هي التظاهر بالشيء، كأن يتحلّم الإنسان أي: يتظاهر بالحلم.. وعلى هذا يحمل قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: التخشّع، أي: ينبغي للمؤمن أن يحقّر ذاته ويتظاهر بذلك أمام الله عزّ وجلّ.. ومثل هذا التظاهر من شأنه أن ينمّي حالة الخشوع في أعماق الإنسان..

ولا يخفى أنّ التخشّع من وسائل اكتساب الخشوع... إذ إنّ نيل أيّة صفة يتطلب التظاهر بها مدّة ما إلى أن تتأصل في أعماقه...

ولا ينبغي الخلط بين عواقب التظاهر بالخشوع وبين وعواقب الرياء... لأنّ الحديث هنا بعد الفراغ عن وجود نية الإخلاص والتقرب إلى الله وتدريب الذّات على الفضائل، بخلاف ذلك في الرياء حيث تسبقه نية في الابتعاد عن الله تعالى والرّغبة في خداع الآخرين لتحقيق مصالح خاصّة.

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٣ ص٣٤٤.

(٢) السّيد الميرزا محمد حسن الشيرازي، المشهور بالمجدد، عميد أُسرة الشيرازي، ولد في ١٥ جمادى الأولى ١٢٣٠هـ، هاجر إلى أصفهان ثمّ إلى النّجف الأشرف سنة ١٢٥٩هـ ثم إلى سامراء ١٢٩١هـ. تتلمذ عند العلماء الأعلام أمثال السّيد حسن المدرس والمحقّق الكلباسي وصاحب الجواهر والشّيخ الأنصاري. آلت إليه المرجعية سنة ١٢٨١هـ بعد وفاة أستاذه الشّيخ الأنصاري. قارع في إيران الاستعمار البريطاني في ثورته المعروفة «التنباك» والتي أيقظت العالم الإسلامي وأعطته الوعي السياسي في تاريخه الحديث، فقد تنبه المسلمون بفضلها إلى الأخطار التي يسببها النفوذ الأجنبيّ في بلادهم.

الورع عن المحارم

من الصّفات الأخرى التي ينبغي للمؤمن أن يتحلّى بها ويقتدي بالصّالحين فيها هي الورع عن المحرمات والالتزام بالتكاليف الشرعية...

فكما أنّ الكاسب يسعى دائماً لتحصيل الربح وضمان الفائدة ـ باعتبارها جوهر علمه ـ ولا يكل عن السّعي في هذا الإطار، كذلك هو الإنسان الصالح، فهو يسخّر جل طاقاته لنيل الورع، لذا فهو دائم الحذر من الوقوع في المحظورات..

بالطّبع إنّ طريق الورع مليء بالعثرات، وله مشاكله الخاصّة به.. لذا ينبغي للمؤمن لو انزلقت قدمه في بعض الأحيان أن يعزم على أن لا يرتكب المحرمات أبداً.. كما هو الكاسب الذي يتعرض لخسارة مالية، فهو يحذر بشدة كي لا يخسر ثانية.

الملفت للانتباه أنّ الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يقل: الورع عن محارم الله.. وإنّما قال: «وورعهم عن محارم الله» ولعله أراد بذلك الدعوة إلى الاقتداء بطريقة الصّالحين في الورع، علماً أنّ كلامه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نوع من التفصيل بعد الإجمال، حيث ابتدأ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رسالته بالقول: «عليكم بهدى الصّالحين» ثم تطرق إلى جزئيات الحديث، ومنها الورع عن محارم الله عزّ وجلّ.

الصدق والوفاء

هناك خصوصيات أخرى للصالحين منها الصدق والوفاء... وبالرّغم من أنّ الصدق في الدّنيا قد تتبعه أضرار وخسائر إلّا أنّه ورد في الحديث: «**النجاة في الصدق**»[1].

وكذا هوالوفاء، فهو قد يلحق بصاحبه أضراراً إلّا أنّه يعد من الخصوصيات البارزة للصالحين.

فإنّ المؤمن يفي بعهده لأيّ شخص كان، الصّديق والعدو، الكبير والصغير.. لأنّ المهم لديه بقاء العهد الذي اتخذه على نفسه.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٠ ص١٣.

يقول أحد الكسبة المحترمين: إنّ شخصاً اشترى مني بضاعة نسيئةً على أن يسلّمني المبلغ بعد شهرين ويستلم البضاعة، وبعد أيام قلائل جاءني رجل آخر يريد البضاعة نفسها، فقلت له: لقد نفدت، فنظر نظرة في أطراف المحل، فرأى الأمانة، وقال: لديك ما تبيعه لي.

فقلت له: هي ليست لي.

فقال: إذن لماذا هي عندك؟!

قلت: هي أمانة عندي.

قال: وهل سلّم صاحبها ثمنها؟

قلت: لم أستلم شيئاً ولكن المقرّر أن أستلم الثمن بعد شهرين تقريباً.

فعاود الرّجل كلامه بأنّه على استعداد لدفع الثمن نقداً وبقيمة أكبر، ولكنّي رفضت عرضه وآثرت الوفاء بما عاهدت به المشتري الأوّل.

لا للكسل... نعم للمثابرة

كثيرة هي الأخبار الشّريفة الواردة عن أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في ذمّ الكسالى فضلاً عن الأخبار الداعية إلى الجد والمثابرة سواء في أمور الدّنيا أو الآخرة.

فقد ينظر الإنسان إلى كتاب من الكتب ولا يكلّف نفسه عناء التفكير في الجهود المبذولة في تأليفه وإصداره.. والحال أنّ هناك جهوداً جبارة وراء تأليف كثير من الكتب ـ أمثال كتاب (بحار الأنوار) و(سفينة البحار) و(مستدرك سفينة البحار) والعديد من الموسوعات ـ حيث جهد مؤلفوها في تدوين كل حرف منها، متحمّلين الصعوبات والآلام إبان كتابتها لتخرج إلى الوجود وتكون مورد استفادة القرّاء والمحقّقين..

بالطّبع عندما ندعو إلى الجد والمثابرة لا نعني بذلك قطعاً هجر النوم والمطعم والتخلي عن أداء المسؤوليات ومتطلبات الحياة الطبيعية، فإنّ مثل هذه الأمور مطلوبة إلى جانب العمل والجد والاجتهاد.

مخادعة النّفس

روي عن أَمير المؤمِنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه قال: «**خادعْ نفسك**»[١] ولا يخفى أنّ قوله: «خادع» تضم بين طياتها معاني دقيقة، فهي من باب المفاعلة الدالة على صدور الفعل من اثنين، فإذا قيل: «تقاتلا» علم أنّ هناك طرفين كلّ منهما قاتل الآخر..

وحيث إنّ النّفس في عراك دائم مع الإنسان لذا أمرَ الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بمواجهتها بالمثل ومخادعتها.. ولعلّ السر في وصول البعض إلى مراحل رفيعة في ضبط النّفس أنهم حاربوا أنفسهم وخادعوها وانتصروا عليها، فحولوها إلى نفوس مطمئنة راضية..

لذا ينبغي لمن يريد السعادة في الدارين أن يحول الصّفات النّفسانية إلى ملكات وذلك من خلال التلقين الدائم للنفس وحثها على الخيرات إلى أن يصبح ذلك ملكة ذاتية، نعم «الأجر على قدر المشقّة» لأنّ التظاهر بالأعمال الصالحة ـ لتربية الذّات دون الرياء ـ أمر صعب، ولكنّه أسرع ما يوصل إلى الهدف..

المواظبة على الطاعة

ورد في الخبر الصحيح عن أبي الصلت، عن الإمام الرّضا عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «**رحم الله عبداً أحيى أمرنا**»، فسأله أبو الصّلت قائلاً: وكيف نحيي أمركم يابن رسول الله؟ فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**يتعلّمُ علومنا ويعلمها النّاس**»[٢]

لا شكّ أنّ الله عزّ وجلّ يتلطف ويرحم الذين يحيون أمر أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فضلاً عن دعاء الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم وهو مستجاب قطعاً..

ولا يخفى أنّ طاعة الله تعالى متوقّفة على اكتساب الصّفات الحميدة، وهو يحتاج إلى الممارسة والتّمرين، فلمّا يواظب الإنسان على عمل معيّن، كالالتزام

(١) نهج البلاغة: الرّسالة٦٩.
(٢) وسائل الشّيعة: ج٢٧ ص١٤١.

بصلاة اللّيل مدّة أربعين ليلة، أو عدم التغيّب عن الدرس مدّة ستّة أشهر، أو أن لا يعكّر صفو الجو العائلي بأخلاقه السيئة لمدّة أسبوع.. آنذاك سيلتفت إلى أنّ اكتساب الفضائل الأخلاقيّة ليس بالأمر اليسير خاصّة في بداية العمل.. وهذه الحقيقة ليست حكراً على الإنسان، بل تشمل غيره حيث لا يتوقع من كثير من المخلوقات أن تسير ضمن مسيرة مستقرّة لا عوج ولا خطر فيها.. فما بالك بطاعة الله عزّ وجلّ، فهي مسيرة محفوفة بالمخاطر والعقبات وتحتاج إلى وعي وإخلاص ونشاط واستقامة؟!

هكذا تصنع طاعة الله عزّ وجلّ

نُقل أنّ السّيد البروجردي رحمه الله، قال: عندما كنت أنشغل بالمطالعة اللّيلية كثيراً ما كنت أهجر النوم إلى صلاة الفجر..

ولا يخفى أنّ السهر إلى الصباح، وإعمال الفكر، والانشغال بأمور المسلمين، والتصدّي للتدريس، وعدم الخلود إلى الراحة إلّا بالمقدار اليسير ليس بالأمر الهيّن أبداً..

مجمل هذه الأمور صنعت السّيد (البروجردي) رحمه الله الذي كان يتطرّق إلى مسألة يعجز الكثير من أهل العلم عن حلّها، ثم يحلها رحمه الله بخمسة طُرق مع أنّها لم تذكر في كتب المتقدمين..

وقيل: إنّ أحد العلماء ـ وكان ذا شخصيّة بارزة ـ حضر مجلس عقد قرانٍ، فقام له الحاضرون إجلالاً ـ وكان أكثرهم من العلماء، فطلبوا منه الجلوس في صدر المجلس، ولكنّه امتنع عن ذلك، واختار الجلوس عند الباب، وبعد لحظات طلب منه صاحب المنزل الجلوس في صدر المجلس، فامتثل له وغيّر مكانه.

فتساءل الحاضرون عن سبب رفضه الأوّل وامتثاله لأمر صاحب المنزل، فأجابهم صاحب المنزل قائلاً: إنّه ـ العالم البارز ـ رجل متعبّد، وقد اختار في البدء الجلوس

عند البـاب لكونه من التّواضع المستحبّ، وحينما طلبت منه تغييـر مكانه قام بوظيفة أخرى حيث استجاب لطلبي لكوني صاحب المنزل..

هكذا تأخذ طاعة الله عزّ وجلّ بيد الإنسان إلى مراقي الكمال.

في رحاب الطاعة

إنّما تتقبّـل الأعمال لو كانـت في سـبيل الله وليس كأعمـال من يتعلّـق بالملكية أكثر من الملك نفسـه.. ولذا ينبغي أن تكـون طاعة الله تعالى هي المـلاك وليس العبد وأهدافه.. وهذه لعمري نقطة مهمة ودقيقة.

ففي أحد الأيام ذهبت برفقة بعض الأصدقـاء إلى عيادة أحد المرضى، وكان ذلك في شـهر رمضان المبارك، وقد عجز المريض عن الصوم بسبب المرض، فقال له أحد العائدين: آجـرك الله على آلامك، فردّ المريـض بانفعال: إنّني لا أريد أجـراً.. لماذا لا أستطيع الصيام؟!.

نمط كهـذا من التفكيـر والحديـث لا مبرر لـه أبـداً، لأنّ الطاعة ينبغـي أن تكون ضمن إرادة الله تعالى، فلا يصح للإنسان ـ مثلاً ـ مهما كانت قوته ونشاطه وعبادته ـ أن يصلي الظهر خمس ركعات بحجة أنّ ذلك أكثر خشوعاً، فإنّ الخشوع أمر مطلوب في العبادات، ولكن يجب أن يكون ذلك ضمن إطار إرادة الله سبحانه.

وقد نقل الوالد رحمه الله عن أحدهم ادّعى أنّه لم يصلّ بتيمّم طيلة عمره..

بالطّبع العبادة والإخلاص أمران جيدان، ولكن لو صح كلام الرّجل، فهو لا يخلو عن حالين.. لأنّـه إمّا لم يحتج إلـى التيمّم وهذا لا يصـح التفاخر به، لأنّـه لم يقم إلّا بتكليفه الشـرعي، وهو الوضوء أو الغسـل، أو كانت وظيفته التيمّـم، ولكنّه أصرّ على الوضوء أو الغسـل في حالة المرض مثـلاً.. وحينها يكون قد ارتكـب معصية وتحمّل إثماً.. إذ من المفترض له أن يلتزم بأحكام الله لا ما تملي عليه نفسه..

ذات يوم قال لـي أحدهم: لن آتي بالعمـل الفلاني ـ وهو من الأعمـال الصالحة ـ فسـألته عن سـبب ذلك، فقال: كنت آتي بذلـك العمل الصالـح منذ أربعيـن عاماً مع أحد الإخوان واليوم ادعى أنّـه لا يعرفني.. فقلت له: هل قمـت بالعمل من أجل ذلك الشخص أم إرضاءً لله سبحانه؟

فالله لم يقل بأنه لا يعرفك.. فإن كنت منزعجاً من ذلك الشخص، فلك أن تستبدله بآخر، وليس لك أن تكف عن فعل الخير..

على كل فقد حثّ الإمام الصّادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه الفقرة من رسالته للشّيعة على الاقتداء بالصّالحين مشـيراً إلى بعـض خصائصهم، ثم حذرهـم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الخاتمة قائلاً: «**فإنّكم إن لم تفعلوا ذلك، لم تنزلوا عند ربكم منزلة الصّالحين قبلكم**».

من آثار التعلّق بالدّنيا

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وإذا لم يردِ الله بعبدٍ خيراً، وَكَلَهُ إلى نفسه، وكان صدرُهُ ضيقاً حَرَجاً، فإن جرى على لسانِهِ حقٌّ، لمْ يُعقد قلبُهُ عليه، وإذا لم يُعقدْ قلبُهُ عليه، لم يُعطِهِ الله العملَ بهِ، فإذا اجتمَعَ ذلك عليه حتى يموت؛ وهو على تلك الحال، كان عند الله من المنافقين، وصار ما جرى على لسانهِ من الحقّ الذي لم يعطه الله أنْ يُعقَدَ قلبهُ عليهِ، ولم يعطِهِ العملَ به حجّةً عليه**»[1].

شبّه الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الدّنيا تشبيهاً لم أره في الكتب التي طالعتها ولم أجد أحداً قد استعمله من قبله أبداً، علماً أنّ لأَمير المؤمنين والأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إبداعات في التشبيه والوصف لا تحصى.

فقد قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**والله! لدنياكم هذه أهون في عيني مِن عِراق خنزير في يد مجذوم**».[2] وقد وردت كلمة (عراق) في (نهج البلاغة) بكسر العين، بينما ذكرها العلامة المجلسي في (البحار) بالكسر والضم، ولكل واحدة من القراءتين معنًى خاصّ، وكلاهما يشيران إلى غاية القذارة كما في قول المرحوم المجلسي رحمه الله.

فالعُراق ـ بضم العين ـ: العظم الخلي من اللّحم، وبكسر العين: الواحد من أمعاء الخنزير.

ويظهر من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «دنياكم» أنّه لا دنيا له، فقد يستاء البعض من الدّنيا،

(١) نص الرّسالة الشّريفة.
(٢) نهج البلاغة: الكلمة ٢٣٦.

ولكن ذلك لا يعني طلاقه لها، فقد يشمئز الرّجل من امرأته دون أن يطلقها.. ولكن الإمام عليّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ طلّق الدّنيا ثلاثاً.. والمطلّقة ثلاثاً لا رجعة لها..

ولا يخفى أنّ الدّنيا غير مقتصرة على المحرمات، بل تشمل الحلال أيضاً.. نعم، التعلّق بالدّنيا شيءٌ، والاستفادة من نعمها المجردة عن التعلّق والتبعية شيءٌ آخر.

فينبغي للإنسان أن ينظر إلى محرمات الدّنيا كما ينظر إلى أمعاء الخنزير بيد المجذوم.. فلو أنّ طعاماً وضع أمامه لعافته نفوس النّاس من حوله، فما بالك لو أنّه قد حمله بيده، لذا أوصى الإسلام بالفرار من المجذوم كالفرار من الأسد[1]..

وقد بالغ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في تصوير الدّنيا حيث صورها بأنّها أهون عنده من العُراق في يد المجذوم..

بالطّبع ليس المراد من الدّنيا المال، والشباب، والرّئاسة، والمظهر الجميل فحسب، فقد عدّ القُرآن الكَريم التفاخر بالأولاد وغير ذلك من الدّنيا[2].

واعظ من النّفس

ورد عن الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **ألا وإنّه من لم يكن له من نفسه واعظٌ لم يكن له من الله حافظ**[3].

لا شكّ أنّ من يريد إصلاح نفسه يحتاج قبل موعظة الآخرين أن يكون له واعظ من نفسه وإلّا فلن تغنيه مواعظ الآخرين ويكون ممّن: «وكله الله إلى نفسه» فينحرف والعياذ بالله ويصبح كابوساً يجثم فوق كيان المجتمع.

فمن أساليب ابن زياد ضد مسلم بن عقيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنّه وعد النّاس بمختلف الوعود، ورغبهم بالمال، ناهيك أنّه دفع الأموال إلى البعض وأمرهم بتوزيع الأعلام،

(١) ورد في الحديث الشّريف: فرّ من المجذوم فرارك من الأسد. أمالي الصدوق، ص٣٧٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤.
(٣) بحار الأنوار: ج٤١ ص١٣٣.

والمناداة بأنّ كل من يرفع علماً منها على باب داره فإنّ ماله ونفسه في أمان.. كما أعطى الوعود والعهود إلى جماعة آخرين يضمن لهم المناصب والمسؤوليات..

وكذا تمكن من تفريق الكوفة ـ بوعوده ـ إلى عدة أقسام لإنجاح خططه الشّيطانيّة للإيقاع بمسلم بن عقيل، وقد حدث له بعض ما أراد، حيث تمكن من تفريق النّاس عن مسلم بن عقيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.. وهذه هي صورة الدّنيا التي قال عنها أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنها أهون عليه من قطعة عظم خنزير في فم مجذوم..

معرفة الواجبات والمحرمات

عن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ربما ضربت الغلام في بعض ما يحرم فقال: وكم تضربه؟ فقلت: ربما ضربته مائة. فقال: مائة مائة؟ فأعاد ذلك مرتين ثم قال: حد الزنا؟ اتق الله، فقلت: جعلت فداك فكم ينبغي لي أن أضربه؟ فقال: واحداً، فقلت: والله لو علم أنّي لا أضربه إلّا واحداً ما ترك لي شيئاً إلّا أفسده، فقال: فاثنتين، فقلت: جعلت فداك هذا هو هلاكي إذن. قال: فلم أزل أماكسه حتى بلغ خمسة ثم غضب، فقال: يا إسحاق إن كنت تدري حد ما أجرم فأقم الحد فيه ولا تعد حدود الله[1].

أقول: الكثير من النّاس من أهل الصّلاة والصيام ولكنّهم لايعرفون الواجبات والمحرمات، وحتى لو أرادوا التعرّف عليها لم يسع وقتهم لذلك لانشغالهم بأمور الدّنيا.

فبالرّغم من تصريح الفقهاء بحرمة الظلم مثلاً إلّا أنّ الكثير من النّاس يجهلون الكثير من مصاديقه ومن ذلك مثلاً: أن يخيف الوالد طفله ليقوم بعمل ما، فهو من الظلم عرفاً وإن فعل الوالد ذلك من باب المحبة، فإنّ هذه المحبّة تتحوّل ـ بذلك ـ إلى مصداق للظلم...

فالظلم غير منحصر في أكل مال الآخرين دون رضاهم، وليس هو مجرّد

(١) الكافي: ج٧ ص٢٦٧.

الاستجابة للشهوات الباطلة.. فمثل هذه التصرفات من الوالد مع أولاده تعدّ ظلماً.. وبذلك يكون الإنسان قد مهّد لأرضية: «لم يرد الله بعبد خيراً» و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[1] ولم أرَ في غير القُرآن الكَريم يعبّر بالمثقال عن الذرة، فما هي الذرة حتى نعمد إلى وزنها وحسابها؟ فالله سبحانه وتعالى لا يقرّر للإنسان ما لا يقرره هو لنفسه.. بل الإنسان هو الذي يمهّد الأرضية، ومفتاح سعادته ومفتاح شقائه بيده قبل أن يكون بيد الآخرين.

(١) سورة النساء، الآية: ٤٠.

حبّ اللّه عزّ وجلّ

قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**ومَنْ سرّه أن يعلمَ أن الله يحبُّه، فليعملْ بطاعةِ الله، وليتّبعنا، ألمْ يسمعْ قولَ الله عزّ وجلّ لنبيّه** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] [2].

في آخر فقرة من رسالة الإمام الصّادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يشخص ميزان حبّ الله، والملاك في تحصيل محبّته تعالى ألا وهو طاعة الله تعالى واتباع أهْل البَيت عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ واقتفاء أثرهم.. فمن التزم بهذين الواجبين ـ طبقاً لتصريح الإمام الصّادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ أحبّه الله تعالى وقربه إليه.

الفرق بين السماع والاستماع

هناك فرق في اللّغة العربيّة بين السماع والاستماع، فلما يصغي الإنسان إلى قارئ القُرآن الكَريم مثلاً بانتباه وإصغاء يسمّى مستمعاً، أمّا إذا تشاغل عنه بعمل ما، كأن ينشغل بالقراءة أو الكتابة أو التحدّث مع أحد ما يسمّى سامعاً.

وقد اختلف الفقهاء في وجوب السّجود لدى سماع آية السجدة واتفقوا على الوجوب عند الاستماع، وبغض النّظر عن إجماعهم على وجوب السّجود لدى الاستماع، فإنّ عدّة منهم أفتوا بوجوب السّجود حين السماع أيضاً، بينما خالفهم بعض الفقهاء في ذلك..

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
(٢) نص الرّسالة الشرّيفة.

على كل فقد عبّـر الإمام الصّادق في رسـالته بـ(يسـمع) ولـم يقل (يسـتمع) لأنّ مجرد السماع لقوله تعالى الداعي إلى اتباع الرّسول والأوصياء الشرعيين كافٍ لإدراك أسباب وأبعاد الحبّ الإلهي..

من وحي الغدير[١]

إنّ واقعة الغدير قضيـة مصيرية ومهمة في تاريخ النبـيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.. والحال أنّ الكثير من سكان العالم لا يعرفون عنها شيئاً.

وقد نقل البزنطـي ـ وهو من خيـرة أصحاب المعصوميـن عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ـ عن الإمام الرّضا عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه قال: «**لو عرف النّاس فضل هذا اليوم بحقيقته، لصافحتهم الملائكة في كل يوم عشر مرات...** »[٢].

وليس هناك مناسـبة غير عيد الغدير تصافح فيها الملائكة النّـاس، ولم أجد رواية أخرى تشير إلى مصافحة الملائكة للناس عشر مرات إلّا في عيد الغدير المبارك، علماً أنّهم عباد مكرمون وقد وصفهم القُرآن الكَريم بأنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ﴾[٣].

وهـذا التكَريم والإجلال ليـس لعمل قامـوا به، وإنما هـو لمعرفتهـم بفضل عيد الغدير.. وكما هو معروف فإنّ العمل مرحلة تعقب المعرفة، وهي مقدمة للعمل.

بلى، في بعض الرّوايات المعتبرة أنّ أرواح الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تصافح زوار الإمام الحسـين عَلَيْهِ السَّلَامُ ولكن مصافحة الملائكة المؤمنين لمعرفة فضل الغدير عشرات المرات[٤]، وهذا هو الاستثناء الفريد.

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن شرح آخر فقرة من رسـالة الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ صادف ذكرى عيد الغدير، ولذلك؛ فقد ارتأى سماحة المؤلف أن يخصص الحديث عن هذه الذكرى العظيمة.

(٢) بحار الأنوار: ج٩٤ ص١١٨.

(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٤) وذلك بعدد الفرائـض اليوميّة، أو لعلّه حينها، فيكون -على هذا- في كل سـنة بعدد الفرائض اليوميّة فيها آلاف المرّات.

الجدير ذكره أنّ الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يقل: إن عرف النّاس.. أو: إذا عرف النّاس، بل قال: «لو عرف النّاس» ويقال إنّ (لو) حرف شرط يستخدم للتعجيز، ناهيك عن قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «بحقيقته»الدال على أنّ حقيقة الغدير حقيقة استثنائية ربما لا يعرفها - أو تستصعب معرفتها - إلّا الله عزّ وجلّ ومن أراد الله تعالى لهم أن يعرفوها..

عندما غاب الغدير

تضافرت الأخبار عن أهْل البَيت عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بأنّ النّاس بعد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لولم يزووا أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن حقّه في الخلافة وكان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد حكم النّاس لـ: «أقام كتاب الله كلّه والحق كلّه»[1] علماً أنّ من الكتاب: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[2] و﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾(*) ومنها: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[3] وفي آية أخرى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾[4] ولما بقي فقير أو جائع، ولكن وللأسف بقي الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حبيس بيته طيلة خمس وعشرين سنة حيث حبس المقصون له عن النّاس كنوز الأرض والسماء منذ ذلك الوقت إلى ظهور إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشّريف..

آثار ضياع الحق

حكم أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مدّة أربع سنوات وأشهراً إذا ما قيست مع الحكومات المعاصرة لعلم ما هي العدالة ومن هو الإمام عليّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ..

فاليوم يرفع شعار الحرية كذباً في شرق الأرض وغربها بينما يقتل الآلاف ويعتقل الملايين في السجون بلا ذنب ويمارس مع الملايين صنوف التّعذيب النّفسي والجسدي فضلاً عن أسارى الحروب الباطلة وملايين الجوعى والعطشى

(١) وسائل الشّيعة: ج٢٠ ص٣٩٧.
(٢) و(*) سورة البقرة، الآية: ٤٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٩. وفي كتاب (سليم بن قيس) عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ص ٢١١.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٦.

والمرضى... وما ذلك إلّا للانحراف عن جادة الغدير القويمة.

ففي يوم من الأيام قال أحد الخوارج لأميرِ المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: اتّقِ الله، فإنّك ميّت...[١] وكان الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ آنذاك حاكماً على أكبر دولة.. ولكنّه قابله بالتي هي أحسن كما هو ديدنه، بينما قال شخص (للوليد): «اتق الله يا وليد»، فوطئ بالأقدام حتى مات واتّعظ النّاس به[٢]، وكان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قال كلاماً فواجهه بعض الخوارج وقال عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قاتله الله كافر ما أفقهه»، وهو ذلك اليوم حاكم أكبر دولة على وجه الأرض. فوثب القوم ليقتلوه، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ:

رويداً، إنّما هو سبٌّ بسبّ أو عفو عن ذنب[٣].

هكذا كان يعمل من اغتصبوا القيادة باسم رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حيث كانوا يخالفون القُرآن جهاراً والحال أنّ الإمام عليّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ «مع القُرآن»[٤].

فهل يستطيع أحد اليوم أن يواجه ولو صغار المسؤولين بمثل هذا الكلام فضلاً عن الحكام وكبار المسؤولين؟ فأين هؤلاء وقوانينهم الوضعية الباطلة من الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وقانونه السماوي وسياسته وإدارته المعصومة العادلة؟!

لا يخفى أنّ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**لأقام كتاب الله كله**»حريّ بالتأمل والتدقيق خاصّة كلمة (كلّه).. إذ إنّ بعض القُرآن الكثير يعملون به.. بينما هناك أقسام من كتاب الله مهجورة.. ولقد ذم القُرآن الكَريم اليهود لقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾[٥] لأنّ دين الله تعالى وحدة واحدة ومجموعة متكاملة لا يمكن الأخذ ببعضه والتخلي عن بعض.

وكان أَمير المؤمِنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يتبع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ اتباع الفصيل أثر أمه

(١) بحار الأنوار: ج٤٢ ص١٩٥.
(٢) أخبار الدّولة العبّاسيّة، ص ١٧٨، ومآثر الإنافة للقلقشندي، ج٢ ص٣٤٦، وغيرها.
(٣) مناقب آل أبي طالب، ج١ ص٣٨٠.
(٤) راجع أمالي الطوسي: ص٤٦٠.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٥٠.

ومن ذلك تقسيم العطايا من بيت المال، ولكن عمر كان يكنز حقوق النّاس سنةً بعد أخرى دون أن يسلّمها إليهم..

ولما جيء بخمس إفريقيا إلى عثمان بن عفان وهبه لصهره والمتحدث باسمه مروان بن الحكم ممّا أثار اعتراض النّاس ضده ومنهم الصّحابيان الجليلان؛ أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر رضوان الله عليهما.. وقد انتهى الأمر إلى نفي أبي ذر إلى الربذة واستشهاده فيها، وتعرض عمار إلى الضرب والتّعذيب حتى أصيب بمرض عضال.. وهنا يعرف الفرق بين أتباع الغدير عن غيرهم.

فلم يكن أَمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقابل إساءة الآخرين بالإساءة اعتماداً على قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1] بل كان يعفو ويرحم كما أوصى الباري تعالى في قوله: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2].. ولو تسنى له عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الحكم طيلة الخمسة والعشرين عاماً التي أقصي فيها، وأمسك بزمام إرشاد المسلمين.. لأثّرت في المجتمع الإسلامي أخلاقه العظيمة، ولساهمت إلى حد كبير في تعديل أخلاق الحكام، ولأصبحت هي الأخلاق السياسية الرائجة بين القادة، ولما تورطنا اليوم بساسة وقادة منحرفين..

نقل: أنّ مساحة قصر بعض العبّاسيين كانت عدّة كيلومترات، في حين لم تكن بنات الإمام موسى الكاظم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبنات رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تملك إلّا عباءة واحدة يتناوبن ارتداءها في الصّلاة!![3]

ونقل: أنّ أحدهم دخل الكوفة وسأل بعض المسلمين، فقال: من هو إمامكم؟

فأشاروا إلى بيت أَمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فنظر إليه وكان قريباً من موقفهما، فقال للإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أين متاع بيتك؟ فقال الإمام عليّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: **أرسلته إلى بيتي الآخر**، فخرج الرّجل وسأل النّاس: أين البيت الآخر لعلي؟ فقيل له: ليس له بيت آخر.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.
(٣) مقاتل الطّالبيين، ص ٣٩٦.

فقال: ولكنّه قال: إنّه قد أرسل متاعه إلى بيت آخر.. فقيل له: إنما قصد دار الآخرة.. بالمقابل ذكر في كتاب (تاريخ المدينة)[١] الذي ألّف قبل كتاب (تاريخ الطّبري) أنّ أبا بكر خلّف وراءه ثلاثة بيوت لما مات[٢]...

الغدير والالتزام بالحق

ورد في رواية أنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مرّ أيام حكومته في محلّه، فالتقاه عدد من الصّبية كانوا خارجين لتوّهم من دار للتّعليم، فرفعوا له أوراقهم وطلبوا منه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يشير إلى الأجمل خطّاً منها.. فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**أما إنّها حكومة؛ والجور فيها كالجور في الحكم**»[٣].

هكذا هو الإمام عليّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فهو يريد منا أن لا نتخطى الحقّ حتى لما نقضي بين الأطفال.. فما بالك لو أنّه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربّى النّاس وأرشدهم وحكمهم لسارت الدّنيا في غير مسارها -اليوم- المعروف بالظلم وأنواع الرذائل..

تربية (الغدير) وتربية معاوية

وانظر إلى مالك الأشتر -تربية الغدير- في الكوفة

وانظر إلى زياد ابن أبيه -تربية معاوية- أيضاً في الكوفة

ففي شرح النّهج لابن أبي الحديد المعتزلي (أنّ زياداً لمّا حصبه أهل الكوفة) أي رموه بالحصاة -وهو يخطب على المنبر- قطع أيدي ثمانين منهم، وهمّ أن يخرّب دورهم ويجمّر نخلهم (أي يحرقها)[٤].

وفي البحار (أنّ مالك الأشتر رضي الله عنه كان مجتازاً السّوق، فرماه بعض

(١) تاريخ المدينة لابن شبة، أستاذ المؤرّخ الطّبري.
(٢) تاريخ المدينة: ج١ ص٢٤٣.
(٣) الكافي: ج٧ ص٢٦٨.
(٤) شرح النّهج لابن أبي الحديد، ج٣ ص١٩٩.

السّـوقة ببندقة، فمضى ولم يلتفت، فقيل له: ويلك هذا مالـك صاحب أمير المؤمنين، فارتعد الرّجـل ومضى ليعتذر إليه -وقد دخل مسـجداً- وهو قائم يصلّـي، فلمّا انفتل انكبّ الرّجل على قدميه يقبّلهما، فقال مالك: ما هذا الأمر؟ فقال الرّجل: أعتذر إليك مما صنعـت، (فقال) مالـك: لا بأس عليـك، فوالله ما دخلت المسـجد إلّا لأسـتغفر لك[1]. وهناك الكثير الكثير من هذه النّماذج من الطّرفين.

(١) بحار الأنوار ج٤٢ ص١٥٧.

مسؤوليتنا إزاء الغدير

تقع على عواتقنا مسؤوليتان إزاء الغدير:

إحداهما: تعريف الغدير للعالم،

وهذه المسؤولية الإرشادية واجب كفائي،

فإذا قام بها من فيه الكفاية سقطت عن الآخرين،

ولكنها تبقى واجباً عاماً متعلقاً بذمم الجميع

إن تعذر قيام ثلة بهذا الواجب، حيث تتحول إلى واجب عيني..

ولا ريب أنّ الكثير من المشاريع والخطط والممارسات

ينبغي إعمالها حتى تعمّ المعرفة بالغدير أرجاء الدنيا..

الثانية: أن يسعى الإنسان إلى تطبيق تعاليم القرآن

وتعاليم أمير المؤمنين عليه السلام على نفسه

وصلى الله على محمدٍ وآله الطاهرين

الفهرس

نبذة عن الرّسالة ١٩
الطريق إلى الرّسالة ١٩
أهمية الرّسالة ٢٠
اهتمام الشّيعة بالرّسالة ٢٠
تدبّرات في الرّسالة ٢١
اللُّجوء إلى الله ٢٢
طلب العافية ٢٣
خصال لا بدّ منها ٢٣
شاهد على تمرين النّفس ٢٦
عاقبة عمل الخير ٢٧
استبصار العياشي رحمه الله ٢٨
لنلزم نهج الصّالحين ٢٩
تنزّه الصّالحين ٣٠
بعض ما ينبغي التنزّه عنه ٣١
مثال من التاريخ ٢٤
امتحان المال ٣٥
ابن أبي عُمير ٣٦

السقوط في الهاوية ٣٨
مطالعة سيرة العظماء ٣٨
الخير عادة ٤١
نموذج من القدس والتّقوى ٤٢
مجاملة أهل الباطل ٤٣
فوارق المجاملة والمداهنة ٤٤
المجاملة بالأفضل ٤٥
أصول المجاملة ٤٧
المجاملة في العمل ٤٩
ما دخلت المسجد إلّا لأدعو لك ٥١
لنتعلّم من مالك الأشتر ٥٢
الطريق إلى التّقوى ٥٣
مصاعب التّقوى ٥٣
التّوفيق في الأعمال ٥٥
الوقاية من المعاصي ٥٧
دروس في التّقوى ٥٨
من لوازم التّقوى ٦٠
من آثار التّقوى ٦٠
نِعم لا تحصى ٦١
خرافات يهودية ٦١
التزام الصّمت ٦٢
أقسام الأمور الأخرويّة ٦٣

مواضع الصّمت والتكلّم ٦٤
ابن أبي عُمير قدوة ٦٥
التأمّل قبل الكلام ٦٦
تقديم الموعظة على الصّمت ٦٦
الصّمت الممدوح ٦٨
من بركات الصّمت ٦٨
الثّناء على الله عزّ وجلّ ٧١
ثواب الذكر ٧٢
تسبيح المخلوقات ٧٣
آثار الذكر ٧٦
حضور القلب ٧٨
فوائد الذكر ٨٠
مزاعم خرافية.. ..... ٨٠
أقسام الذكر ٨١
الحذر من الحرص ٨٣
التمتع بالنّعم ٨٤
إياكم والشره ٨٥
عاقبة الحرص والشره ٨٦
لكي لا تضيع نعم الآخرة ٨٦
مطالعة صفات الجنة ٨٨
المسلمون وأخلاق النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ٨٩
الطريق إلى النجاة ٩٠

ابتلاءات الماضين ٩٠
الرّسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يستجير القبائل ٩١
إسلام عثمان بن مظعون ٩٢
التأسّي بأخلاق النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ٩٣
أهمية تبليغ الأحكام ٩٤
لفتة نظر ٩٥
الصّبر في السلوك الإنساني ٩٧
التمسك بالصبر ٩٩
من صبر النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ١٠٠
الصبر مفتاح النصر ١٠٠
قصة في الصبر ١٠١
عاقبة عدم الصبر ١٠٣
أُسلوب المبلّغ ١٠٤
آثارُ الدّعاء ١٠٧
كيف يستجاب الدّعاء؟ ١٠٩
شروط استجابة الدّعاء ١٠٩
موانع استجابة الدّعاء ١١٠
الإحسان إلى الأنفس ١١٧
وقفة مع الكلمات ١١٨
ذخيرة الآخرة ١٢٠
اقترض وتصدّق ١٢١
الاستجابة السريعة للدعاء ١٢٢

هكذا يكون الإحسان ١٢٣
الرّضا بصنيع الرب ١٢٥
نكات لغوية ١٢٦
الرّضا بقدر الله عزّ وجلّ ١٢٧
تفاوت الصبر والرّضا ١٢٧
الرّضا بالمصالح الإلهيّة ١٢٩
مقام الراضين والصابرين ١٣١
معرفة أسباب البلاء ١٣٢
من دسائس أبي سفيان ١٣٣
التسليم بتقدير الله ١٣٥
صعوبة نيل الرّضا ١٣٥
الفرقُ بين القسمة والتقدير ١٣٦
تسليم السّيدة الزهراء عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ ١٣٨
الرّضا عن الله عزّ وجلّ ١٣٩
الطريق إلى الله عزّ وجلّ ١٤١
في رحاب أشهر الطاعة ١٤٢
رفقةٌ إلى باب جهنم! ١٤٢
الهمّة العالية ١٤٣
التأمل في الجواب ١٤٣
سؤال وجوابان! ١٤٤
مصاعب عصر الغيبة ١٤٥
موعظة قيّمة ١٤٥

من لوازم الطاعة ١٤٦
لندقّق في الأعمال ١٤٨
لنكن أسوة للآخرين ١٤٨
مثال من الواقع ١٤٩
السّعي ومقام الطاعة ١٤٩
الاحتياط علامة الإيمان ١٥٠
التأمّل في الأدعية ١٥٠
من مطبّات الشّيطان ١٥٠
حذارِ من الغفلة ١٥١
التسليم في الدّين ١٥٣
أناس باعوا دينهم.. ..... ١٥٥
صعوبة التسليم ١٥٥
لولا التسليم.. ..... ١٥٦
الهلع من الذنب ١٥٧
الإحسان إلى النّفس ١٥٩
الغفلة عن الطاعة ١٤٥
حقائق معقولة ١٦٠
حسرة الآخرة ١٦١
لذّة الرّوح ١٦٢
محور الطاعة ١٦٢
طعام السماء ١٦٢
اجتناب الذنوب ١٦٤

أفضل الأعمال في شهر رمضان ١٦٤
ضحكة أورثت ندماً ١٦٥
مقياس أهل الدّنيا ١٦٦
عالمٌ أضلّه علمه! ١٦٧
أأنت قلت للناس؟ ١٦٨
اتّباع التّعاليم الإلهيّة ١٦٩
لنتبع تعاليم أهْل البَيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ١٧٠
اعمل بما أمرناك ١٧١
التلاعب بالأحكام ١٧٢
الاستخفاف بالدّين ١٧٣
تصبير النّفس ١٧٣
دار بالبلاء محفوفة ١٧٤
قيمة التسليم لله عزّ وجلّ ١٧٥
العزم رمز النّجاح ١٧٥
رمز الموفّقية للمرجعية ١٧٦
الاستخفاف.. سبب التراجع ١٧٦
مراتب الاستخفاف بالصّلاة ١٧٨
الصراع مع الشّيطان ١٧٩
السّعي في طريق طاعة الله ١٨١
وَقار الصّالحين ١٨١
الصبر والحلم ١٨٢
خشوع الصّالحين ١٨٣

الورع عن المحارم ١٨٤
الصدق والوفاء ١٨٤
لا للكسل... نعم للمثابرة ١٨٥
مخادعة النّفس ١٨٦
المواظبة على الطاعة ١٨٦
هكذا تصنع طاعة الله عزّ وجلّ ١٨٧
في رحاب الطاعة ١٨٨
من آثار التعلّق بالدّنيا ١٩١
واعظ من النّفس ١٩٢
معرفة الواجبات والمحرمات ١٩٣
حب الله عزّ وجلّ ١٩٥
الفرق بين السماع والاستماع ١٩٥
من وحي الغدير ١٩٧
عندما غاب الغدير ١٩٨
آثار ضياع الحق ١٩٨
الغدير والالتزام بالحق ٢٠١
تربية الغدير وتربية معاوية ٢٠١
مسؤوليتنا إزاء الغدير ٢٠٣
الفهرس ٢٠٥